سانين

أو

ابن الطبيعة

تعريب: ابراهيم عبد القادر المازني

تأليف: ارتزيباشيف

دار الشعب

اهـــداء الكتاب

إلى ذكرى من لا تزال ذكراها المحبوبة تجدد فى قلبى حسرة الوجد وزفرة الجوى ، إلى من كانت مصدر إلهامى ، وشريكة مجهوداتى فى صفوة ما سطره يراعى ، إلى الصديقة الوفية ، والزوجة المخلصة التى كنت أجد من راسخ إيمانها بالحق ورفيع تقديرها للصدق أحث مشجع ومهيب ، كما كنت أجد فى جميل استحسانها ، وكريم إعجابها ، خير مكافىء ومثيب — أهدى كتابى هذا ، — شأن كل ما لبثت أكتب منذ سنين عدة — ليمت إليها بمثل ما يمت إلى ، وإن كان لم يحظ من نفيس تنقيحها بأقصى الكفاية ، ولم يستوف من ثمين تهذيبها أبعد غاية ، إذ بقيت طائفة من أجل أجزائه كانت قد أعدت كيما تعيد فيها نظرة متثبت مستمهل ، ولكن أبى القدر إلا أن يحرم الكتاب تلك النظرة ، ولو أنى أوتيت سحر البيان مما أعبر به للناس عن نصف ما ضمنت حقيبتها من رائع الخواطر وشريف العواطف ، لأسديت إليهم أضعاف أضعاف ما يستفيدون من كل ما أنا كاتبه ، غير مستحث بهمتها الماضية . ولا مؤيد بحكمتها العالية ؟

« المؤلف »

(١)

لم يقض فلاديمير سانين أهم أدوار حياته فى بيته بين أبويه وهو الدور الذى يتكون فيه خلق المرء بالاتصال بالعالم والامتزاج بالناس . ولم يكن له من يتعهده أو يهذبه ، فتفتحت روحه كما ينمو الغراس فى أتم حرية وأكمل استقلال .

غاب عن بيته سنين ، فلما آب كادت تنكره أمه وأخته « ليدا » ولم تكن معارف وجهه وصوته وشمائله قد تغيرت إلا قليلا . ولكن شيئا غريباً جديداً ناضجاً حدث على شخصيته فأحال فى محياه ضوءاً وأكسبه معنى لم يسبق بهما العهد . وكانت أوبته مساء فدخل الغرفة دخول من زايلها منذ خمس دقائق . وكان يعييك أن تلمح فى وجهه الساكن أو أن تستكنه من ركنى فمه الناطق ببعض السخر — شيئاً من أمارات الإعياء أو دلائل تحرك النفس وهو واقف فى الغرفة مديد القامة وسيم الطلعة عريض الكتفين . فقرت ضجة التحية التى استقبلته بها أمه وأخته من تلقاء نفسها .

وجلس يأكل ويترشف الشاى وأخته قبالته تحدجه بنظرها وكانت مشغوفة بهشأن مثيلاتها أو جلهن — من الفتيات الحالمات الخيال فى الولوع بأخواتهن النائين عنهن . وكانت أبداً تتمثله شخصاً غريبا بالغا من غرابة الأمر مبلغ من تقرأ عنهم فى الكتب ، وتتصور حياته وهى دائرة الأرجاء . بشتى الفواجع والمآسى ، وتحسب أن حظه من العيش الشجى والوحدة ، ككل روح ضخمة مستعجمة .

فقال لها سانين وهو يبتسم « لماذا ترمقينى بهذه النظرة ؟ » .

وكانت هذه الابتسامة الهادئة والنظرة الفاحصة مألوف مايطالعك من وجهه ولكن العجيب أنهما لم يقعامن « ليدا » موقع الارتياح وكأنما خيل إليها أن فيهما معنى الرضى عن النفس ، وأنهما لايبينان عن شيء من الصراع والألم الباطن فصرفت وجهها عنه ولم تلبس ثم جعلت غير عامدة تقلب صفحات كتاب .

ولما قضوا من الطعام والشراب حاجتهم مسحت أمه شعر رأسه فى حدب وحنو وقالت :

« والآن حدثنا عن حياتك وماصنعت هناك » .

فقال سانين وهو يضحك : « ما صنعت ؟ ؟ لقد أكلت وشربت ونمت . وكنت حيناً أعمل ، وحينا آخر لاأعمل شيئاً ! » .

فجرى فى وهمهما بادىء الرأى أنه لا يريد أن يحدثهما عن نفسه ولكن أمه لما شرعت تسأله عن هذا الأمربعينه أوذاك ألفته يرتاح إلى قص تجاريبه . غير أن المرء لم يكن يسعه إلا أن يحس — لأمر ما — أنه لا يعبأ شيئاً بما يكون لقصصه من الوقع والأثر فى نفوس السامعيها . ولم يكن فى شمائله — على دماثتها ورقة حواشيها — ما ينم على تلك الألفة التيلاتكون إلا بين أهل الأسرة الواحدة . وكأنما كان لطفه ودماثته من عفو الطبيعة كالمصباح يريق ضوءه على كل شيء بلا تمييز .

وبرزوا إلىشرفة الحديقة وجلسوا علىدرجها وجلست«ليدا» دونه تصغى إلى حديثه فى صمت ، وأحست فى قلبها برد الجليد وقالت لها غريزتها النسوية الذكية إن أخاها غيرما خالت . واستشعرت الخجل والارتباك فىحضرته كأنه أجنبى منها . وانتشرت على الأرض غيابات العشى وزحفت حولهم الظلال . وأشعلسانين سيجارةفاختلط شذى الطباق(التبغ) بأريجالحديقة وقص عليهما سيرته وكيف رمت به حياته المرامى وكيف طوى كثيراً وتشرد وكيف خاض لجج الجهاد السياسى وكيف أنه لما أدركه الونى والفتور أقلع عنها ونكص .

وكانت « ليدا » مائلة إليه بسمعها دون حراك وعليها من رقة الحسن والحلاوة ما تفيضه أصائل الصيف على كل فاتنة عذراء .

وكانت كلما أوغل فى الحديث تزيد اقتناعا بأن حياته ، التى وشاها خيالها بأبهج الألوان وأشدها لألاء ، لم تكن فى واقع الأمر إلا عادية كأبسط ما تكون . ولكن فيها على هذا شيئاً عجيباً . وما ذاك ؟؟ هذا مالم تستطع اكتناهه . على أنه مهما يكن من الأمر فإن حياته على ماجاء فى روايته لم تعد أن تكون

بسيطة مملة فاترة . يظهر أنه عاش حيثما اتفق ولم يعمل شيئاً يفعله على التعيين . فيوماً يشتغل ويوماً يتبطل . ومن الجلي كذلك أنه كلف بالشراب وأن له خبرة بالنساء . وأحر بمثل هذه الحياة أن تخلو من الحلوكة أوالشر وهي لاتشبه في دقيق أوجليل ماتوهمته من سيرته — لافكرة يحيا لها ، ولا هو يكره مخاوقا ولاتعذب في سبيل كائن ما . ولقد كرهها حقاً بعض ماصارحها به وبخاصة لما قال إنه بلغ من خصاصته ورقة حاله مرة أن رقع سراويله الممزقة بيده .

فلم تملك إلا أن تسأله « أوتعرف إذن كيف تحوك ؟ » وفي صوتها نبرات الدهشة والزراية . إذكانت تعد ذلك هواناً وضعة ، وترى فيه ما ينافي الرجولة في الواقع .

فقال سانين باسماً ، وقد فطن إلى مادار في خاطر أخته : « لم تكن لي بذلك دراية في أول الأمر ولكني مالبثت أن تعلمت بكرهي » .

فهزت الفتاة كتفيها بلا احتفال ولزمت الصمت ورمت الحديقة بعينيها وخيل إليها كأنها كانت تحلم بالشمس الضاحية ، فلما فتحت عينيها لم تجد غير سماء عاتمة مقرورة .

واكتأبت أمه كذلك وحز في نفسها أن ابنها لم يشغل المركز الذي هو أهل له بحكم منزلته في المجتمع . وشرعت تقول له إن الأمور لا يمكن أن تظل جارية على هذا النحو وإنه ينبغي له أن يكون فيما يستقبل من أيامه أرشد و أحزم . وكانت تكلمه في بادىء الأمر على حذر ثم بدا لها أنه لايكاد يجعل باله إلى ما تقول فأخذها الغضب شيئاً فشيئاً ، وألحت عليه بالكلام ذاهبة إلى العناد والمشادة شأن العجائز السخيفات من نظائرها لتوهمها أن ابنها يعتمد أن يكايدها . ولكن سانين لم يعجب ولم يضجر وكأنه لم يفهم ما قالت فظل صامتاً غير مكترث .

بيد أنه لما سألته « كيف تنوي أن تعيش ؟ » قال مبتسما « على نحو ما »

وكان صوته الهادىء المتزن ونظرته السريعة يوقعان في الروع أن لهذه الكلمات — التي لم تفهم منها أمه لاقليلا ولا كثيرا — دلالة عميقة محدودة عنده .

فتنهدت ماريا إيفانوفنا وقالت بعد فترة بشيء من القلق : « هذا شأنك على كل حال فقد شبيت عن الطوق ولم تعد طفلا . ينبغي أن تطوف الحديقة فإن جلاءها يروق النظر الآن » .

فقال سانين لأخته : « نعم تعالي لتريني الحديقة فقد نسيت شكلها » .

فانتبهت « ليدا » من خواطرها وتنهدت ونهضت ومشيا جنباً إلى جنب في الطريق المفضي إلى قلب الحديقة الجهمة .

وكان البيت على الطريق الأكبر في البلدة ، ولما كانت هذه صغيرة فقد امتدت أرض الحديقة إلى النهر ومن ورائه الحقول . والبيت قصر عتيق في عمده على الجانبين رخاوة وله شرفة رحيبة وكانت الحديقة على سعتها مهملة هائجة حتى ليحسبها رائيها سحابة خضراء باهتة قد نزلت إلى الأرض . وهي بالليل كثوى الأشباح وكأنما يغشاها طيف حزين يسري بين أغراسها المتوشجة أو يروح ويغدو في قلق على البلاط الترب بذلك البناء القديم . وفي الدور الأرضي جملة الحجر الفارغة تكسوها الأبسطة الحائلة والستائر الحالكة ثوبا مظلما ولم يكن يتخلل الحديقة إلا طريق واحد ضيق أو ممر ، مبعثرة في نواحيه الأغصان المصوحة والضفادع المسحوقة . وكل ما في الحديقة من دلائل الحياة الهادئة المطمئنة محشود في ركن واحد منها . وثم على كثب من البيت يلتمع الرمل الأصفر والحصى وهنالك — إلى جانب حوض أنيق من الزهر يومض في نوره الطل — يرى المرء مائدة خضراء يجلسون إليها للطعام أو الشاي في الصيف . فكانت هذه الزاوية الصغيرة التي تفتحت فيها الحياة السامية الساذجة من روحها على نقيض ذلك القصر الضخم المهجور ، المقضي عليه بالتداعي المحتوم .

ولما خفي البيت عن أعينهما وأحاطت بهما الأشجار الصامتة الساكنة كأنها الشهود تنظر وتروى ، دفع سانين ذراعه فجأة حول خصر ليدا وقال بلهجة جامعة بين الرقة والعنف :

« لقد صرت آية ! وسيسعد بك أول من تحبين من الرجال » .

فأرسلت لمسة ذراعه وعضلاته الحديدية هزة نار فى عود ليدا اللين الغض . وصبغ وجهها الخجل ؛ واضطربت فتنحت عنه كأنما قاربها وحش غير مرئى .

وكانا قد بلغا حافة النهر فصعدت إليهما رائحة بليلة رطبة من الأعشاب المطرقة المترنحة فى الماء وبدت مما يلى النهر الحقول فى رداء من غبش الغسق تحت سماء مترامية تومض فيها طلائع النجوم .

ومال سانين وتناول عوداً جافاً ذاوياً ووقصه وألقى بكسره فى تيار الماء فانداحت فى لجته الدوائر وزالت بأسرع مما ظهرت . وحنت الأعشاب النابتة رءوسها كأنما أرادت أن تحيي فى سانين ندها ورفيقها .

(٢)

كانت الساعة السادسة والشمس مازالت وضاءة ، ولكن الحديقة ارتمت فيها الظلال الرقيقة . وكان الجو كله ضوءا وحرارة وسجوًا . وكانت ماريا إيفانوفنا تصنع مربى ؛ فانبعثت تحت شجرة الزيزفون الخضراء رائحة قوية من السكر المغلى والتوت البرى . وكان سانين يكدح نهاره فى أحواض الزهر معالجاً أن ينفث الحياة فى بعض أعوادها التى أضر بها التراب والحر .

فقالت له أمه مقترحة : « أولى لك أن تقتلع الحشائش أولا . قل لجرونكا تصنع ذلك لك » .

وكانت ترقبه وتتحديه بعينيها من حين إلى حين من خلال اللهيب الأزرق المرتعش .

فرفع سانين رأسه وهو متقد وقال باسما : « ولماذا ؟ » ورد شعره المتهدل على جبينه « لتنم كما شاءت فإنى أحب كل أخضر » .

— « أما إنك لفتى مضحك ! » .

وهزت كتفيها باشة ، وقد سرها جوابه لأمر ما .

فقال سانين بلهجة الجازم المقتنع : « إنكم أنتم المضحكون » ، ثم انصرف إلى البيت ليغسل يديه ولما عاد تمطى على كرسى ذى ذراعين مصنوع من عيدان الصفصاف وشاع فى جوانب نفسه الاغتباط وفى صدره ووجهه الانشراح، وأشعرته خضرة الروضة ونور الشمس وزرقة السماء لذة الحياة أيما إشعار . وكان نفوراً من المدن الكبرى عقت ضجتها . أما هنا فليس إلا الشمس والحرية . ولم يكترث للمستقبل ولا أحس من أجله دبيب القلق إذ كان غير متبطر — يتقبل من الحياة ما شاءت أن تهديه إليه وأغمض جفنيه كل الإغماض ومط جسمه واهتز مسروراً لتوتر عضلاته القوية الصحيحة .

وهب النسيم عليلا وعادت الحديقة كلها وكأنما تزفر وجعلت العصافير هنا وههنا تصخب متناغية عن حيواتها المهمة وإن لم تكن بالمفهومة وكان كلبهم « ميل » مستلقياً على الحشائش الطويلة منصتاً وأذناه مرهفتان ولسانه الأحمر متدل من فمه . وأوراق الشجر تتهامس وظلالها المستديرة ترتعش على الحصى الأملس .

وهاج ماريا إيفانوفنا أن طائر ابنها ساكن وكان حبها له جما كحبها لأبنائها جميعاً فنازعتها نفسها لهذا أن تستثيره وأن تجرح احترامه لنفسه لتكرهه على الالتفات إلى كلامها ولتحمله على مشاطرتها نظرها إلى الحياة . وكانت كالنملة قد قضت كل برهة من عمرها المديد فى إقامة ذلك البناء الواهى لسعادتها المنزلية . وما كان أطوله وأعراه وأخلاه من بواعث السلوى النافية للملال ! بل ما أشبهه بالثكنة أو المستشفى ! شيد بما خططه الحصر من دقائق اللبنات . وتالله ما أعجزها من مهندسة تحسب هذه مباهج الحياة وإن لم تكن سوى متاعب ضئيلة غادرتها فى حالة دائمة من الاضطراب والقلق .

قالت : « أتحسب أن الأمور ستظل سائرة على هذا المنوال فيما بعد؟ » .

وتضاغطت شفتاها وتظاهرت بأن المرفى تستغرق عنايتها . فسألها سانين : « وماذا تعنين بقولك فيما بعد ؟ » ثم عطس . فظنت ماريا إيفانوفنا أنه عطس عامداً ليهيجها وقطبت وجهها على الرغم مما فى هذا الخاطر من وضوح السخافة .

ثم قال سانين وكأنه يحلم : « ما أحلى أن يكون المرء هنا معك ! » فأجابته بلهجة جافية : « نعم فإن المقام هنا ليس بالذميم جداً » وسرها من ابنها اطراؤه البيت والحديقة وكانا عندها كأنهما من ذوى قرباها الملازميها .

ونظر سانين إليها ثم قال وعلى وجهه هيئة التفكير : « لو أمسكت عن مضايقتى بكل أنواع الحماقات لعاد المقام خيراً وأحمد » .

ونطق هذه الكلمات بصوت لين المكاسر فخالفت رقة اللهجة جفوة المعنى .

فحارت ماريا إيفانوفنا ولم تدر أترتاح إلى ما سمعت أم تمتعض وتغضب . وقالت وهى مكتئبة :

— « إنى لأنظر إليك وأذكر أنك فى طفولتك كنت دائماً غريب الحال والآن . . . . » .

فقاطعها سانين جذلا « والآن ؟ » كأنما توقع أن يسمع شيئاً ليس أمتع منه ولا أبعث على السرور .

فقالت بحدة وهزت ملعقتها : « والآن أراك أشد جنوناً منك فى أى عهد ! » .

فضحك سانين وقال : « هذا خير ! » ثم بعد هنيهة « هذا نوفيكوف » .

وأقبل رجل طويل وسيم الصورة ينسجم على قوامه المعتدل قميص من الحرير أحمر يتوهج فى ضوء الشمس وفى عينيه الزرقاوين نظرة فاترة واشية بسذاجته وخلوص سريرته . وقال بصوت الودود :

« هذا أنتم ! — أبداً فى خصام ! وبالله عليكم فيم تختصمون ؟ » .

— « حقيقة الأمر هى أن أمى ترى أن الأنف الاعريق أليق بى وأنسب . ولكنى راض أتم الرضى عن أنى الذى فى وجهى » .

ونظر سانين إلى أنفه وضحك ثم مد يده إلى عمى صاحبه الكبيرة الغضة .

فقالت ماريا إيفانوفنا : « كذلك أحسبنى أقول ! » .

وضحك نوفيكوف ، وارتد إليهم من جانب الحديقة صدى رقيق كأنما هناك من يشاطرهم جذلهم ومرحهم .

« أظنني أحزر ما أنتما فيه . إنكما من مستقبلك فى الحاجة » .

فصاح به سانين ذاهباً إلى المداعبة ومتكلفاً الفزع « وأنت أيضاً ؟ » .

— « إنك تستحق هذا عدلا ! » .

— « إذا اتفقتما علىّ فخير لى أن أنصرف عنكما » .

فصاحت به ماريا إيفانوفنا وقد هاجت بغتة وغاظها أنها هاجت : « كلا ! أنا التى ازايلكما » واحتملت قدر المربى وأسرعت إلى البيت ولم تتلفت . ووثب الكلب ونصب أذنيه وهو يراقبها ثم حك أنفه بيمينه ورمى البيت بنظرة المستفسر ثم عدا إلى الحديقة .

فقال سانين وقد سره خروج أمه : « أمعك سجاير ؟ » .

فأخرج نوفيكوف علبة وهو يتريث فى حركته وقال بصوت رقيق نبرات العتب « لايجمل بك أن تكايدها هكذا . إنها سيدة عجوز » .

— « كيف كايدتها ؟ » .

— « إنك ترى . . . . » .

— « ماذا تعنى بقولك « إنك ترى » ؟ إنها هى التى لاتزال ورائى . وما أعرفنى سألت إنساناً شيئاً فكان ينبغى للناس أن يدعونى وشأنى » .

وصمت كلاهما برهة ثم سأل سانين صاحبه : « وكيف الحال يادكتور ؟ » وتأثر بلحظه الدخان المتصاعد من سيجارته وهو يتلوى فوق رأسه .

— « الحال سيء » .

— « كيف ؟ » .

— « من كل وجه . كل شيء ممل وهذه البلدة الصغيرة تأخذ بمخنق وليس ما يعمله المرء فيها » .

— ليس ما تعمل ؟ إنك أنت الذى شكوت من أن الوقت لايتسع للتنفس ؟ » .

— « ليس هذا ما أعني . إن المرء لا يستطيع أن يظل عمره يعود المرضى . ولا أحد غير المرضى . هناك حياة أخرى غير هذه » .

— « وما يمنعك أن تحيا هذه الحياة الأخرى ؟ » .

— « هذه مسألة فيها بعض التعقيد والإشكال » .

— « وما وجه الإشكال فيها ؟ إنك شاب جميل معافى البدن . فماذا تبغي فوق هذا ؟ » .

فقال نوفيكوف بتهكم خفيف : « هذا لا يكفي في رأيي » .

فصحك سانين وقال : « لا يكفي ؟ إني أراه حظاً عظيماً » .

— « ولكنه لا يكفيني » قالها ضاحكا بدوره .

وكان من الجلي أنه ارتاح إلى ما قاله سانين عن صحته ووسامته . على أنه استحيى كالفتاة .

فقال سانين وكأنه يفكر : « ينقصك أمر واحد » .

— « وما هذا ؟ » .

— « صحة الإدراك للحياة . إن الملل يجثم على صدرك . ولو أن ناصحاً أشار عليك مع ذلك أن تنفض نعلك من هذا المكان وأن تخرج إلى الدنيا الرحيبة لاستخفت أن تفعل » .

— « وكيف أخرج ؟ كمتسول ؟ » .

— « نعم حتى كمتسول ! إني كلما نظرت إليك قلت لنفسي : هذا رجل يستهين في سبيل إيتاء الدولة الروسية دستوراً بأن يسجن في قلعة شلوسلبرج[1] بقية عمره وبأن يفقد كل حقوقه وحريته كذلك . ومع ذلك فما هو والدستور ؟ وماذا يجنيه منه ؟ أما إذا كانت المسألة مسألة تحول عن أسلوب ممل من الحياة وذهاب إلى جهات أخرى طلبا لمصالح ومتع أخرى راح يسأل نفسه : كيف أرتزق ؟ ألست على كل صحتي وقوتي عرضة للأذى إذا لم يكن لي مرتب معين وإذا لم

---

(١) قلعة يعتقل فيها السياسيون أو كانوا يعتقلون فيها .

أوفق لذلك إلى الزبدة إلى جانب الشاى وإلى قمصان الحرير والياقات الصلبة وسائر ما هو من هذا بسبيل ؟ — لعمرى إن الأمر مضحك ؟ » .

— « لست أرى فى الأمر شيئاً مضحكاً على الإطلاق ، فإن المسألة فى الحالة الأولى مسألة قضية . فكرة . أما فى الثانية . . . . » .

— « ماذا ؟ » .

— « لا أدرى كيف أعبر عما أريد » .

وعالج نوفيكوف أصابعه .

فقال سانين مقاطعاً : « تأمل الآن ! هذه طريقتكم أبداً فى الفرار من الموضوع . ولن أصدق أبداً أن الشوق إلى الدستور أشد لحاجة فى نفسك من الشوق إلى الانتفاع بحياتك على أتم وجه » .

— « هذه مسألة متنازعة . وقد يكون الأمر كما ذكرت » .

فلوح سانين بيده تلويح الضجر وقال : « لا تقل لى ! لو أن رجلا قطع أصبعك لآلمك الأمر أكثر مما يؤلمك لو أنه كان أصبع روسى آخر . هذه حقيقة . أليس كذلك ؟ » .

— « أو أنانية » يريد نوفيكوف أن يتهكم فيخرف .

— « ربما . ولكنها الحقيقة على كل حال . ومع أنه ليس فى الروسيا ولا فى كثير غيرها دستور ما — بل ليس فيها أضأل دليل على وشك ميلاد الدستور — فإن حياتك المملة هى التى تيمك وتقعدك لا عدم وجود الدستور . . وأقول لك أكثر من ذلك » وهنا لمع فى عينيه بريق السرور « إنك مكروب — لا من جراء حياتك بل لأن ليدا لم تمل إليك بالحب بعد والآن أليس الأمر كما أقول ؟ » .

— « أى هذيان هذا ؟ » .

وصار وجه نوفيكوف كقميصه حمرة وبلغ من ارتباكه أن الدموع وثبت إلى عينيه الفاترتين الرقيقتين .

— « كيف ترى قولى هذيانا وأنت لا ترى غير ليدا فى الدنيا ؟ إن الرغبة فيها مسطورة بأحرف جليلةعلى جبينك » .

فاضطرب نوفيكوف اضطرابا محسوساً وأخذ يسرع فى خطواته جيئة وذهوبا ولو أن امرءا غير أخيها كلمه على هذه الصورة لتألم أبلغ الألم ولكن هذه الكلمات من فم سانين أذهلته . والواقع أنه لم يكد يفهم ما يقول فى أول الأمر .

فتمتم قائلا : « اسمع . إما أنك تتكلف أو . . . » .

— « أو ماذا ؟ » وابتسم .

فلوى نوفيكوف وجهه وهز كتفيه وصمت . وكان الذى جرى فى ذهنه غير التكلف هو أن يعد سانين رجلا مستهتراً خبيثا غير أنه لم يستطع أن يصارحه بهذا الخاطر إذ كان منذ أيام الدراسة فى الكلية يخلص له الحب ويصدقه إياه ومحال أن يكون نوفيكوف قد اختار لصداقته امرء سوء . وكان وقع هذا الكلام كريها مذهلا وأوجعته الإشارة إلى ليدا ولكنها كانت معبوده فلا يسعه أن يحس الغضب لأن سانين ساق ذكرها وسره هذا ولكنه آلمه كأن يداً متقدة أمسكت بقلبه وضغطت .

وصمت سانين قليلا وهو مبتسم منشرح ثم قال :

« أتم كلامك . فلست أتعجلك ! » .

فظل نوفيكوف يجيء ويروح كما كان مجروح النفس لاشك فى ذلك . ودخل فى هذه اللحظة الكلب يعدو وحك جسمه بركبتى سانين كأنما يريد أن يرى الناس مبلغ سروره هو الآخر فلاطفه سانين وهويقول : « يالك من كلب طيب ! » .

وحاول نوفيكوف أن يجتنب اتصال الحديث وأشفق أن يعود إليه سانين وإن كان أحب موضوع إليه وألذه وأنداه . وكل ما لا شأن له « بليدا » عبث عنده لا يطاق .

ثم راح يسأل سانين عفوا « وأين – ليدا بتروفنا ؟ » وإن كان مع ذلك يكره أن يلقى السؤال البارز فى ذهنه .

– « ليدا ؟ وأين يمكن أن تكون ؟ تتنزه مع الضباط حيث كل الفتيات فى هذه الساعة من النهار » .

فسودت الغيرة وجه نوفيكوف وهو يقول : « كيف تتفق فتاة مثلها براعة وتهذيبا وقتها مع هؤلاء الحمقى الفارغى الرءوس ؟ » .

فقال سانين باسما : « يا أخى . إن ليدا فتاة جميلة موفورة الصحة مثلك بل هى فوق ذلك . إذ كانت قد أوتيت ما ينقصك – أعنى الرغبة الحادة فى كل شىء وهى تريد أن تعلم كل ما يعلم وأن تجرب كل أمر – هذه هى آتية وما عليك إلا أن تنظر إليها لتفهم هذا . أليست بالله جميلة ؟ » .

وكانت ليدا أقصر من أخيها وأجمل . وعليها من العذوبة ولين القوة فتنة تميزها وفى عينيها السوداوين نظرة شامخة ولصوتها الذى تباهى به رنة موسيقية ملأى . فأقبلت على مهل تخطر برشاقة وإحدى يديها ممسكة بثوبها السابغ وأقبل من بعدها ضابطان شابان .

– « من الجميل ؟ أهو أنا ؟ » .

وأشاعت فى الحديقة سحر صوتها وجمالها وصباها .

ومدت إلى نوفيكوف يدها . وعينيها إلى أخيها وكانت أبداً فى حيرة من أمره لا تدرى أجاد هو أم هازل .

وقبض نوفيكوف على يدها واضطرم وجهه ولكن ليدا لم تلمح انفعاله وكانت قد ألفت منه نظرة الاحترام والحياء التى لم تصادفها .

وقال أجمل الضابطين وهو ناصب قامته كالجواد المتنحل :

– « عم مساء فلاديمير بتروفتش (سانين) » .

وكان سانين يعلم أنه ساروديين وأنه كابتن في فرقة الفوارس وأنه ألح عشاق ليدا .

وكان صاحبه « الملازم » تاناروف يعد ساروديين مثال الجندى ويحكيه في كل شيء ، ويضرب على قالبه في كل أمر وكان صموتاً ليس له رشاقة ساروديين ولا قسامته .

فقال سانين مجيباً اخته في رزانة : « نعم أنت ! » .

— « إنى لجميلة لا شك ! ولقد كان ينبغي لك أن تقول إن جمالي لا سبيل إلى وصفه » .

وضحكت جذلة وهوت إلى كرسي وهي ترشق أخاها سانين بعينيها . ورفعت ذراعيها وبدت بذلك معالم صدرها الجميل وأخذت تخلع قبعتها فسقط دبوس طويل على الحصى فتهدل شعرها ونقابها . فصاحت بالملازم الصموت بصوت أجش « أندريه بافلوفتش ! أعنى » .

وتمتم سانين كمن يفكر بصوت عال وعينه مصوبة إلى أخته « نعم أنها جميلة »

فالت إليه ليدا بطرفها في حياء وقالت : « إننا كانا حسان » .

فضحك ساروديين عن ثناياه الناصعة البراقة وقال : « ماهذا ؟ حسان ! ! ها ها ! لسنا نعدو أن نكون كالإطار يظهر وضاءة جمالك الباهر » .

فقال سانين دهشاً : « أقول ياها من فصاحة ! » .

وكانت في صوته نبرة خفيفة من التهكم .

فنطق تاناروف الصموت وقال : « إن ليدا بتروفنا تحيل العيي فصيحاً » .

وكان يساعدها على نزع قبعتها فهدل شعرها فادعت الغيظ وهي ماضية في ضحكها .

وقال سانين « ماذا ؟ وأنت أيضاً فصيح ؟ » .

فهمس نوفيكوف في خبث ونفسه مرتاحة « دعهم يتفصحون ! » .

وقطبت ليدا جبينها لأخيها وكأنما كانت عيناها السوداوان تقولان له بأصرح عبارة «لا تحسب أنى عاجزة عن استبطان هؤلاء النفر . إنما أبغى أن امتع نفسى وما أنا بالورهاء الحمقاء وأنى لأدرى ما أنا فيه » .

فابتسم لها سانين .

وتم أخيراً نزع القبعة . ووضعها تاناروف فى تؤدة ووقار على المنضدة . ولكن ليدا صاحت به مداعبة مظهرة الحنق : « أندريه بافلوفتش ! انظر ! انظر ماذا صنعت بى ! لقد أفسدت شعرى فاختلط وسأضطر أن أدخل البيت لأصلحه » .

فقال تاناروف مضطربا متلعثما : « إنى آسف جداً ! » .

وهمت ليدا وجمعت ذلاذل ثوبها وعدت ضاحكة وعيون الرجال تتعقبها وأحسوا لما خفيت عن أنظارهم كأنما خلصت أنفاسهم واستراحوا من ذلك الشعور العصبي بالتقيد الذى يعانيه الرجال عادة فى حضرة فتاة جميلة .

وأشعل ساروذين سيجارة وجعل يدخنها بالتذاذ واضح ، وكان المرء يحس إذا سمعه يتكلم كأنما عادته أن يحدو الحديث وإن ما يجرى بذهنه يخالف ما يجرى به لسانه وقال :

« لقد كنت أحاول أن أقنع ليدا بتروفنا أن تدرس الغناء درساً جدياً فإن مستقبلها مضمون ما دام لها هذا الصوت » .

فقال نوفيكوف مشمئزاً : « تالله ما أبدعها من مهنة ! » وأشاح بوجهه .

فسأل ساروذين مستغرباً ونحى السيجارة عن فمه : « أى ضير فى ذلك؟ » .

فرد عليه نوفيكوف وقد حمى فجأة : « ما هى الممثلة ؟ إنها ليست إلا مومسا ! » .

ومزقت قلبه الغيرة وقطع نياطه ما تصوره من منظر هذه الفتاة التى يشتهى جثمانها إذ تبدو أمام سواه من الرجال فى ثوب فتان يكشف عن مفاتنها ويهيج عواطفهم .

فقال سارودين رافعاً حاجبيه : « لا شك أنك تذهب إلى أبعد مما يجب » .

وكانت نظرة نوفيكوف كلها حقداً وبغضاً وكان يرى فى سارودين لصاً ينوى أن يختطف عشيقته وأمضه — فضلا عن هذا — حسن وجهه فقال :

« كلا ! ليس فى قولى تجاوز للحد . وتصور بروز المرأة على الملعب كاسية إلا أنها عارية — حاسرة فى بعض الأدوار الشيقة عن مفاتنها الشخصية لأولئك النظارة الذين لا يلبثون أن يزايلوا المكان بعد ساعة أو نحوها كما ينفضون عن مومس بعد أن ينقدوها أجرها المعتاد ! الحق إنها مهنة فاتنة ! » .

فقال سانين : « يا أخى ، إن كل امرأة تحب أن يعجب الناس بمحاسنها الخاصة » .

فهز نوفيكوف كتفيه متململا وقال : « ما أخشن هذا القول وأسخمه ! » .

فقال سانين : « ليكن خشناً أو غير خشن . إنه الحق على كل حال . وأحر « بليدا » أن يكون لظهورها على الملعب أعمق وقع . وإنى لأشتاق أن أراها ثم ... » .

وأحسوا كلهم بالقلق وإن كان هذا الكلام قد أثار فى نفوسهم رغبة غريزية فى الاستطلاع .

ولما كان سارودين يعد نفسه أذكى من زملائه وأحزم فقد بدا له أن يبدد جو الارتباك الغامض الذى اكتنفهم فقال :

« وماذا تظنون الفتاة حقيقة أن تصنع ؟ أتتزوج ؟ أم تأخذ فى نهج دراسى أم تدع مواهبها تأسن ؟ إن هذا يكون جريمة ضد الطبيعة التى جادت

فقال سانين ولم يخف تهكمه : « آه ! إن فكرة هذه الجريمة لم تخطر لى قبل هذه الساعة » .

وضحك نوفيكوف ضحكة خبيثة . ورد على سارودين متوخياً الأدب :

« لماذا تعدها جريمة ؟ لأن تكون المرأة أما صالحة أو طبيبة خير ألف مرة من أن تكون ممثلة » .

فقال تاناروف محنقاً : « كلا » .

فسألهم سانين : « ألا ترون هذا النوع من الحديث مملا ؟ » .

ولكن سؤاله ضاع فى نوبة سعال وكان الواقع أنهم جميعاً يعدون هذه المناقشة مدعاة للضجر وهى بعد لا ضرورة إليها على أنهم مع هذا ساءهم قول سانين فالزموا صمتاً بغيضاً .

ثم ظهرت ليدا وأمها ماريا إيفانوفنا على الشرفة . وكانت ليدا قد سمعت آخر مانطق به أخوها وإن لم تدر ما يشير إليه ، فقالت وهى تضحك : « أرى الملال اعتوركم بسرعة فلنمض إلى النهر فإنه الساعة رائق » .

ومشت أمام الرجال وقوامها الأنيق يخطر قليلا وفى عينها نظرة مبهمة يخيل إليك أنها قائلة بها شيئاً أو واعدة بشىء .

وقالت أمها : « تمشوا إلى وقت العشاء » .

فصاح سارودين : « يسرنى ذلك » وعرض على ليدا ذراعه .

وقال نوفيكوف متهكما : « أرجو أن تسمحوا لى بمرافقتكم » .

ولكن وجهه كانت عليه سمات من يهم بالبكاء .

فقالت ليدا : « ومن ذا يمنعك ؟ » .

وأرسلت إليه نظرة باسمة عن كتفها .

وقال سانين : « نعم اذهب أنت الآخر . وقد كنت أحب أن أرافقكم لولا أنها مقتنعة بأنى أخوها » .

فاضطربت ليدا وأسرعت ناظرة إليه وأرسلت ضحكة قصيرة عصبية .

وبدا على ماريا إيفانوفنا الامتعاض وقالت :

« لماذا تتكلم على هذا النحو السخيف ؟ أظنك تحسبه أسلوبا مبتكراً ؟ » .

فقال سانين : « الحقيقة أنى لم أفكر فى هذا على الإطلاق » .

ونظرت إليه أمه وهى مذهولة . وكانت لا تفهم ابنها ولا تعرف أذاهب هو إلى الجد أم يقصد إلى الدعابة . ولا تدرى فيم يفكر وماذا يحس على حين ترى الناس المفهومين غيره يفكرون ويحسون مثلها . وعندها أن الرجل يجب أن يفكر ويحس ويعمل كما يفكر ويحس ويعمل غيره من أنداده المماثلين له من حيث المنزلة الاجتماعية والعقلية . ومن رأيها كذلك أن الناس ليسوا رجالا متمايزى الشخصيات والخصائص وإنما ينبغى أن يصبوا جميعاً فى قالب واحد عام وشجعتها البيئة على اعتناق هذه العقيدة وقررتها فى نفسها فذهبت إلى أن التربية من شأنها أن تجعل الناس فريقين لا ثالث لهما : أصحاب العقول والجهلاء . وللفريق الثانى أن يحتفظ بشخصيته إذا شاء ولكن هذا مجلبة لامتهان الآخرين . وأول الفريقين ينقسم إلى طوائف ولكن أراءهم لا تطابق صفاتهم الشخصية بل مراكزهم الاجتماعية . ومن هنا كان كل طالب ثوريا ، وكل موظف مدنياً ، وكل فنى ملحداً ، وكل ضابط طالب رتبة ، فإذا حدث مصادفة أن طالباً مال إلى مبادىء المحافظين ، أو أن ضابطاً صار فوضوياً ، فلا بد أن يعد هذا أمراً شاذاً باعثاً على أشد العجب بل مستنكراً . وإذا ذهبنا نعتبر سانين وأصله وتربيته رأينا أنه كان ينبغى أن يكون على خلاف ما هو ولذلك أحست ماريا إيفانوفنا — مثل ليدا ونوفيكوف وسائر من اتصل به — أنه خيب الأمل فيه . ولم يفت غريزة الأم ما يقع فى نفوس الناس من ابنها فتألمت .

ولم يكن سانين يجهل ذلك وكان يود لو طمأنها ، غير أنه لم يدر كيف يعالج ذلك مبتدئا . وخطر له أولا أن يرائى ويدعى المكذوب من العواطف ليهدأ روعها ولكنه لم يفعل شيئاً سوى أن ضحك .

ثم قام وخرج وظل برهة فى سريره مستلقياً يفكر وخيل إليه كأنما يريد الناس أن يعيلوا الدنيا ثكنة عسكرية خاضعة لقائمة من القواعد والأصول المحولة لقضاء على الشخصية أو يجعلوها طوع قوة ما غامضة عتيقة .

وأتعب به التفكير وأوضع حتى تناول المسيحية ومصيرها ولكنه مل هذا الشأن حتى أخذه النوم ولم يستيقظ إلا بعد أن حال المساء ليلا حالكا .

ولاحظته أمه وهو يخرج وزفرت هى أيضاً واستغرقها الفكر وحدثت نفسها أن ساروديين يتحبب إلى ليدا خاطباً ودها وتمنت أن يكون الأمر جداً وقالت لنفسها : « قد بلغت ليدا العشرين ، وساروديين رجل حسن على ما يظهر ، وقد سمعت أنه سيعطى قيادة فى هذا العام . نعم إنه غارق فى الدين — ولكن ... لماذا رأيت ذلك الحلم الشنيع ؟ وإنى لأدرى أنه خاطر سخيف غير أنى لا أستطيع أن أخلى منه رأسى ! » .

وكان الحلم الذى رأته قد بدا لها فى نفس اليوم الذى دخل فيه ساروديين البيت لأول مرة فخيل إليها أنها رأت ليدا فى ثياب بيضاء تسير فى مروج خضراء متألقة الأزاهير .

وجلست ماريا إيفانوفنا على كرسى وثير وأسندت رأسها إلى كفها كما تفعل العجائز وأثارت نظرها إلى السماء المظلمة وساورتها الخواطر السوداء وعذبتها ولم تدع لها راحة وأحست شيئاً مبهما أثار مخاوفها وأزعجها .

(٣)

كان الظلام قد خيم لما انقلب القوم عائدين من الحديقة . وكانت أصواتهم الصافية الجذلة تدوى فى الغسق اللين الذى اكتنف الحديقة فجرت ليدا إلى أمها ضاحكة متألقة الوجه وحملت معها طيب النهر

مشوباً بأرج جمالها وريا شبابها الغض تضوعه رفقة المعجبين ومصاحبة المفتونين .

وصاحت بأمها مداعبة لها وجرتها معها : « العشاء يا أماه ! هات لنا العشاء ! وفى خلال ذلك يغنينا فيكتور سرجيفتش » .

فخرجت ماريا إيفانوفنا لتهيئ العشاء ونفسها تحدثها أن القدر لايسعه على التحقيق أن يدخر غير السعادة لفتاة جميلة ساحرة مثل ابنتها ليدا .

ومضى ساروديين وتاتاروف إلى البيانو فى حجرة الاستقبال .

واطرحت ليدا فى فتور وكسل على كرسى هزاز على الشرفة .

وجعل نوفيكوف يروح ويجئ صامتاً على أرض الشرفة ويخالس النظر إلى وجه ليدا وصدرها الناضج المكتنز وقدميها الصغيرتين فى حذائهما الأصفر وساقيها الرشيقتين وهى فى غمرة من سحر الحب الأول وسطوته لا تكترث إليه ولا تلتفت إلى لحظاته فأغمضت جفنيها وابتسمت لما يطوف برأسها من الخواطر .

وكان الصراع القديم دائراً فى صدر نوفيكوف : يحب ليدا ولا يدرى ما شعورها نحوه ويخطر له أحياناً أنها تحبه ويهجس بقلبه أحياناً أخرى أنها لا تعبأ به وإذ خال الجواب « نعم تحبك » قال لنفسه : ما أحلى وأسهل أن يؤاتيه هذا الجسم النقى اللين . وإذا كان « لا » فياله من خاطر بغيض بشع ! وراح تغضبه شهوته وذهب يعد نفسه نذلا غير أهل لليدا .

ولما أنضته هواجسه آلى أن يستهدى الحظ . « إذا دست بقدمى اليمنى على آخر مربع خطبتها لنفسى وإذا دست بقدمى اليسرى فـ ... » وجبن عن التفكير فيما يحدث فى هذه الحالة .

وداس المربع الأخير بقدمه اليسرى ! فتصبب العرق البارد ولكنه لم يلبث أن طمأن نفسه وهون الخطب عليها .

« يالها من سخافة ! لقد أشبهت العجائز ! والآن : واحد . اثنان ثلاثة . — فى الثالثة أذهب إليها وأكلمها . نعم ولكن ماذا أقول ؟؟ هذا لا يهم ! فلأمض ! واحد . اثنان . ثلاثة ! كلا ! بل ينبغى أن يكون العد ثلاث مرات ! واحد . اثنان . ثلاثة ! واحد . اثنان — » .

والتهب ذهنه وعصب ريقه وبلغ من عنف دقات قلبه أن ركبتيه تخاذلتا وارتعشتا .

وصاحت به ليدا وفتحت عينيها : « لا تخبط الأرض كذلك ! إنى لا أسمع شيئاً ! » .

فى هذه اللحظة فقط أدرك نوفيكوف أن ساروديين يغنى .

وكان الضابط الفتى قد اختار أغنية قديمة مطلعها :

« أحببتك مرة ! »

« وهل يسعك أن تنسى ؟ »

« وما زال الحب يلعج قلبى »

ولم يكن غناؤه قبيحاً ولكنه كان كأحداث الفن يعالج الأداء بالمبالغة فى تخريج الأنغام .

ولم يلف نوفيكوف ما يلذه فى هذا العمل فسألها بمرارة غير مألوفة « ما هذا ؟ أأغنية من تأليفه ؟ » .

فقالت بحدة : « كلا ! لا تقلقنا من فضلك . اجلس . وإذا كنت لا تحب الموسيقى فاذهب وانظر إلى القمر ! » .

وكان القمر فى هذه اللحظة يصعد من وراء قمم الأشجار السوداء — كبيراً مستديراً متوهجاً ولمست أشعته اللينة الدرج الحجرى وامتدت إلى ثوب ليدا واستراحت إلى وجهها الباسم المفكر وكانت الظلال فى الحديقة قد تكاثفت وصارت لها جهامة ظلال الغاب وعمقها .

فتمتم نوفيكوف : « أنت عندى خير من القمر » ثم لنفسه : « إنها لكلمة سخيفة ! » .

فاستضحكت ليدا وقالت : « ياله من إطراء خشن ! » .

فقال باكتشاب : « لست أحسن الإطراء » .

— « حسن . إذاً فاجلس واستمع » .

وهزت كتفيها متضايقة .

ومضى ساروديبن يغنى :

« ولكنك لا تعبأين بى فلماذا أحزنك بهمومى ؟ » .

وكانت أنغام البيانو تدوى فضية الرنة فى جوانب الحديقة الخضراء الرطبة . وأخذ ضوء القمر يزداد تألقاً والظلال سواداً .

ومضى سانين إلى شجرة الزيزفون وجلس فى ظلها وهم أن يشعل سيجارة ، ولكنه وقف فجأة وجد كأنما سحره سجو الليل الذى زاد فى سكونه البيانو وذلك الصوت الطرى الفتى ولم يزعجه .

وقال نوفيكوف مسرعاً كأنما ينبغى أن لا تفلت هذه اللحظة : « ليدا بتروفنا ! » .

فقالت وهى تلحظ الحديقة والقمر والأغصان الحالكة بادية تحت قرصه الفضى : « ماذا ؟ » .

— « لقد طال انتظارى — أعنى أريد أن أقول لك شيئاً » .

فأمال سانين رأسه مصغياً .

وسألت ليدا وهى غائبة الذهن : « أى شىء ؟ » .

وكان ساروديبن قد فرغ من أغنيته ثم عاد يغنى بعد فترة وكان يعتقد أن له صوتاً باهر الجمال وكان يحب أن يسمعه .

وأحس نوفيكوف أن وجهه يحمر ثم يتقع كأنما يوشك أن يغشى عليه ثم قال :

— « إني — اسمعي يا ليدا بترو فنا — هل تقبلين أن تصبحي لي زوجة ؟ » .

وكان وهو يتمتم هذه الكلمات يحس أنه كان ينبغي أن يقول شيئاً يخالفها وأن عواطفه كان يجب أن تكون غير ذلك أيضاً وما كاد ينطق بها حتى أيقن أن الجواب سيكون « لا » ووقع في نفسه أن أمراً بالغا غاية السخافة سيحدث .

فسألته ليدا : « زوجة من ؟ » .

ثم ما عتمت أن صبغ وجهها الخجل فنهضت نهوض من يهم بالكلام ولكنها لم تقل شيئاً .

وانصرفت عنه بوجهها وهي مرتبكة فاستقبلها القمر بنوره وقال نوفيكوف : « إني احبك ! » .

ولم يعد القمر يضيء في عينه وأخذ يخنقه النسيم وشعر كأن الأرض ستنشق تحت قدميه ثم قال :

— « لست أحسن إلقاء الخطب — ولكن — هذا لا يهم — إني احبك جداً » .

ثم حدث نفسه « أأقول جداً ؟ لكأني أحدثها عن القشدة المثلجة ! » .

وأخذت ليدا تعبث وهي مضطربة بورقة صغيرة هوت عن الشجرة إلى يديها وحيرها ما سمعت إذ كان غير متوقع ولا طائل تحته . هذا إلى أنه أشعرها إحساساً جديداً من الكلفة البغيضة بينها وبين نوفيكوف الذي كانت تنزله منذ صباها منزلة القريب وتحبه على هذا الاعتبار فقالت :

« لا أدري ماذا أقول ؟ إني ما فكرت في هذا قط ! » .

فأحس نوفيكوف ألماً وفتوراً يعتوران قلبه كأنما سيكف عن الخفقان ونهض مصفراً وتناول قبعته .

وقال وهو لا يكاد يسمع صوته وتلوت شفتاه المرتجفتان عن ابتسامة لا معنى لها : « عمي مساءاً » .

— « أذاهب أنت ؟ نعم مساءاً » .

وضحكت ضحكة عصبية ومدت يدها فصافحها نوفيكوف مسرعا وسار دون أن يغطى رأسه إلى الحديقة ولما بلغ الظل وقف جامداً وأمسك رأسه بكلتا يديه وخاطب نفسه :

« رب ! لقد قضيت لى مثل هذا الحظ ! أأقتل نفسى ؟ كلا ! هذه سخافة ! أأقتل نفسى ؟ » .

ودار بذهنه كل خاطر ضال غامض بمثل خطف البرق . وأحس أنه أشقى الناس وأذلهم وأسخفهم .

وأراد سانين أن يناديه ولكنه رد نفسه واقتصر على الابتسام مرتئياً أن من الظرف أن يمزق نوفيكوف شعره وأن يبكى لأن امرأة يشتهى جسمها لم تشأ أن تبذله له وسره فى الوقت نفسه أن أخته الجميلة لاتحفل بنوفيكوف .

وظلت ليدا لحظة وهى جامدة فى مكانها . وكان خيالها الأبيض فى ضوء القمر قيد لحظ سانين .

ثم خرج سارودين من الحجرة المضاءة إلى الشرفة .

وكان سانين يسمع صوت مهمازه بوضوح .

وظل تاناروف فى الغرفة يوقع لحنا شجياً عتيقا جعلت أنغامه المملة تسبح فى الجو .

ودنا سارودين من ليدا ولف ذراعه بلطف وحذق حول خصرها .

ورآهما سانين يلتصقان حتى صارا شخصاً واحداً يترنح فى الضوء الغائم .

وهمس سارودين فى أذنها : « ما بالك تفكرين ؟ » .

والتمعت عيناه لما لامست شفتاه أذنها اللطيفة الجميلة .

وشاع فى نفس ليدا الطرب والخوف معاً ودبت فى عودها هزة كانت تحسها كلما عانقها سارودين . وكانت لاتخفى عنها أنه دونها ذكاء وتهذيباً وأنه لاقبل له بالاستبداد بها والغلبة عليها غير أنها فى الوقت نفسه سرها وأفزعها أن تدع هذا الشاب الوسيم القوى يلامسها . وكأنها تنظر إلى هاوية سحيقة ملتاثة

الأمر وحدثتها نفسها أنها تستطيع أن تلقى بنفسها فيها إذا شاءت فقالت بصوت لايكاد يسمع : « سيرونا » .

ولم تشجعه على احتضانها ولكنها على هذا لم تنفر منه فهاجه منها هذا الإمكان السلبي .

فقال : — « كلمة واحدة — لا أكثر » — وشدها إلى صدره وعروقه تنبض بها الرغبة : « هل توافيني ؟ » .

فارتجفت ليدا ولم تكن هذه أول مرة سألها ذلك وكانت كل مرة تحس رجفات غريبة تسلبها إرادتها .

فسألته بصوت خافت وهي تحلم إذ تنظر إلى القمر « لماذا ؟ » .

— « لماذا ؟ لتكوني قريبة مني ولأراك وأحدثك . آه إنه لعذاب ؟ نعم ياليدا إنك تعذبينني . والآن هل توافيني ؟ » .

قال ذلك وجذبها إليه بقوة الرغبة الجامحة به وكأنما لامسها منه حديد ملتهب سرت في أعضائها وقدته وكأنما لفها ضباب كثيف حالم ضاغط . فتوتر جسمها اللين المرن ثم مالت إليه والسرور والخوف يرعشان منه . وعاد كل ما حولها وقد تغيرت وجوهه فجأة تغيراً عجيباً . ولم يعد القمر قمراً بل دنا فحاذى مظلة الشرفة وصار كأنما هو معلق فوق بساط الروضة . وحالت الحديقة عما عهدته وتبدلت أخرى غامضة مستبهمة زحفت إليها والتفت بها . وهاج ذهنها وتراجعت وتخلصت بفتور عجيب من عناق سارودين وتمتمت بصعوبة وقد جفت شفتاها وابيضتا : « نعم » .

وانقلبت إلى البيت بخطى غير ثابتة وأحست أن شيئاً مرعباً إلا أنه مغر يجرها إلى حرف الهاوية . وقالت لنفسها وهي تفكر « هذا كلام فارغ ؟ وليس الأمر كذلك . إنما أمزح . ويلذ لي هذا ويسليني أيضاً . لا أكثر ولا أقل » .

وهكذا حدثت نفسها لتقمعها وهي تواجه المرآة المظلمة في غرفتها . ولم تر في صقالها إلا ظلها الأسود قبالة الباب الزجاجي لغرفة الطعام المضيئة . ورفعت ذراعيها في بطء فوق رأسها وتمطت في كسل وفتور وجعلت وهي تفعل ذلك تتأمل حركات عودها اللين وتحس لذتها .

أما ساردين فإنه لما صار وحده اعتدل ونفض عن أعضائه فتورها وكانت عيناه مفتوحتين كمغمضتين وابتسم فالتمعت ثناياه تحت شاربه اللطيف .

وكان الحظ قد عوده أن يؤاتيه وتوقع فى هذه المرة أن ينال من المتع واللذات ماهو أعظم فى المستقبل القريب .

وتمثلت لعينه ليدا وجمالها المثير ساعة تبذل له منه وعصفت به هذه الصورة فأحس لها ألماً جثمانيا .

وكانت ليدا فى مبدأ الأمر وإذ هو لايزال يتودد إليها وحتى بعد ذلك لما أذنت له أن يعانقها ويقبلها — لاتنفك تشعره شيئاً من الخوف . وكان يطالعه من عينيها السوداوين وهو يمسح بيده شعرها شىء عجيب لا يفهمه كأنما تحتقره فى سريرتها .

وكانت أبداً تبدو له أبرع من غيرها من النساء اللواتى لم يشعر فى حضرتهن إلا بأنه أسمى منهن وأرقى . وهى من الاختلاف عنهن ومن الشموخ بحيث كان يتوقع إذا قبلها أن تلكمه بجمع يدها على أذنه .

فكادت فكرة احتيازها تبيت مزعجة ومرت به أحيان اعتقد فيها أنها إنما تعبث به فكان موقفه فى نظره غاية السخافة والحمق .

أما اليوم بعد هذا الوعد الذى قطعته له مترددة متلعثمة كغيرها من النساء فقد صار على يقين من قوته ومن وشك الظفر ولم يبق عنده من ريب فى أن الأمور ستجرى على ما يحب . واختلط عنده الإحساس الناشىء عن انتظار مواقعه اللذات بشىء من الكيد ، هذه الفتاة الطاهرة المهذبة المزهوة ينبغى أن تبذل له نفسها كما فعل سواها وسيستمتع بها وفق هواه كما استمتع بغيرها .

ومثلت لعينه مناظر مما صورت الشهوة والانحطاط : وصارت ليدا فى خياله — عارية متهدلة الشعر حول عينين ما من سبيل إلى سبر غورهما —

الصورة البارزة فيما حرك أشباحه قصف الشهوة والقسوة المضطرب . ثم بدت له فجأة على أوضح صورة منطرحة على الأرض وسلك مسمعه هزيم السوط وأخذت عينه خطا داميا على جسمها العريان اللين الخاضع فتيض رأسه لهذه الصورة وتطرح متراجعاً ورقصت لعينيه شرارات نار وعادت وطأة الفكرة أثقل مما يطاق وارتعشت يده وهو يشعل سيجارة وتلوت أعضاؤه القوية تلوى التشنج ثم دخل الغرفة .

وكان سانين لم يسمع شيئاً إلا أنه رأى وفهم كل شيء فتبعه وفى نفسه مثل الغيرة وقال لنفسه « أمثال هذا الوحش يمالئهم الحظ دائما . ماذا ترى معنى هذا كله ؟؟ ماذا يهمان به هو وليدا ؟ » .

ولما جلسوا إلى العشاء كانت ماريا إيفانوفنا غير مرتاحة على ما يظهر ولم يقل تاناروف شيئاً — كعادته — ولكنه كان يتمنى أن يكون سارودين وأن تكون له عشيقة مثل ليدا تحبه . إذاً لأحبها ولكن على طريقة أخرى فإن سارودين — فى رأيه — لا يحسن تقدير حسن حظه .

وكانت ليدا ممتقعة صامتة لا تنظر إلى أحد .

أما سارودين فكان جذلا طروبا متحفزاً كالوحش استروح فريسته .

وجلس سانين يتثاءب على عادته وأكل وشرب كثيراً من النبيذ وكأنما كان يريد أن ينام ولكن العشاء لم يكد ينتهى حتى أعلن عزمه على مرافقة سارودين إلى مسكنه .

وكان الليل قد أوشك أن ينتصف والقمر يصب ضوءه على رأسيهما ، وهما سائران فى صمت إلى ثكنة الضابط .

وكان سانين لا يفتأ من حين إلى حين يختلس النظر إلى سارودين ويفكر فيما ينبغى له أيلطمه على وجهه أم لا يلطمه . ثم قال فجأة لما قاربا البيت : « نعم ؟ إن فى هذه الدنيا كل أنواع الأنذال ؟ » .

فسألة سارودين ورفع حاجبيه : « ماذا تعني بهذ ؟ » .

— « إن الامر كذلك — على العموم — والأنذال أعظم الناس فتنة وأحذا » .

فقال سارودين باسما « أوتعني ماتقول ؟ » .

— وتعم هم كذلك . وليس أبعث على كرب النفس وضيق الصدر ممن يسمونهم الأعفة والفضلاء . ماهو الرجل الفاضل ؟ إن كل امرىء يعرف برنامج العفة والفضيلة . وعلى هذا فليس فيه من جديد : ومثل هذه الفضلات العتيقة تسلب المرء كل شخصيته فيقضي حياته في حدود الفضيلة الضيقه المملة . لاتسرق ، لاتكذب ، ولاتغش ، كلا ولا تزن . والمضحك في هذا الأمر أن كل من يولدون سواء ! فكل امرىء يسرق ويكذب ويغش ويزني على قدر مايستطيع » .

فقال سارودين محتجاً نازعاً إلى التعالي « ليس كل أحد » .

— « نعم . نعم . كل إنسان ! وماعليك الاأن تفحص حياة المرء لتعرف ذنوبه . خذ الغدر مثلا . فبعد أن نؤدى ما لقيصر لقيصر ونؤوى في سكون إلى فراشنا أو نجلس إلى المائدة نرتكب كل أصناف الغدر » .

فصاح سارودين وبه بعض الغضب : « ماهذا الذى تقول ؟ » .

— « إننا نفعل هذا على التحقيق . نؤدى الضرائب ونقضى مدة الخدمة في الجيش . نعم ولكن معنى هذا أننا نؤدي ملايين من الخلق بالحرب وبالظلم اللذين تممتهما . وتذهب في سكون إلى الفراش على حين ينبغي لنا أن نبادر إلى إنقاذ من يقضون نحبهم في هذه اللحظة لأجلنا وفي سبيل آرائنا . ونصيب من الطعام أكثر مما بنا حاجة إليه وندع غيرنا يموتون جوعاً وكان واجبنا — ونحن رجال فضل وخير — أن نقف حياتنا كلها على خيرهم . وهكذا تجرى : الأمور والمسألة واضحة . أما النذل — النذل الحقيقي الصميم — فخلق آخر . فهو أولا مخلوق مخلص طبيعي الأحوال » .

— « طبيعي ؟ » .

— « بلاشك ! إنه لايفعل سوى مايفعله الرجل بطبيعته . يرى شيئاً ليس له ، شيئا تميل إليه نفسه ، فيأخذه . ويرى امرأة حسناء لاتريد أن تبذل له نفسها فيعالجها بالقوة أو بالحيلة وهذا طبيعي جداً . إذ كانت الرغبة والغريزة التي تتطلب إرضاء النفس من المميزات القليلة بين الإنسان والحيوان . وكلما كان الحيوان أكثر حيوانية كان أقل فهما للذة وأضأل إدراكا لها وأعجز عن نيلها إذ كان لايعنيه إلا سد حاجاته . ونحن متفقون على أن الإنسان لم يخلق ليتعذب وإن العذاب ليس قبلة المساعي الإنسانية » .

فقال ساروديين : « بلا شك » .

— « حسن جداً إن اللذة هي غاية الحياة الإنسانية . والفردوس كلمة مرادفة للتمتع المطلق . وكلنا نحلم بفردوس أرضي وليست إسطورة الفردوس بسخافة وإنما هي رمز أو حلم » .

ومضى سانين في كلامه فقال بعد فترة : « نعم إن الطبيعة ما أرادت قط أن يكون الإنسان زاهداً . وأعظم الناس إخلاصاً وصدق سريرة هم أولئك الذين لايكتمون رغباتهم أى أولئك الذين يعدهم المجتمع أنذالا — أناساً مثلي — مثلك مثلا » .

فتزع ساروديين متراجعاً مذهولا ومضى سانين في حديثه متظاهراً بأنه لم يلحظ ما بدر من صاحبه وقال :

« نعم مثلك . أنت خير رجل في هذا العالم . أو على الأقل أنت تحسب أنك كذلك . قل لى ، هل . صادفت قط من هو خير منك ؟ » .

فقال ساروديين متردداً : « نعم كثيرين » ولم يكن في ذهنه أضأل فكرة عما يعني سانين ولا كان يعلم هل ينبغي له أن يتظاهر بالسرور أم بالسخط .

فقال سانين : « حسن . سمهم أسماءهم . تفضل » .

فهز ساروديين كتفيه كمن هو في شك . فقال سانين مهللا : « هاذا أنت قد عجزت ! إنك أنت خير الأخيار وكذلك أنا . ومع ذلك فإنا نحن الإثنين لانرى مايمنعنا أن نسرق أو أن ننسج الأكاذيب أو أن نزنى — وعلى الخصوص أن نزنى » .

فتمتم ساروديين وهو يهز كتفيه للمرة الثانية : « ياله من رأى مبتكر »
فسأله سانين وعلى نبرة صوته ظل خفيف من عدم الارتياح : «أتظن ذلك؟
إنى لا أظنه ! نعم . الأنذال كما قلت هم أشد من يتصورهم العقل إخلاصاً لأنهم لايرون حدود الدناءة الإنسانية ،ويسرنى دائما على الخصوص أن أصافح نذلا »

ولم يكد يقولها حتى وضع يده فى يد ساروديين وهزها هزا عنيفاً وعينه محملقة فى وجهه ثم قطب وقال بإيجاز فيه من سوء الأدب مافيه : « عم مساء » وانصرف عنه .

وظل ساروديين برهة وهو جامد يرقبه ولايدرى على أى محمل يحمل مثل هذا الكلام من سانين ، فحار وقلق ثم فكر فى ليدا وابتسم : أن سانين أخوها وماقاله صحيح فى الواقع . وأخذ يحس نوعاً من العلاقة الأخوية به ، وقال لنفسه وقد استشعر الرضى عنها : «إنه لرجل ممتع !» كأنما سانين بعض مايملك .
ثم فتح البوابة واجتاز الفناء المقمر إلى غرفه .
أما سانين فإنه لما بلغ البيت خلع ثيابه واستلقى على فراشه وحاول أن يقرأ « هكذا قال زردشت »[1] وهو كتاب وجده فى مكتبة ليدا ولكن الصفحات الأولى كانت كافية لتزهيده فيه ، وهو رجل لايحرك نفسه مثل هذا الأسلوب المنتفخ فبصق ورمى بالكتاب جانباً وما عتم أنه أخذه النوم .

(٤)

كان الكولونيل « نيقولا يجوروفتش سفاروجتش » المقيم بهذه البلدة الصغيرة ينتظر وصول ابنه الطالب بمدرسة الصناعات فى « موسكو » . وكان ابنه هذا تحت مراقبة البوليس فطردوه من موسكو لاشتباههم فيه ولظنهم أن بينه وبين الثوريين تواطئوا .

وكان « يورى سفاروجتش » قد كتب الى أبويه من قبل يبلغهما خبر القبض عليه وسجنه ستة شهور وطرده من العاصمة فنبأ لأوبته .

(١) اسم كتاب لنيتشه الفيلسوف الألمانى المشهور .

ومع أن أباه نيقولا عد الأمر من أوله إلى آخره حماقة صبيانية إلا أنه تألم إذ كان مشغوفاً بابنه فاستقبله فاتحاً له ذراعيه واجتنب أن يشير إلى هذا الموضوع المؤلم وكان « يورى » قد قضى يومين كاملين مسافراً فى الدرجة الثالثة ولم تغتمض عيناه لحظة لفساد الهواء ولما آذاه من كريه الروائح وصياح الأطفال فخارت قواه ولم يكد يحيى أباه وأخته لودميلا «ويسمونها فى العادة ليالبا» حتى استلقى على فراشه ونام .

ولم يستيقظ إلا مساء والشمس دانية من الأفق . نفذت أشعتها المائلة من زجاج النافذة ورسمت على جدران الغرفة مربعات وردية . وسمع يورى فى الغرفة المجاورة صوت الملاعق والأكواب وصافحت أذنه ضحكة ليالبا الجذلة وصوت رجل كذلك — لابد مصقول لايعرفه .

وقام فى نفسه ساعة استيقظ أنه مازال فى مركبة القطار وسمع ضوضاءه وصوت زجاج نوافذه والركاب فى الجانب الثانى ، غير أنه لم يلبث أن عرف أين هو الآن فاعتدل فى فراشه وقال وهو يتثاءب :

« نعم هذا أنا هنا »

ثم عبس وهو يزج أصابعه فى شعره الكثيف الأسود القوى .

ثم خطر له أنه لم يكن ينبغى أن يعود إلى بيته ولقد تركوا له أن يختار مكاناً يقيم فيه فلماذا عاد إلى أبويه ؟

لم يستطع أن يعلل ذلك .

واعتقد ، أو شاء أن يعتقد أنه اختار المكان الذى خطر له . ولكن هذا لم يكن الواقع . فإن يورى لم يضطر قط أن يكدح ليعيش ، وكان أبوه لايزال يمده بالمال وقد استهول أن يعيش وحده ويلا مورد بين قوم أغراب . وأخجله هذا الإحساس واستكره أن يعترف به لنفسه .

والآن خطر له أنه أخطأ . ويمكن أن يفهم أبواه حكايته كلها أو أن يكونا رأياً ما فى قصته — هذا شىء واضح — وهناك إلى جانب هذا

ـــ المسألة المادية والأعوام العديدة الضائعة التي كلفت أباه . ومن شأن هذا أن يجعل من المستحيل حصول التفاهم الودي المتبادل . يضاف إلى ذلك أن الحياة خليقة أن تكون ثقيلة الإملال في هذه البلدة التي لم يرها منذ عامين . وكان يوري يعد أهل البلاد الريفية الصغيرة ضيقي العقول ، عاجزين عن أن يدركوا أو يكترثوا لتلك المسائل الفلسفية والسياسية التي يراها الشيء المهم الوحيد في الحياة .

نهض يوري وفتح النافذة وأطل وكان على طول جدار البيت حديقة زهر صغيرة يانعة ما بين أحمر وأصفر وأزرق وقرمزي وأبيض فكأنها الكليدسكوب(1) ومن ورائها الحديقة الكبيرة الجهمة الممتدة إلى النهر كغيرها من حدائق هذه البلدة وهو يلتمع كالزجاج الخابي باديا من خلال الأشجار .

وكان المساء ساكناً صافياً وخالج يوري اكتئاب غامض وكان قد طال مكثه وإلفه للمدن الكبيرة المشيدة بالأحجار ومع أنه يحب أن يتوهم أنه يعشق الطبيعة فإنها لم تجد عليه بشيء : لا السلوى ولا سكون النفس ولا الانشراح . ولم تثر في صدره إلا حنيناً مبهماً حائلاً مدنفاً .

ودخلت (ليالي) الغرفة وقالت « آها . لقد قمت أخيراً ! وجاء قيامك في حينه »

وكاد يوري ـــ لثقل إحساسه بقلق مركزه وبشجى النهار ـــ يقضي نحبه . يضايقه مراح أخته وصوتها الطروب فسألها على غير انتظار :

ـــ « بأي شيء سرورك هذا ؟ »

ـــ « إني لا أضجر ! »

وفتحت عينيها وضحكت مرة أخرى كأنما أذكرها سؤال أخيها أمراً ممتعاً وقالت « وتصور سؤالك إياي ماذا يسرني ؟ أنا لا أعرف السآمة . كلا ، ليس عندي متسع من الوقت لهذا »

---

(1) منظار في أحد طرفيه قطع ملونة يتألف منها شكل جديد كلما هززتها .

ثم قالت بصوت وطيد وقد زهاها ما قالت : « إننا نعيش فى أيام فيها من المتعة ما يجعل السآمة ذنباً . وعندى العمال أعلمهم ثم المكتبة تستنفد شطراً عظيماً من وقتى، فقد أنشأنا فى غيابك مكتبة عامة وهى سائرة على منوال حسن»

ولو أن هذا قيل له فى أى وقت آخر لبعثه على الاهتمام ولكنه لم يكترث الآن لسبب ما .

وظلت ليالبا جادة تنتظر انتظار الطفل ثناء أخيها .

فتمكن أخيراً من أن يقول : « حقيقة ؟ »

فقالت بصوت الراضى المطمئن : « إذا كان هذا كله أمامك فهل يسعك أن تمل ! »

فلم يملك يورى أن يقول : « على كل حال أرى كل شيء يضجرنى »

فتظاهرت أخته بالاستياء وقالت : « ما ألطف هذا منك ؟ إنه لم تمض عليك سا عتان فى المنزل قضيتهما نائما ومع ذلك فقد ضجرت ! »

فأجابها بلهجة فيها بعض الشموخ : « إن هذا ليس خطئى ولكنه سوء حظى »

وظن أن من دلائل الذكاء السامى أن يضجر لا أن يسر .

فقالت متهكمة « سوء حظك حقيقة ! ها ها »

وداعبته بكفها على خده : « ها ها »

ولم يفطن يورى إلى أن مزاجه اعتدل وأن صوت ليالبا الطروب ومراحها قد أماطا عن نفسه الكآبة التى كان يحسبها حقيقة عميقة ولم تكن ليالبا تؤمن بكآبته هذه ومن أجل هذا لم يقلقها ما قال .

ورفع يورى طرفه إليها وقال وعلى وجهه ابتسامة :

— « إنى لا أعرف الجذل أبداً »

فضحكت منه «ليالبا» كأنما كان قال مايغرى بالاستغراق فى الضحك وقالت :

— « حسن جداً أيها « الفارس ذو الوجه العبوس » إذا لم تكن بالمنشرح فلست به . دعك من هذا وتعال معى لأعرفك بشاب فاتن تعال . »

وهزت يد أخيها وجرته معها وهى تضحك :

— « قف . من هذا الشاب الفاتن ؟ »

— « خطيبى » .

قالت ذلك وهى فرحة مضطربة واستدارت بسرعة فانتفخ ثوبها .

وكان يورى يعلم من رسائل أبيه وأخته أن طبيباً شاباً نزل بالبلدة وأنه يخطب ودها ولكنه لم يكن يعلم أن خطبتهما صارت أمراً واقعاً .

فقال وبه دهشة : « هل تعنين هذا حقاً ؟ »

وخيل إليه أن من بواعث العجب أن يكون لأخته لياليا الصغيرة الحسناء النضرة عاشق وهى تكاد تكون طفلة ، وأن توشك أن تصبح عروساً وزوجة . وخالجه العطف على أخته والمرثية لها . فلف ذراعه حول خصرها ومضى معها إلى غرفة المائدة حيث كانت تلتمع آنية الشاى الصقيلة فى ضوء المصباح فألفى بجانب أبيه شاباً وثيق التركيب ، قوى معارف الوجه مليحها ، حاد العينين براقهما إلا أنه ليس بالرومى فى سحنته . وكانا جالسين إلى المائدة فوقف الشاب لما أقبل يورى بهيئة المتودد وقال : « قدمينى إليه »

فقالت ليالبا متصنعة الوقار المضحك فى إعلائها : « أناتول بافلوفتش ريازانتزيف ؟ »

فأضاف أناتول إلى قولها مازحاً بدوره :

— « وهو ينشد صداقتك وتسامحك »

فتصافق الرجلان وهما صادقا الرغبة فى التآخى وكان من يراهما يقول إنهما يهمان بأن يتعانقا ، ولكنهما كبحا نفسيهما واجتزءا بأن يتبادلا نظرات الود الصريحة .

قال ريازانتزيف لنفسه مندهشاً : « وهذا إذن أخوها ؟ »

فقد كان يتصور أن أخا ليالبا القصيرة الجميلة الضحوك لابد أن يكون قصيراً جميلاً ضحوكا مثلها . ولكن يورى كان على عكسها طويلا نحيفاً أسمر وإن كان على هذا وسيما حسن الوجه .

ودار فى نفس يورى وهو ينظر إلى ريازانتزيف هذا الحديث : « وهذا إذن الرجل الذى يحب المرأة فى شخص أختى الصغيرة ليالبا النضيرة الجميلة كالفجر فى الربيع — يحبها كما أحببت أنا النساء »

وآله لسبب ما ، أن ينظر إلى ليااليا وريازانتزيف ، كأنما أشفق أن يقرأ خواطره .

وأحس الرجلان أن فى نفس كل منهما كلاما مهمّا يجب أن يقوله لصاحبه .

وود يورى لو استطاع أن يسأله : «أتحب ليااليا ؟ حباً صادقاً حقيقياً ؟ إن الأمر يكون محزناً بل عاراً إذا أنت خنتها فهى نقية النبل بريئة العهد »

وإذن لود ريازانتزيف لو يجيبه هكذا :

« نعم أحب أختك حباً عميقاً . ومن ذا الذى يستطيع ألا يحبها ؟ انظر كيف نقاؤها وحلاوتها وفتنتها ! وتأمل كيف تحبنى ! ما أحلى خدها ! »

ولكن يورى لم يسأله شيئاً وسأله ريازانتزيف :

— « هل طردت إلى أمد طويل ؟ » .

فكان جواب يورى : « لخمس سنوات » .

وكان أبوه نيقولا يقطع الغرفة جيئة وذهوبا . فلما سمع منه هذا وقف برهة ثم تنبه وعاد إلى سيره بخطى الجندى المتزنة المنتظمة ، وكان يجهل تفاصيل نفى ابنه فصدمه هذا النبأ الذى لم يكن يتوقعه ، وقال لنفسه : « ترى ما معنى هذا كله ؟ » .

ولم يفت لياليا مدلول هذه الحركة من أبيها وكانت تخشى أن تقع المشادة بينه وبين أخيها فحاولت أن تغير الحديث وقالت لنفسها : « كيف بلغ من حمقى أن أنسى أن أنبه أناتول ؟ » .

ولكن ريازانتزيف لم يكن يدرى حقيقة الأمر ولما دعته لياليا أن يتناول بعض الشاى أجابها إلى ذلك ثم عاد إلى مساءلة يورى :

— « وماذا تنوى أن تصنع الآن ؟ » .

فقطب نيقولا وجهه ولم يرد .

وأدرك يورى معنى صمت أبيه ، وقال متحديا له قبل أن يفكر فى عواقب جوابه :

— « لا شيء فى الوقت : الحاضر »

فسأله نيقولا ووقف « ماذا تعنى بلا شيء ؟ » ولم يرفع صوته ولكن لهجته كانت تحمل فى ثناياها تأنيباً مستوراً مؤداه : « كيف تقول مثل هذا الكلام ؟ أمكره أنا دائماً أن أتركك معلقاً بعنق ؟ كيف تنسى أنى شيخ هرم ، وأنه آن أن يكون لك مرتزق ؟ لست أقول شيئاً . عش كما يبدا لك . ولكن ألا تستطيع أن تفهم ؟

وعلى قدر إحساس يورى بأن أباه على حق فيما يجرى بخاطره كان استيباؤه . فقال وهو محنق :

— « نعم لاشيء . ماذا تنتظر أن أصنع ؟ »

وهم نيقولا أن يكر عليه بجواب مؤلم ولكنه لم ينبس ولم يزد على أن حز كتفيه وعاود خطاه المنتظمة من ركن إلى ركن وكان أحسن أدباً من أن ينازع ابنه فى يوم أوبته .

وراقبه يورى بعينين متقدتين وهو لا يكاد يضبط نفسه ، فلو سنحت له أضأل فرصة لنازل أباه .

وكادت لياليا تبكى وجعلت تنقل لحظها بين أخيها وأبيها مستعطفة راجية .

وفطن ريازانتزيف أخيراً إلى الأمر ، وأدركه العطف على لياليا فحول الحديث إلى مجرى آخر تحويلا ليس فيه حذق ولا خفة .

وزحف الليل بطيئاً ثقيلا .

وكان يورى لا يريد أن يعترف بأنه ملوم ، إذ كان لا يشايع أباه على أنه لم يكن من شأنه أن يشتغل بالسياسة .

وذهب يعد أباه عاجزا عن فهم أبسط الأشياء لأنه هرم غبي وأخذ يلومه من حيث لا يشعر على شيخوخته وآرائه العتيقة وراح تهيجه منه وتستفزه هذه الآراء .

ولم يلتذ ما طرقه ريازانزيف من الأحاديث ، بل لم يكد يلقى إليه سمعه وجعل يرصد أباه بعين لامعة مظلمة .

ولما جاء وقت العشاء دخل نوفيكوف وإيفانوف وسمينوف .

وكان سمينوف طالبا مصدورا يعيش منذ شهور في البلدة حيث يدرس وهو نحيف دميم ضعيف وعلى وجهه الذى أدركه الهرم قبل الأوان ظل الموت الزاحف .

أما إيفانوف فمدرس ، وهو رجل مجتوى طويل الشعر ، عريض الكتفين لا تروقك شمائله .

وكانوا يتمشون في الشارع فسمعوا أن يورى عاد فوفدوا لتحيته ، وصار المجلس بهم أنيساً وكثر الضحك والمزاح ، ودارت على الأكل الكؤوس والأقداح وبذهم إيفانوف في هذا الباب

أما نوفيكوف فإنه في الأيام التالية لخطبته المنحوسة لليدا هدأت نفسه قليلا وخطر له أن تأبى ليدا قد يكون عارضاً وهو على كل حال خطأ تلزمه تبعته فقد كان ينبغي أن يعدها لمثل هذه المكاشفة ولما كان يؤلمه مع ذلك أنه يزور أسرة سانين فقد جعل يتوخى أن يلاقى ليدا خارج بيتها — في الطريق أو في منزل صديق له ولها — وجعلت هي ترثى له وتنحى باللائمة على نفسها واندفعت لذلك تبالغ في ملاطفته ، فتجدد الأمل في نفس نوفيكوف .

ولما هموا بالانصراف قال نوفيكوف . « ما قولكم في هذا ؟ أقترح أن نخرج إلى الدير »

وهذا الدير قائم على تل غير بعيد من البلدة ، وإليه يذهب الناس كثيرا طلباً للنزهة وهو قريب من النهر والطريق إليه حسن .

فارتاحت ليااليا إلى الفكرة وحمست لها، وكانت ولوعة بكل أنواع الملاهى من استحمام وتجذيف وسير فى الغابات وقالت :

— « نعم لنذهب . نعم بلا شك . ولكن متى يكون هذا ؟ »

فقال نوفيكوف : « لماذا لا نذهب غداً ؟ »

وسأل ريازانتزيف : « ومن ندعو غيرنا ؟ »

وسره أن يخرج إلى الهواء الطلق ليهيأ له بين الأشجار أن يضم ليااليا بين ذراعيه وأن يقبلها، وأن يحس أن الجسم الحلو الذى يشتهيه أدنى شىء إليه :

— « دعونا نفكر . نحن ستة . ما قولكم فى شافروف؟ »

فسأل يورى : « من يكون هذا ؟ »

— « طالب شاب » .

— « حسن جدا . وعلى « لود ملا نيقولايفنا » أن تدعو كارسافينا وأولغا إيفانوفنا » .

فسأل يورى مرة أخرى : « من هذان ؟ »

فضحكت ليااليا وقالت : « سترى » .

ولثمت أطراف أصابعها ونظرت إليه كأنما فى الأمر سر .

فقال يورى مبتسما : « آها ! حسن . سترى ما سترى »

وبعد تردد قال نوفيكوف بغير اكتراث :

— « ولا بأس من أن ندعو أسرة سانين أيضاً »

فصاحت ليااليا « آه لا بدّ لنا من ليدا » ولم يكن ذلك منها عن إيثار خاص لليدا، بل لأنها تعلم حب نوفيكوف لها وتريد أن تدخل السرور على قلبه وهى سعيدة بحبها تود أن يسعد من حولها مثلها .

فلاحظ ايفانوف بخبث « اذن يتحتم أن ندعو الضباط كذلك » .

— « ماذا بهم ؟ لندعهم . فكلما كثر العدد زاد السرور »

ووقفوا جميعاً أمام الباب فى ضوء القمر وقالت ليااليا : « ما أجمل الليل ! »

ردنت من حبيبها وهى لا تشعر وكانت لا تريد أن يفارقها الآن .

فضغط ريازانتزيف ذراعها الدافىء المفتول . وقال : « نعم إنها ليلة بديعة » .

وكان لهذه الألفاظ البسيطة معنى لا يدركه غيرهما .

فقال إيفانوف بصوته الضخم العميق : « ويحكم أنتم وليلتكم . إن النوم يغالبنى فعموا مساء ياسادتى » .

ومضى مخترقاً الشارع وجعل يطوح بذراعين كذراعى الطاحون .

وتلاه نوفيكوف وسميتوف ، وظل ريازانتزيف لحظة طويلة يودع ليااليا متخذاً من الكلام على النزهة حجة له وعذرا .

ثم قالت ليااليا لأخيها بعد أن ودعها حبيبها : « والآن يجب أن نذهب نحن أيضاً »

وأصعدت زفرة أسف على الانكفاء عن الليل المقمر والنسيم المترقرق فى حواشى الظلام وكل ما يطالبه جمالها وشبابها .

وذكر يورى أن أباه لم يذهب إلى مخدعه بعد ، وخاف إذا هو لقيه ألا يلقيا بدأ من الكلام الجارح الذى لا خير فيه .

فقال وعيناه قيد الضباب الأزرق الخفيف حوالى النهر : « كلا . لا أريد النوم . وسأتمشى قليلا » .

فقالت له ليااليا بصوتها الرقيق الحلو : « كما تحب » .

ومطت أعضاءها وثنت جفونها قليلا كالقطة ، ومنحت القمر ابتسامة ودخلت .

ولبث يورى دقائق فى مكانه يرصد الظلال الكثيفة التى ترميها المنازل والأشجار ، ثم مضى على سمت سمينوف .

ولم يكن سمينوف قد أبعد فقد كان مشيه بطيئا ، وكان ينحنى كلما سعل . وفى أثره ظله يطارده على الطريق المقمر ، فأدركه يورى ولم تلبث عينه أن أخذت ما طرأ عليه من التغير . فقد كان سيمينوف أثناء العشاء يضحك ويمزح ، كما لم يضحك سواه . ولكنه الآن كان يمشى مكتئباً غارقا فى نفسه وفى سعلته الجوفاء شيء من اليأس والوعيد ، كالداء الذى يخامره فقال بصوت رأى فيه يورى نفورا :

— « أهذا أنت؟ »

— « لم أطلب النوم وإذا سمحت رافقتك »

فقال سمينوف بدون احتفال : « نعم . افعل »

وسأله يورى : « ألا تحس البرد ؟ »

وإنما سأله لأن هذا السعال المزعج نبه أعصابه .

فأجابه متضايقاً : « إنى دائما بردان »

وتألم يورى كأنه كان تعمد أن يلمس جرحاً دامياً . وقال :

— « هل تركت الجامعة منذ زمن طويل ؟»

فلم يجب سمينوف مباشرة وقال بعد برهة : « زمن طويل » .

فشرع يورى يحدثه عن إحساس الطلبة ، وما يعدونه جوهريا مهمّا وكان يتكلم فى أول الأمر بهدوء وسكون ولكنه أرسل نفسه على سجيتها وحمس تدريجاً وأجاد الإعراب عن خواطره ؛

ولم يقل سمينوف شيئاً وإنما أصغى ؛

ثم أخذ يورى يندب عدم وجود الروح الثورية بين الجماهير وكان من الواضح الجلى أنه يألم ذلك أعمق الألم .

ثم سأله صاحبه : « هل قرأت آخر خطبة ألقاها بيل ؟ »

— « نعم قرأتها »

— « ما قولك فيها ؟ »

فلوح سمينوف بعصاه تلويح المتضايق ، وكان لها رأس ملتو وحاكاه خياله فرفع ذراعا طويلة سوداء ثم وضعها فمثلت لذهن يورى صورة أجنحة سوداء يخفق بها طير جارح ثائر .

ولوح بعصاه وحاكاه ظله .

ورأى سمينوف ذلك فى هذه المرة فقال :

—« انظر ! ها هنا ورائى يقف الموت يرصد منى كل حركة ! ماأنا وبيل؟ إن هو إلا ثرثارة يهذى فى هذا . وسيجىء مائق غيره يهذر عن ذلك . وسواء على هذا وذاك ؟ وإذا لم أمت اليوم فسأموت غدا »

فلم يجب يورى واضطرب وتألم .

ومضى سمينوف فى كلامه : « وأنت مثلا تحسب هذا الذى يجرى فى الجامعة وما يقوله بيل مهمًا ولكن الذى أراه هو أنك إذا أيقنت — كما أنا موقن — أنك ستموت ، فإن تكترث لما يقوله بيل أو نيتشة أو تولستوى أو غير هؤلاء »

وصمت سمينوف . وكان القمر لا يزال بريق ضوءه وخاف الرفيقين الخيال الأسود يتعقبها .

ثم قال سمينوف فجأة بصوت آخر هزيل شاك : « إنى مقضى على ... ولو كنت تدرى كيف فزعى من الموت ... لا سيا فى ليلة قمراء رقيقة الحواشى كهذه » ؟

ولفت إلى يورى وجهه الدميم الغائر العينين اللامعهما : «كل شىء يحيا . أما أنا فلا بد أن أموت . وإنى على يقين من أن هذا الكلام لا يقع من نفسك إلا موقع القول المبتذل ـــ لا بد أن أموت ـــ ولكنى لم أقتبسه من روايه ولا أخذته من كتاب يطالعك أسلوبه بصدق الفن وبراعة التصوير . إنى حقيقة سأموت وهذه الألفاظ فى مسمعى غير مبتذلة . وستكف يوما عن حسبانها كذلك . إنى أموت ... أموت . وسيقضى الأمر . »

وسعل سميتوف مرة أخرى وقال :

ـــ « وكثيراً ما يخطر لى أن الظلام سيشتمل على بعد قليل وإنى سأدفن فى الأرض الباردة وإن أنفى سيغور فى وجهى وتتعفن يداى ، على حين يبقى كل شىء فى الدنيا كما هو الآن ، إذ أمشى على ظهرها حياً . وستكون حيا وتستنشق النسيم وتسبح فى ضوء القمر وتمر بالقبر الذى يضم عظامى النخرة الشنيعة البلى . ماذا تظننى أعبأ ببيل أو تولستوى أو بمليون آخر من هذه القرود الهاذرة » .

وكان يورى أشد اكتئابا من أن يسعه أن يرد .

ثم قال سمينوف بصوت ضعيف خافت : « عم مساء فسأدخل البيت »

فهز يورى يده وأدركه العطف الشديد على هذا الرجل الخاوى الصدر ، المستدير الكتفين ، ذى العصا العوجاء المتدلية من عروة معطفه . وكان يوده لو استطاع أن يعزيه وأن يبعث فيه الأمل . ولكنه أحس أن هذا مستحيل فلم يزد على : « عم مساء » وتنهد .

ورفع سيمنوف قبعته وفتح الباب وتضاءل وقع قدمه ، وخفت صوت سعاله ثم عاد كل شىء ساكنا .

ورجع يورى يستقبل من طريقه ما استدبر وقد ماتت الدنيا فى عينه ـــ ماتت كل ما كان منذ نصف ساعة فقط ، وضيئا جميلا ساكنا ـــ ضوء القمر

ونجوم السماء والأشجار الفضية الروعة والظلال الغريبة — وطالعه من كل هاتيك برد القبر وفظاعته وهوله .

ولما بلغ البيت قصد إلى غرفته وفتح النافذة المطلة على الحديقة . فجرى بذهنه لأول مرة فى حياته . أن كل ما استغرق حواسه ومداركه وأظهر فى سبيله من الحماسة والإيثار ما أظهر ،ليس فى الواقع بالمهم ولا بالصواب . وإذا رنق الموت فوقه ، يوما مثل سميتوف ،فلن يقطع قلبه الأسف على أن جهوده لم ترد الناس سعادة ولن يحزنه أن مثله العليا لم تتحقق . وإنما يكون حزنه لأنه سيموت ويحرم النظر والاحساس والسمع قبل أن يتاح له أن يذوق كل مسرات الحياة ولذاتها .

ولكن هذا الخاطر أخجله فنحاه عن فكره وأخذ ينشد تعليل ذلك .

الحياة جهاد

« نعم ولكن جهاد فى سبيل من ، إن لم يكن فى سبيل الذات ، ومكان المرء تحت الشمس ؟ »

هكذا قال له صوت من داخل نفسه .

فتظاهر يورى بأنه لم يسمعه وحاول أن يفكر فى أمر آخر ، ولكن ذهنه كان يكر راجعاً إلى هذه الفكرة بلا انقطاع . فعذبه هذا حتى لقد أبكاه بكاء مراً .

(٥)

لما تلقت ليدا سانين دعوة لياليا أطلعت أخاها عليها وكانت تتوقع منه أن يرفضها . بل كانت ترجو ذلك لأنها تعلم أنها هناك على النهر ستكون قريبة من ساروودين فيعاودها ذلك الإحساس الجامع بين اللذة والقلق ، وأخجلها فى الوقت نفسه أن يعلم أخوها أنها تحب — دون خلق الله — ساروودين الذى يحتقره سانين من أعماق قلبه .

ولكن سانين قبل الدعوة مسروراً .

وكان اليوم بديعا وضيئا ، لا تضمر شمسه السحب ، فلم يسع ليدا إلا أن تقول :

— « لاشك أنه سيكون هنالك بضع فتيات حسان قد يعنيك أن تعرفهن ؟ »

— « آه . هذا حسن . والجو كذلك رائق . فلنذهب »

ولما جاء موعد الذهاب حضر سارودين وتاناروف في مركبة كبيرة من مركبات فرقتهما ، يجرها جوادان ضخمان من جيادها .

وكان سارودين في ثياب بيضاء معطرة فقال : « ليدا بتروفنا . إننا في انتظارك » .

وكانت ليدا في ثوب رقيق شفاف من المخمل الوردى ، مشدود على خاصرتها ، فانحدرت إليهما ومدت إلى سارودين كلتا يديها فأمسك بهما لحظة وعينه جائلة في جسمها مفتونة به .

فنالت منها هذه النظرة التي تعرف معناها واضطربت لها فصاحت :

— « فلنذهب . فلنذهب »

وسرعان ما عدت بهم المركبة في الطريق المهجور بين السهوب ، وكانت أغيصان التبن تنثنى تحت العجلات ويهب النسيم على رءوس أخواتها فتموج وتترنح . ولما جاوزوا البلدة أدركوا مركبـــة أخرى تقل ليااليا ويورى وريازانتزيف ونوفيكوف وإيفانوف وسمينوف متكدسين متزاحمين وإن كانوا على هذا جذلين مبتهجين ، إلا يورى فقد حيره سلوك سمينوف بعد حديث البارحة ولم يستطع أن يفهم كيف يتهيأ له أن يضحك ويمرح كعيره واستغرب منه هذا المرح بعد الذى سمعه وجعل يسأل نفسه : « هل كل هذا تصنع ؟ » ويسارقه النظر إلا أنه أحجم عن هـــذا التفسير لما يبدو له من حال سمينوف .

وتبادلت المركبتان الفكاهة والدعابة ، ووثب نوفيكوف عن مقعده إلى الأرض وراح يسابق ليدا على الحشائش وكأنهما آليا أن يتظاهرا بأنهما خير

الأصدقاء فقد جعلا يتداعبان طول الوقت .

وقاربوا التل القائم على ذروته الدير بقبابه اللامعة وجدرانه البيضاء ، وعلى التل غابات تخال أطراف بلوطها من الصوف ، وإلى سفحه جزائر يتدفق حولها : النهر وفيها أشجار البلوط قائمة .

ومالت الخيل عن الطريق إلى الأرض اللينة وجعلت العجلات تحفر فيها أخاديد عميقة وسطع الأنوف من الأرض والأوراق الخضراء عرف ذكي .

وكان ينتظرهم فى الموعد المضروب على المرج طالب وفتاتان فى ثياب « الروسيا الفتاة » وكانوا جالسين على بساط الروض ، وإذا كانوا أسبق من سواهم فقد اشتغلوا بإعداد الشاى والمرطبات الخفيفة .

ووقفت المركبة وجعلت الخيل تنفخ وتذود الذباب بذيولها ووثب كل من فيها عنها : وقد أنعشهم الركوب وهواء الريف النقى ، وطفقت ليالياً تقبل الفتاتين اللتين تعدان الشاى قبلات رنانة ، وقدمتهما إلى أخيها وإلى سانين فجعلتا تتأملانه فى خجل .

وأدركت ليدا أن الرجلين لا يعرف أحدهما الآخر ، فقالت ليورى :

— « أسمح لى أن أقدم إليك أخى سانين فلاديمير »

فابتسم سانين وصافحه .

ولكن يورى لم يكد يلتفت إليه .

وكان سانين امرأ يلذه كل إنسان فهو لهذا مرتاح إلى معرفة الناس .

ولكن يورى كان يذهب إلى أن الناس قل أن يكون فيهم من يطيب بخبره ومن أجل ذلك كان يزهد فى لقاء الغرباء وكان إيفانوف يعرف سانين قليلا وقد راقه ما سمعه عنه فذهب إليه قبل سواه ، وأخذ يحادثه وصافحه سمينوف محتفلا .

وقالت ليالياً : « الآن نستطيع أن نتمتع جميعا بعد هذه الرسميات المتعبة »

ولكن الكلفة ألقت ظلها على الجميع فى أول الأمر ، إذ كان كثيرون منهم لم

يسبق لبعضهم ببعض عهد فلما شرعوا يأكلون وأصاب الرجال من الأشربة والنساء من النبيذ لم تلبث الكلفة أن أخلت الميدان للمرح فشربوا كثيراً وكثر الضحك والمزاح وتسابق البعض وصعد الآخرون على التل وكان كل ما حولهم من السكون والوضاءة ، والغابات الخضراء من الجمال بحيث لا يتأتى للكآبة أن تبسط ظلها على نفوسهم .

وقال ريازانتزيف وهو يلهث ووجهه متقد : «ولو أن كل امرىء وثب وجرى على هذا النحو لاختفت تسعة أعشار الأمراض من العالم .. » .

فزادت ليديا « والرذائل أيضاً » .

وقال إيفانوف : «أما من حيث الرذائل فسيبقى منها الكفاية دائماً » .

ومع أنه لم ير أحد أن في هذا القول فكاهة أو سداداً فقد ضحكوا جميعاً .

ومالت الشمس للمغيب وهم يشربون الشاى وتوهج النهر ونفذت أشعة النور الدافئة الحمراء من خلال الأشجار .

وصاحت بهم ليديا « والآن . إلى الزورق » .

وأمسكت بثوبها وانحدرت إلى الشاطىء وقالت : «من يكون أول واصل إليه ؟ » .

فعدا بعضهم وراءها وتبعهم الباقون على مهل وبلغوا جميعاً الزورق الكبير المنقوش ضاحكين .

فقالت ليديا بصوت الآمر الطروب : « اخرجوا به » .

فاندفع الزورق عن الشاطىء وخلف وراءه على سطح الماء خطين عريضين لم يلبثا أن تكسرا على حافة النهر .

وسألت ليديا يورى : « مالك صامتاً ؟ » .

فابتسم وقال : « ليس عندى شيء أقوله » .

— « مستحيل ! » .

ومطّت أرقّ شفتين ورمت رأسها إلى ظهرها فعل من يعلم أن الرجال لا يدرون لسحرها من رقية .

فقال سميتوف : «إن يورى لا يحب أن يهذر . وهو يطلب . » .

فقاطعته ليديا « موضوعاً جدياً ؟ أهذا ما يريد ؟ » .

وقال سارودين وأشار إلى الشاطىء انظروا : « هذا موضوع جلى »
وكان على صخور الشاطىء بين جزوع شجرة بلوط عتيقة
معقدة مدخل ضيق تغطيه إلا قلة من الحشائش والاكلاء .
فسأل شافروف وكان لا يعرف هذه الناحية : « ماهذا ؟ » .
فأجاب إيفانوف : « غار » .
« أى نوع من الغيران هذا ؟ » .
ـ «علم هذا عند الشيطان ! على أنهم يقولون إنه كان في وقت من الأوقات مثوى نفر من مزيفي النقود قبض عليهم جميعاً كما هي العادة . أعمال خطرة أليس كذلك ؟ » .
فقال نوفيكوف : «أظنك تود أن تضرب على هذا القالب وأن تزيف قطعاً من فئة العشرين كوبيك ؟ » .
فقال إيفانوف : « كوبيك ؟ كلا ! الروبلات ياصديقي الروبلات ! » .
فهمهم سارودين وهز كتفيه وكان لا يحب إيفانوف ولا يفهم نكاته .
وعاد إيفانوف إلى قصته فقال : « نعم قبضوا عليهم جميعاً وامتلأ الغار ثم تداعى على الأيام وليس يغشاه الآن أحد . بيد أنه مكان لذيذ» .
فصاحت ليدا : «لذيذ ؟ ؟ أحسبه كذلك » .
وقال يورى : «فكتور سرجفتش . هلم إليه . إنك أحد الشجعان المغاوير »
فسأله سارودين وقد ارتبك : « لماذا ؟ » .
فقال يورى وقد أشجاه أن يظنوا به المباهاة الكاذبة : سأفعل
وشجعه إيفانوف فقال : « إنه لمكان عجيب ».
ـ فسأله نوفيكوف : « أذاهب أنت أيضاً ؟ » .
ـ « كلا إنى أفضل البقاء هنا » .
فضحكوا منه جميعاً .
ودنا الزورق من الشاطىء
وهبت على رؤوسهم من الغار موجة هواء باردة .

وحاولت ليالبا أن تحمل أخاها على العدول فقالت :

— « ناشدتك الله لاتفعل ! إن هذا حمق حقيقة » :

فقال يورى مبتسماً « حمق.نعم بلا شك! ناولني ياسمينوف هذه الشمعة».

— « أين هي ؟ » .

— « خلفك . في السلة » .

فأخرج سمينوف الشمعة متريثاً .

وسألته فتاة طويلة بديعة القوام رائعة التناسب : «أذاهب أنت حقيقة ؟».

وكانت ليالبا تسميها «سينا» ولقبها كرسافينا .

— «بلا شك . لماذا لا أذهب ؟ » .

وتظاهر بعدم الاكتراث . وذكر أنه فعل مثل هذا مرة في بعض مخاطراته السياسية ولم تقع هذه الذكرى موقعاً حسناً من نفسه لأمر ما .

وكان مدخل الغار رطباً مظلماً ونظر فيه سانين وانفرجت شفتاه عن «بررررر » واستسخف من يورى أن يرتاد مكانا خطرا يكرب النفس لالسبب سوى أن الناس يشهدونه وهو يفعل ذلك .

وكان يورى شديد الإحساس بنفسه فأوقد الشمعة وهو يقول لنفسه : « إني أعالج مايضحك مني الناس أليس كذلك ؟ » .

ولكن الواقع أنه بدل أن يثير سخرهم فاز بالإعجاب ولاسيما من النساء اللواتي راقهن منه ذلك وأعجبهن إلى حد الإزعاج .

وتمهل يورى إلى أن أضاءت الشمعة ثم ضحك تفاديا من التضاحك وغاب في ظلام الغار وكأنما اختفى النور معه فقلقوا عليه وودوا لو يعرفون ماذا عسى أن يقع له .

وصاح به ريازا نتزيف : « احذر الذئاب » .

فتهدى إليه من جوف الغار صوت ضعيف غريب يقول :

— « لاتخف فإن معي مسدساً » .

تقدم يورى فى بطء وحذر وكانت جوانب الغار قصيرة وعرة رطبة والأرض من الوعورة وعدم الاستواء بحيث كادت تزل به قدمه مرتين فى جحر وخطر له أن الأحجى أن يعود وأن يبقى مكانه برهة ليؤاتيه أن يدعى أنه توغل .

وفاجأه وقع أقدام وراءه تخطو على الطين البايل ونفس مسرع فرفع يده بالشمعة وصاح مذهولا : « سينا كرسافينا ؟ » .

— « هى بعينها » .

وأمسكت بثوبها وتخطت الجحر بخفة .

وسر يورى أن تكون هذه الفتاة الجميلة هى التى جاءت فحياها بعينين ضاحكتين .

وقالت سينا وهى خجلة : « دعنا نتقدم » .

فأطاع يورى ولم يعد تزعجه فكرة الخطار الآن .

وأخذ يعنى بإنارة الطريق لرفيقته ولمح مخارج عديدة كلها قد سدت ورأى فى ركن بضع ألواح من الخشب يحسبها الرائى آثار نعش قديم

فقال يورى وخفض صوته وهو لايدرى : «ليس بالممتع جداً . . » .

وأخذ نفسه الضيق فى جوف هذه الكتلة الأرضية .

فهمست سينا « بلى إنها لممتعة » .

والتفتت حولها فالتمعت عيناها فى ضوء الشمعة . وكانت مضطربة فتوخت أن تكون قريبة منه ليحميها ، ولاحظ هو ذلك وأدركه العطف على رفيقته الجميلة الضعيفة .

وعادت إلى الكلام : «لكأن المرء هنا مدفون حيا . وإذا صرخنا لم يسمعنا أحد» .

فقال ضاحكا : « لاشك » .

وطاف برأسه فجأة خاطر دار له ذهنه . أن هذه الفتاة الجميلة النضيرة المشتهاة فى قبضة يده وتحت رحمته . وليس من يراهما أو يسمعهما .. ولكن هذا الخاطر من الدناءة بحيث لاسبيل إلى وصفه فأسرع فنفاه وقال :

« ولنفرض أننا جربنا ؟ » .

وارتعش صوته . أتراها أدركت مادار بذهنه ؟

فقالت « نجرب ماذا ؟ » .

قال — « إنى أطلقت مسدسي ؟ » .

وأخرجه .

قالت : « هل تسقط الأرض علينا ؟ » .

قال : « لاأدرى » .

وإن كان على يقين من أنه لن يحدث شيء من هذا . ثم قال : « أخائفة ؟ » .

قالت : « لا : لا ! أطلق ! » .

وتراجعت خطوة أو بعض خطوة :

ومد ذراعه بالمسدس وأطلقه فأبرق المكان ولفهما سحابة من الدخان وتجاوبت الأصداء ثم خفتت تدريجا .

فقال يورى : هذا كل ماحدث .

قالت : « دعنا نرجع » .

فعادا أدراجهما وسارت أمامه فأثار منظر ردفيها المكتنزين المستديرين فى ذهنه خواطر جنسية كان من الصعب عليه أن يغض عنها فقال بصوت مضطرب :

— « اسمعى ياسينا . إنى أريد أن أسألك سؤالا سيكولوجيا لطيفاً كيف لم تخافى أن تأتى إلى هنا معى ؟ لقد قلت أننا لو صرخنا لما سمعنا أحد . وأنت لاتعرفين عنى شيئاً على الإطلاق ! » .

فخجلت فى الظلام وصمتت ثم قالت أخيراً بصوت خافت :

— « لأنى رأيت أنك يمكن الثقة بك » .

قال : « وافرضى أنك كنت مخطئة ؟ » .

فقالت بصوت لايكاد يسمع : « اذاً كنت ... أغرق نفسى » .

فلأته هذه الألفاظ عطفاً وسكنت نزعاته واطمأنت نفسه .

وقال لنفسه : « ما أطيبها من فتاة » .

ووقعت منه أعظم وقع عفتها البسيطة الصريحة .

وزهاها ردها عليه وأرضتها موافقته الصامتة عنه فابتسمت له لما عادا إلى مدخل الغار . على أنها كانت تعجب لماذا لم تر في سؤاله ما يسوء أو يفضح ولماذا ارتاحت إليه على العكس من ذلك ؟

(٦)

بعد أن انتظر الباقون برهة عند مدخل الغار وركبوا سيتا ويوري بالنكات أخذوا يتمشون على شاطىء النهر وأشعل الرجال السجائر والقوا بعيدان الكبريت في الماء وجعلوا يرقبون انداح الدوائر على سطح التيار .

وراحت ليدا تخطر ويداها إلى جانبي خصرها مما يلي ردفيها وتغني وهي سائرة وقدماها الصغيرتان الرشيقتان في حذاءيهما الأصفرين يرتجلان الرقص من حين إلى حين .

أما ليالبا فكانت تقطف الأزاهر وترمي بها ريازانتزيف وتداعبه بعينيها .

وقال إيفانوف لسانين : « ما قولك في الشراب ؟ » .

— « فكرة بديعة » .

فانقلبا إلى الزورق وفتحا عدة زجاجات من الجعة وشرعا يشربان .

فصاحت بهما ليالبا « ويحكما من سكيرين فظيعين ! » .

وراحت ترميهما بخصل من الحشائش .

فقال إيفانوف ومص شفتيه « إنها من الطراز الأول » .

فضحك سانين وقال مازحاً : « كثيراً ما أعجب للناس لماذا ينحون على الكحول . وفي اعتقادي أن السكير هو الذي يعيش كما ينبغي له » .

فأجابه نوفيكوف من الشاطىء : « أي كالبهيم ! »

فقال سانين : « ربما ! على أنه مهما يكن من ذلك فالسكران إنما يفعل ما يريد . فإذا خطر له أن يغني غنى . وإذا طلبت نفسه الرقص رقص ولم يستحي أن يطرب ويمرح » .

فقال ريازانتزيف : « وقد يضارب أيضاً » .

فأجاب سانين (نعم يفعل — أعني إذا لم يعرف المرء كيف يشرب) .

فسأله نوفيكوف : « وهل تحب المضاربة وأنت ثمل ؟ » .

فأجاب سانين : « كلا : بل أفضل أن أضارب وأنا صاح . فإذا سكرت عدت أطيب الناس قلباً لأني أنسى كل ما هو حقير وضيع » .

فقال ريازانتزيف : « ليس كل الناس هكذا » .

فأجاب سانين : « إني آسف لهم .على أن غيري لا يعنيني على الإطلاق» .

فقال نوفيكوف : « لا يسع المرء أن يقول هذا ؟» .

فأجاب سانين : « لماذا لا يقوله إذا كان حقاً ؟ » .

فقالت لياليا وهزت رأسها : « إنه ملق بديع ! » .

فرد إيفانوف عن سانين : « هو أبدع ما أعرف على كل حال» .

وكانت ليدا تغني بصوت عال فسكتت فجأة وبدا على وجهها الضيق وقالت :

— « إنهما لا يستعجلان على ما يظهر » .

فأجابها يوري : « ولماذا يستعجلان . إن من الخطأ العظيم أن يستعجل المرء في أي أمر » .

فقالت ساخرة : « وسينا فيما أظن هي البطلة المنزهة عن الخوف المبرأة من العيب » .

ولم يستطع تاناروف أن يكتم خواطره في هذه اللحظة فانفجر يضحك ثم استحيى

وكانت ليدا واقفة ويداها إلى ردفيها وهي تميد عنة ويسرة برشاقة فالتفتت إليه وقالت وهزت كتفيها :

— « أحسبهما قد ظفرا بأمر ممتع » :

وقال ريازانتزيف وقد تأدى إليهم صوت طلق : « اسمعوا » .

فقال شافروف : « هذه طلقة مسدس » .

وتعلقت لياليا وهي مضطربة بذراع حبيبها وقالت :

— « مامعنى هذه الطلقة ؟ » .

قال : «لاتنزعجى إن كان ذئباً فالذئاب أليفة فى هذا الوقت من العام وهى على كل حال لا تهم باثنين »

وحاول ريازانتزيف أن يطمئنها وإن كان القلق قد ساوره من هذه النزوة الصبيانية التى نزت برأس يورى .

وقال شافروف وبه مثل مابهم من الغيظ : « حمق » .

ثم صاحت ليدا بلهجة المستخف : « إنهما آتيان — آتيان فلا تقلقوا ! »

وكان وقع أقدامهما مسموعاً الآن ولم يلبثا أن خرجا من الظلام فأطفأ يورى الشمعة وابتسم وهو مضطرب إذ كان لايدرى كيف يستقبله القوم . وقد جلله الطين الأصفر . وكان منه آثار على كتف سينا فقد احتكت بجانب الغار .

وسألهما سميتوف بفتور : « ماعندكما ؟ » .

فقال يورى وكأنه يعتذر : « إن المكان رائق جدا لولا أن الممر لايفضى إلى بعيد وهو مسدود وقد رأينا ألواح خشب منعفنة ملقاة هنا وهاهنا » .

وقالت سينا والتمعت عيناها : « هل سمعتم طلقة المسدس ؟ » فقاطعها إيفانوف صائحاً : « أيها الاخوان لقد شربنا كل الجعة وانتعشت نفوسنا جدا فلنعد »

ولما توسطوا النهر بالقارب كان القمر قد طلع . وكان الليل ساكناً صافياً والنجوم الذهبية تلمع فوقهم وحولهم وفى قبة السماء وفى صفحة الماء فكأن الزورق معلق بين كوتين لايقاس لهما غور . وبدت الغابة المقاتمة على شاطىء النهر مستبهمة معجمة السر — وغرد عندليب فأصاخوا فى سكون . ووقع فى نفوسهم منه أنه ليس بطائر بل حالم طروب يرسل الصوت فى جوف الظلام

وخلعت سينا كرسافينا قبعتها وانطلقت تغنى أنشودة روسية عذبة شجية ككل الأناشيد الروسية . وكان صوتها العالى الرنان هافياً ينال من القلب وإن لم يكن بالقوى .

فتمتم ايفانوف « هذا عذب » وقال سانين « فتان » .

ولما فرغت من الغناء صفقوا لها جميعاً وارتد إليهم الصدى من الغابات المظلمة على جانبي النهر :

وقالت ليالياً : « غنينا لحنا آخر ياسينا — أو افعلي ما هو خير — أنشدينا قصيدة لك » .

فقال إيفانوف : « وشاعرة أيضاً ؟ ما أكثر الهبات التي يجود بها الله الكريم على مخلوقاته ! » .

فسألته سينا وهي مرتبكة : « أو هذا شيء قبيح ؟ » .

فأجاب سانين : « كلا ، بل حسن جداً » .

وعاد إيفانوف فقال : « إذا أوتيت الفتاة والصبا والحسن فما حاجتها إلى الشعر ؟ وددت لو أدري ! » .

وجاش صدر ليالياً لها بالحب والرقة فقالت : « دعينا من هــذا وغنينا لحنا ياسينوتشكا ! »

فافتر ثغر سينا وانصرفت بوجهها معجبة بنفسها قبل أن تغني الأبيات التالية بصوتها الخالص الموسيقي :

يا حبيب النفس يا خير حبيب !
لن أناجيك بسري أبدا
لا ولن أكشف عن حر اللهيب !

❊ ❊ ❊

وإذا ما حنته العين إليك
وصبيت ، أرخيت جفني جلدا
فانطوى سر الهوى عن ناظريك

❊ ❊ ❊

ليس يبديه سوى طول الحنين
ليس يدرى حبي المتقدا
غير ساجي الليل لو كان يبين

❊ ❊ ❊

كل نجم — كل روض بهواى
حالم فى الليل أما ابتردا
هامس — أو كنت تصغى — بجواى

❋ ❋ ❋

هذه تدريه لكن لا تقول !
هى خرساء كتوم أبدا
فمن المبلغك السر المهول ؟

❋ ❋ ❋

فشاعت فى نفوسهم حماسة الطرب مرة أخرى وضجوا بالتصفيق لسينا لا لأن قصيدتها الصغيرة جيدة بل لأنها جاءت ناطقة بحالهم معبرة عن مزاجهم ولأنهم جميعاً كانوا يحنون إلى الحب وشجاه اللذيذ .

وصرخ فيهم إيفانوف وقد أخذته نشوة الطرب بصوت عميق أفزعهم جميعاً : — « ياليل ! ياليل ؟ يا عينى سينا البراقتين ناشدتكما ألا ماقلتما لى أنى أنا ذلك الحبيب السعيد ! » .

فقال سمينوف : « إنى أستطيع أن أؤكد لك أنك لست به » .

فتوجع إيفانوف نادبا « آه ، ياويحى ! » فلم يبق أحد لم يضحك .

وسألت سينا يورى « أشعرى ردىء ؟ »

ولم يكن يرى أن فيه ابتكاراً يذكر ولقد أذكرته قصيدتها مئات من أمثالها ولكن سينا بارعة الحسن وقد توسلت إليه عيناها فلم يسعه إلا أن يقول بوقار :

— « أراها على جانب عظيم من الفتنة والحلاوة » .

فابتسمت وأدهشها أن يسرها مثل هذا المدح كل هذا السرور .

وقالت لياليا : « إنك لم تعرف سينا بعد ! هى كل شىء جميل وحلو » .

فقال إيفانوف : « أتعنين هذا حقا ؟ » .

فأصرت لياليا : « نعم أعنيه ، إن صوتها مرن رخيم وكذلك شعرها وهى نفسها جميلة — حتى اسمها جميل عذب » .

فصاح إيفانوف : «لعمري ماذا تستطيعين أن تزيدي على هذا ؟ على أني اطابقك على رأيك » .

فاحمر وجه سينا خجلا وارتباكا من هذه المدائح :

وقالت ليدا فجأة : «قد آن أن نعود » .

واستكرهت أن تسمع مدح سينا إذ كانت تعد نفسها أجمل وأبرع وأمتع .

وسألها سانين : « ألا تغنينا ؟ » .

فقالت : « كلا ! إن صوتي لايؤاتيني الآن » .

وقال ريازانتزيف « لقد آن أن نعود حقيقة » وذكر أن عليه في الصباح أن يكون في مشرحة المستشفى . وود الآخرون لو يتلكأون قليلا ولازموا الصمت وهم عائدون وأحسوا بالتعب والرضى، وداست العجلات مرة أخرى اغصان الحشيش وإن لم ير ذلك أحد . ولم يلبث التراب أن استقر على أرض الطريق مرة ثانية وبدت الحقول الحوة العارية هائلة لا حد لها في ضوء القمر الوانى .

(٧)

مضت ثلاثة أيام وفي مساء الرابع عادت ليدا إلى بيتها حزينة متعبة مثقلة القلب . ولما بلغت غرفتها وقفت ويداها متشابكتان وعيناها إلى الأرض ، وأدركت فجأة أنها في علاقاتها مع سارودين قد جاوزت الحد فاستهولت ذلك ، وتبينت لأول مرة منذ تلك اللحظة — لحظة الضعف الذي لايعالج — أي سلطان مذل صار لهذا الضابط الفارغ العقل عليها وإن يكن دونها في كل شيء .

— لا بد لها الآن أن تلبية إذا دعا وأن تذعن لقبلاته أو تتأبى ضاحكة ولكنه يعد يسعها أن تعبث به كما تشاء . ولم يبق لها إلا أن تحتمل وتطيع كالرقيق .

كيف حدث هذا ؟ — ذلك مالم تستطع له فهما . لقد كانت أبداً وعليه سلطانها وكانت تطيق التفاتاته وغزله وكان كل شيء رضياً للبدأ مثيراً كالعادة . ثم جاءت لحظة اتقد فيها كيانها كله وغشي ذهنها مثل الضباب ولم

تبق إلا الرغبة المجنونة فى الاندفاع إلى الهاوية . كأنما انشقت الارض تحت قدميها ولم تعد تحكم أعضاءها أو تشعر الا بعينين جاذبتين تحملقان فى عينيها وهزت العاطفة جثمانها وعصفت به وراحت ضحية الشهوة العالية . على أنها مع ذلك شاقها أن تتكرر هذه التجارب العاصفة . ولما مثل لخاطرها كل ذلك ارتجفت فرفعت كتفيها وخبأت وجهها فى راحتيها ومضت إلى غرفتها متعثرة وفتحت النافذة ولبثت لحظة طويلة ترمق القمر وكان طالعا فوق الحديقة — وثم بين الاشجار النائية بلبل يغنى .

وجثم على صدرها الحزن ونال منها الإحساس بالندامة وبانجراح الكبرياء للقضاء على حياتها من أجل رجل فارغ سخيف ولأن زلتها كانت حمقاء حقيرة عرضية . وبدا لها المستقبل منذرا بالشر ولكنها عالجت أن تنفى عن نفسها المخاوف بالمكابرة .

وقالت لنفسها وهى عابسة محاولة أن تجد شيئاً من الارتياح فى هذه العبارة المبتذلة .

« لقد فعلتها وقضى الأمر ! ما أسخف هذا كله ! لقد أردت ذلك فكان ما أردت . وأحسست بسعادة يالها من سعادة ! وكان من الحمق أن لا استمتع وقد سنحت لى الفرصة . إلا أنه لا ينبغى لى أن افكر فى الأمر . فما من حيلة فيه الآن » .

وابتعدت فى تثاقل عن النافذة وشرعت تخلع ثيابها تاركة إياها تزل عن جسمها إلى الأرض وقالت وقد أرعشها برد الليل لما أصاب كتفيها وذراعيها العارية .

« إن الإنسان على كل حال لا يحيا إلا مرة . وماذا كان ينفعنى أن انتظر حتى أتزوج زواجا شرعياً ؟ ماذا كان يفيدنى هذا ؟؟ سيان هذا وذاك ، فماذا هنالك مما يزعج ؟ »

وخيل إليها فجأة أنها بهذه المخاطرة اعتصرت كل اللذة ومتعة وخير . وأنها قد صارت الآن حرة كالطير وأنها مقبلة على حياة حافلة بالحوادث مليئة من السعادة واللذة .

« سأحب إذا شئت . وإذا لم اشأ لم اعشق ! » .

هكذا غنت نفسها بصوت خافت وفي ذهنها أن صوتها خير من صوت سينا كرسافينا وأحلى .

« كل هذا كلام فارغ ! وأن لي إذا شئت أن القى بنفسي في أحضان الشيطان نفسه ! »

وكذلك كانت ترد على ما يخالجها من الخواطر وذراعاها العاريتان فوق رأسها وثدياها يهتزان .

وحمل النسيم إليها صوت سانين يقول لها من وراء النافذة :

— « ألم تنامى باليدا ؟ »

فتراجعت ليدا فزعة ثم سترت كتفيها بوشاح وهي تدنو من النافذة باسمة وقالت :

— « لقد أفزعتني والله ! » .

فدنا منها سانين واتكأ بذراعيه على حافة النافذة وكانت عيناه تلمعان وثغره يفتر وقال مداعباً لها :

— « لم تكن ثم من حاجة إلى هذا » .

فتلفتت ليدا حولها وعاود الكلام بصوت منخفض مؤثر فقال :

— « لقد كنت بغير هذا الوشاح أجمل » .

فحملقت ليدا فيه مذهولة وشدت الوشاح على جسمها فضحك سانين ومالت هي الأخرى على حافة النافذة وهي مرتبكة وصارت منه بحيث كانت تحس أنفاسه على خدها . فقال :

— « واهاً لك من جميلة ! » .

فأوسلت إليه نظرة عجلى وأخذها الخوف مما خيل إليها انها تقرؤه في وجهه وأحست كل جارحة في جسمها أن عيني أخيها ترشقانها فلوت وجهها مستقطعة . وبلغ من استهوالها خواطرها وتقززها منها أن كاد قلبها يجمد . إن كل رجل ينظر إليها هذه النظرة وهي ترتاح إلى ذلك . فأما أن يفعل أخوها هذا فمستحيل لا يحتمل التصديق . على أنها مالبثت أن ثابت إليها نفسها فقالت مجيبة :

« نعم أعلم ذلك » .

وراقبها سانين في سكون وكان الوشاح والقميص قد زلا عن كتفيها لما انحنت على النافذة وبدأ صدرها الرقيق ملتمعا في ضوء القمر فقال سانين بصوت خافت مرتعش :

— «إن الناس لا يزالون أبداً يقيمون سورا من أسوار الصين بينهم وبين سعادتهم » .

فبهتت ليدا وسألته وعيناها إلى الحديقة مخافة أن يلتقى طرفها وطرفه :

— « وماذا تعنى ؟ » .

وخيل إليها أن سيحدث شيء لا تجرؤ على التفكير فيه وعلى أنها لم يخالجها شك في ماهيته — شيء رهيب فظيع إلا أنه لذيذ فالتهبت ذهنها وعادت وما تكاد تبصر وظلت واقفة مستيشعة مستغربة وهي تحس النفس الحار على خدها يعبث بشعرها ويرسل الرعدة في جسمها .

فقال سانين وصوته يرتجف :

— « ماذا أعنى ؟ هكذا ! » .

فكأنما أصابت ليدا هزة كهرباء ففزعت إلى الوراء ومالت على المنضدة وهي لا تدرك ما تصنع ونفخت الشمعة فانطفأت وأغلقت النافذة وقالت :

— « لقد آن أن أنام » .

ولما انطفأ النور خفت الظلمة خارج الغرفة وظهر شخص سانين في الحديقة واضحا بارزا وأكسب ضوء القمر قسمات وجهه شيئاً من الزرقة وهو واقف بين الحشائش الطويلة المطلولة يبتسم .

وانصرفت ليدا عن النافذة وجلست على السرير وهي ترجف من فرعها إلى قدمها وعجزت عن جمع خواطرها وتنظيمها وسمعت وقع قدمى سانين على الحشائش فزاد خفقان قلبها وجعلت تسأل نفسها وهي مكروبة :

— « أتراني جننت ؟ ما أفظع هذا ؟ كلمة كهذه لعلها قيلت عرضا تحرك في ذهني مثل هذه الخواطر ؟ ؟ أترى هذا جنون ؟ الشهوة ؟ هل وصلت الى هذا

الدرك من السفالة والانحطاط ؟ لقد هويت حقا إذا كان يجرى ببالى مثل هــذا الخاطر ! » .

ودفنت وجهها فى الوسادة وبكت بكاء مرا .

ثم سألت نفسها مستغربة علة البكاء شاعرة بالذلة والمهانة والشقاوة — « لماذا أبكى ؟ » .

بكت لأنها بذلت نفسها لسارودين — لأنها لم تعد تلك العذراء النقية النبيل المزهوة الشامخة الأنف — وبكت من جراء تلك النظرة الفظيعة المهينة التى رماها بها أخوها . ولم يكن عهدها به فيما مضى أن ينظر إليها هكذا . وإنما فعل هذا — فى رأيها — لأن قدمها زلت فسقطت .

ولكن أوجع مامر بها من الخواطر وأمرّها جميعاً هو أنها أصبحت الآن امرأة ! وأنها لايسعها الآن — مادام لها صباها وقوتها وحسنها — إلا أن تجعل خير مامنحت تحت أقدام الرجال ووقف على إرضائهم وأنها على قدر المتعة التى تبذلها لهم يكون مبلغ احتقارهم لها .

فسألت نفسها محملقة فى ظلام الغرفة :

— « لماذا يحتقروننى ؟ من خولهم هذا الحق ؟ أليس لى من الحرية مثل مالهم سواء بسواء ؟ هل قضى على أن لا أعرف حياة غير هذه وخيرا منها ؟ » .

فقال لها جسمها بلسان الصبا والقوة أن لها الحق أن تقطف من الحياة كل ما هو ممتع وسار ولازم لها وأن لها أن تصنع ما تشاء بجسمها الجميل القوى الذى هو ملكها وحدها دون سواها .

ولكن هذه الفكرة ضاعت فى تيه من الخواطر المختلطة المتضاربة .

(٨)

ظل « يورى سفاروجتش » مدة يشتغل بالتصوير وكان كافياً يصرف فيه كل أوقات فراغه . ولقد كان يحلم فى ما مضى من عمره أن يكون مصوراً ولكن الحاجة إلى المال — أولا — ومشاغله السياسية — ثانياً — حالت

دون ذلك فصار يعالج التصوير من حين إلى حين على سبيل اللهو وبلا غاية يرمي إليها .

ولهذا السبب — ولأنه ينقصه التدريب — لم يجسد في التصوير مثلاً ترضي نفسه . بل صار على عكس ذلك مصدر حسرة ومبعث خيبة . وكان كلما أخفق فيه يكتئب ويهيج وإذا وفق فيما يعالجه منه سبح في بحر من التفكير السامي وتجسم له عبث مساعيه التي لا تنيله لا السعادة ولا النجاح .

وكان يوري قد كلف « بسينا كارسافينا » وكان يؤثر من النساء الطويلة المنسجمة الجميلة الصوت التي تمور عينها بسحر الخيال . وكان يتوهم أنه ما جذبه إليها سوى جمالها وطهر روحها وإن كان لم يدفعه إلى تعلقها شيء سوى أنها جميلة مرغوبة . على أنه حاول أن يقنع نفسه بأن سحرها الذي يحسه روحي لا جثماني إذ كان يظن أن هذا أنبل وأرفع وإن كانت هذه الطهارة العذرية بعينها هي التي ألهبت دمه وأثارت رغبته . وما زال مذاقها مساء لأول مرة يحس بحنين قوي وشوق ملح غامض إلى تلويث طهارتها : والواقع أن هذا كان إحساسه كلما رأى امرأة حسناء .

والآن وقد تعلقت خواطره فتاة جميلة مرحة مليئة بلذة الحياة فقد بدا له أن يصور « الحياة » . وتحمس لهـذه الفكرة كما هي عادته كلما عنّ له رأى جديد . وراح يعتقد أنه في هذه المرة سيوفق إلى النجاح .

وبعد أن أعد لوحاً كبيراً مضى في العمل بسرعة المحموم كأنما يخشى أن يعطله معطل . وما كاد يلمس اللوح ببعض الألوان ويخرج من تواليفها أثراً سارا متجاوبا حتى اهتز سروراً وتمثلت لخياله الصوره المزمعة بكل تفاصيلها ولكنه لما توغل في العمل نشأت المصاعب الفنية وتعددت وأحس يوري أن لا قبل له بتذليلها وعاد كل ما هو براق جميل قوي في مخيلته هزيلا ضعيفاً على اللوح ولم تعسد تفتنسه التفاصيل بل راح يلاقي منها البرح والضيق والكرب . والواقع أنه أغفلها وأنشأ يتوخى في

الرسم الإجمال والإهمال والسرعة . وبدل أن تخرج يداه صورة قوية واضحة للحياة ارتسمت على اللوح أتت فاترة متقاة بالألوان لا ينسجم عليها هندام، ولم يكن ثم شيء فاتن أو مبتكر في مثل هذه الصورة الفاترة المكررة . إن هو إلا رسم تافه في فكرته وفي أدائه . فاكتأب يوري كالعادة .

ولولا أنه استحيا لأمر ما أن يبكي لبكى ولأخفى وجهه في الوسادة وراح يعول . ولقد أحس الحاجة إلى أن يبث بعض الناس شكواه ولكن ليس من عجزه وقصور باعه . على أنه لم يفعل ، بل جعل يرمق الصورة متحسراً ذاهباً إلى أن الحياة على العموم ضنى وشجى وضعف وأنها خالية مما يلذه . وراعه أن يفكر في أنه سيكون عليه أن يقضي سنين عدة في هذه البلدة الصغيرة .

وابترد جبينه كالثلج وهو يقول لنفسه :

« إن هذا هو الموت بعينه ! »

ثم اشتاق أن يصور « الموت » وأمسك سكيناً وشرع وهو حنق يكشط صورة « الحياة » وغاظه أن ما صنعه بمثل تلك الحماسة يزول بمثل هذه الصعوبة ، ولم يسهل عليه أن ينزع الألوان . ولقد أفلتت السكين ومزقت اللوحة في موضعين ، ثم وجد أن الطباشير لا يخلف أثراً على ألوان الزيت فملأه هذا ضيقاً .

ثم إنه شرع يعمل بالفرشة ويخطط موضوعه وجعل بعد ذلك يرسم في بطء وقلة احتفال وبلا روح . غير أن عمله لم يخسر بذلك شيئاً بل أفاده هذا التثاقل والإهمال والأخذ بالألوان الخفيفة الرازحة . واختمرت فكرته الأولى وذهب يصور « الشيخوخة » فجعلها عجوزاً هزيلة مطرحة في طريق وعر وقد غابت الشمس واحلولك السماء وارتمت ظلال الصلبان وانحنى كتفا المرأة الهرمة وقتان تحت ثقل نعش أسود . وارتسمت على وجهها الكآبة واليأس وإحدى قدميها على حافة قبر مفتوح — صورة مرعبة للشقاء والخواء .

وأرسلوا إليه يدعونه إلى الطعام ولكنه لم يذهب وظل يشتغل .

ثم جاءه نوفيكوف ليبلغه أمراً، غير أنه لم يصغ اليه ولا رد عليه .
فتنهد نوفيكوف وجلس .

وكان نوفيكوف يحسب السكون وإجالة الفكر فيما مر به وما جاء به إلى يوري : إلا أن الوحدة في بيته ترمضه .

وكان رفض ليدا أن تتزوجه لايزال يحزنه ولم يكن يدري أحزن ما به ألم المذلة .

وكان رجلا مستقيما متبطلا ، ولم يتصل به ما يتحدث به الناس عن ليدا وساروجين ولم يكن يحس الغيرة بل الأسف على حلم لم يكد يلمح له بالسعادة حتى انمسح .

وخطر لنوفيكوف أنه أخفق في حياته ولكنه لم يفكر في اختصارها وإن كان البقاء عبثاً . بل على نقيض ذلك رأى من واجبه الآن وقد صارت حياته عذابا له أن يقفها على الناس ، وأن ينحي سعادته ويطرحها جانباً . ونازعته نفسه لسبب لا يدريه أن ينفض يده من كل شيء في هذه البلدة وأن يمضي إلى بطرسبرج حيث يستطيع أن يجدد علاقته « بالحزب » وأن يهجم على الموت . وقام في نفسه أن هذه فكرة سامية نبيلة ولطف من حزنه علمه أن هذه فكرته . بل لقد شرحت صدره ، فضخم شأنه وعظم مقامه . في نظر نفسه ، وكأنما صار على مفرقه تاج من الذهب الوهاج . وكان موقف العتب الذي اتخذه خيال ليدا يدفعه الى البكاء .

ثم أحس الملال فجأة يدب في نفسه وكان « يوري » ماضياً في التصوير لا يلقي إليه التفاتة .

فنهض نوفيكوف متثاقلا ودنا من الصورة ولم تكن قد تمت ، ولهذا كان لها وقع الصورة القوية .

وكان يورى قد بلغ حد طاقته فاعتدها نوفيكوف آية وهو ينظر اليها وفمه مفتوح معجباً بالمصور إعجاب الطفل .

وتراجع يورى وقال : «مارأيك» .

وكان رأيه أنها أمتع صورة رآها وإن كان لاشك فى أن فيها عيوبا جلية كبيرة . ولم يكن يدرى لماذا كان هذا رأيه . ولو أن نوفيكوف استسخفها لجرحه ذلك وآلمه .

على أن نوفيكوف قال هامساً فرحا : « بديعة جداً » .

وأحس يورى كأنه عبقرى يستخف بعمله فتهدورى الفرشة فلوثت طرف المخدع وانصرف عن اللوح دون أن ينظر اليه وقال مبتدئاً :

— « آه ياصديقى ! » .

وهم بأن يعترف لنفسه ولنوفيكوف بالشك الذى ينغص كل سرور بالنجاح إذ كان يحس أنه لن يستطيع أن يتم هذه البداية الحسنة ، غير أنه بعد التفكير لم يزد على أن قال :

— « كل هذا لاطائل تحته »

فظن نوفيكوف أن صاحبه يتكلف ، وذكر ما لقيه هو من الخيبة المرة فحدثه نفسه أن هذا صحيح .

ثم سأل بعد برهة :

— « ماذا تعنى بقولك إن هذا لا طائل تحته ؟ »

ولم يستطع يورى أن يجيب عن هذا جواباً دقيقاً فبقى صامتاً .

وعاد نوفيكوف إلى الصورة يفحصها وجلس مرة ثانية ثم قال :

— « قرأت مقالات المشورى فى جريدة « كراى » وأراه حار ! »

فأجابه يورى مغضباً لغير سبب يعلمه وذكر كلام سمينوف :

— « إن الشيطان بها ! أى خير فيها ؟ انها لن تمنع الإعدام ولاالسرقات

ولا العنف . وستظل هذه كما كانت . إن المقالات لاتجدى . ما خيرها بالله ؟ أن يقرأها اثنان أو ثلاثة من البلهاء ؟ خير عظيم حقاً ! ! ومع ذلك فما شأنى أنا بهذا ؟ لماذا أنطح الجدار برأسى ؟ »

وتسربت الذكرى لعينى يورى مساعيه السياسية فى صدر أيامه وممثلت له الاجتماعات السرية والدعوة التى كان يعمل على اذاعتها وبثها ، والأخطار والإخفاق وحرارة حماسته وبلادة من كانت الرغبة تجمع به إلى إنقاذهم ، فجعل يروح ويجيء فى الغرفة مشيراً بيديه .

فقال نوفيكوف :

« لا . إذاً ليس ثم ما يستحق من المرء أن يفعل شيئاً فى سبيله» .

وذكر سانين فأضاف إلى ذلك :

— « أنانيون ! هذا أنتم جميعاً ! »

فأجابه يورى بحدة وقد تأثر بذكريات ماضيه وبالغسق الذى أحال لون كل شيء فى الغرفة :

— « كلا ليس هذا كذلك ، إذا ذكرنا الإنسانية فأى خير فى كل جهودنا المبذولة فى سبيل الدساتير أو الثورات ،إذاكان المرء يعجز عن تقدير ماتحتاج إليه الإنسانية حتى على وجه التقريب ؟ وما يدرينا ؟ لعل فى هذه الحرية التى نحلم بها جرثومة الانحطاط فى المستقبل ولعل الإنسان بعد أن يتحقق مثله الأعلى يكر راجعا القهقرى ويمشى على أربع . وهكذا يكون علينا أن نبدأ كل شيء من جديد . وهبنى لا أكترث إلا لنفسى فماذا إذاً ؟ ماذا أستفيد بذلك ؟ إن أقصى ما يبلغنى إياه طوقى هو أن أنال الشهرة بمواهبى وأعمالى ، وأن يسكرنى احترام من هم دونى أى احترام من لا أحترمهم ، ومن ينبغى أن يكون احترامهم لا قيمة له **عندى** . ثم ماذا ؟ أظل عائشاً — عائشاً إلى أن أبلغ القبر — ثم لا شيء بعد ذلك ! ويعتدل إكليل الغار على جمجمتى ،ويبلغ من فرط إحكام لفه عليها أنى لا ألبث أن أحس منه الضيق والكروب ! »

قال نوفيكوف متهكما ولم يسمعه يورى لفرط سروره بفصاحته :
ـــ « نفسه أبداً ! »

وكان لكلامه سهوم لذيذ فى نظره، وكان ما يقوله يشرفه ويزيد فى احترامه لنفسه وعاد فقال :

ـــ « وشر ما فى الأمر أن أصير عبقرياً يسىء الناس الحكم عليه ـــ مثلاً مضحكاً ، ومدارا للأقاصيص الفكاهية، وشخصاً سخيفاً لا خير فيه لأحد » .

أ فصاح نوفيكوف وهو ينهض :

ـــ « آها ، لا خير فيك لأحد ؟ أو تقر بهذا إذاً ؟ »

فقال يورى :

ـــ « تالله ما أسخفك ! أو تظن أنى لا أعرف ماذا ينبغى أن أحيا له وبم أومن ؟ من المحتمل أن أقبل بسرور أن أصلب إذا اعتقدت أن موتى ينقذ العالم ويخلصه . ولكنى لا أعتقد هذا . ومهما يكن ما أصنع فلن يغير من مجرى التاريخ . أضف إلى ذلك أن معونتى من الهوان والضآلة بحيث لا يخسر العالم شيئاً لو أنى لم أكن . بيد أنى ـــ من أجل هذه الذرة من المعونة ـــ مكره أن أعيش وأن أتعذب وأن أنتظر الموت فى حزن ! »

ولم يلاحظ يورى أنه اندفع يتكلم فى أمر آخر، وأنه لا يرد على نوفيكوف بل على هواجسه الغريبة المحزنة .

ثم ذكر سمينوف فجأة فسكت وسرت فى ظهره رعدة باردة وقال بصوت منخفض وهو ينظر إلى النافذة المظلمة :

ـــ « الحقيقة أنى أخشى الموت . وأنى لأعلم أن هذا طبيعى ، وأنه لا يسعنى أن أفر منه . ولكنه على هذا رهيب ـــ مهول »

فقال نوفيكوف وإن كان قد هاله صدق هذا الكلام :

— « إن الموت ظاهرة فسيولوجية لازبة » .

فقال يورى لنفسه :

— « ياله من خرف ! »

ثم صاح بنوفيكوف وهو مغضب :

— « ماذا يهم إذا كان موتنا لازما لغيرنا أوغير لازم ؟ »

فقال نوفيكوف : « وما قولك فى رضاك أن تصلب ؟ »

فأجاب يورى ببعض التردد .

— « هذا شيء آخر » .

فقال نوفيكوف بلهجة فيها بعض التعالى :

— « إنك تناقض نفسك » .

فتضايق يورى ودفع أصابعه فى شعره الأسود المضطرب وقال بحدة :

— « إنى لا أناقض نفسى أبداً ! إذ من المعقول أنى إذا شئت أن أموت بمحض إرادتى الحرة . . . . »

فقاطعه نوفيكوف معانداً وبنفس اللهجة :

— « كل هذا سواء . وأنتم جميعاً تطلبون السهام النارية والتصفيق وما إلى ذلك . وليس هذا إلا أنانية ! »

قال يورى : « هبها كذلك ! إن هذا لايغير المسألة » .

وصارت المناقشة مختلطة . وأحس يورى أنه لم يرد أن يقول هذا ولكن الخيط أفلت منه بعد أن كان عنده واضحاً محدداً منذ برهة فجعل يقطع الغرفة رائحاً جائياً . محاولاً أن يغالب غيظه وهو يقول لنفسه :

«إن المرء أحياناً ينقصه المزاج المناسب . وأحياناً أخرى يتكلم بجلاء كأنما الألفاظ مخطوطة أمام عينيه . وأنا أحياناً أكون كالملجم فلا أحسن العبارة عما في نفسي — نعم هذا كثيراً ما يقع» .

وصمت كلاهما ، ثم وقف يوري بجانب النافذة وتناول قبعته وقال :

— «دعنا نتمشى»

أجاب : «حسن جداً»

ووافق نوفيكوف وفي مأموله أن يلاقي ليدا وسره أمله وأحزنه في آن .

(٩)

ذهب يوري ونوفيكوف يتمشيان في الميدان ولم يقابلا أحداً يعرفانه فأخذا يستمعان إلى فرقة الموسيقى التي كانت تعزف كالعادة في الحديقة وكان عزفها ضعيفاً وألحانها خشنة متنافرة .

ولكن صوتها كان شجيا هادئا عن بعد . ولم يريا إلا رجالا ونساء يتمازحون ويضحكون ، وكانت ضوضاء سرورهم لا تناسب الموسيقى الحزينة والليل المتجهم فأمض ذلك يوري .

وانضم إليهما سانين في آخر الميدان وحياهما محتفلا وكان يوري لا يحبه ففتر الحديث .

وراح سانين يضحك من كل مخلوق تقع عليه عينه .

ثم قابلوا إيفانوف فمضى معه سانين .

وسألهما نوفيكوف

— «أين تذهبان ؟»

فقال إيفانوف :

— « أريد أن أشارب صديقى »

وأخرج زجاجة « فودكا » لوح لها بها مباهيا .

فضحك سانين .

وذهب يورى يعد هذا الضحك والفودكا فى الحضيض الأوهد من عامية النفس وخشونتها ولوى وجهه عنهما مشمئزا .

ولاحظ سانين ذلك منه ولكنه لم يقل شيئاً .

ولكن إيفانوف قال متهكما :

« أحمدك اللهم إذ لم تجعلنى كغيرى من الناس ! » .

فاحمر وجه يورى وقال لنفسه :

— « ونكتة مبتذلة أيضاً تضاف إلى سابقتها ! » .

وهز كتفيه استخفافا وانصرف .

وقال إيفانوف :

— « نوفيكوف ! أيها الفريسى الغرير تعال معنا ! » .

فسأله — « لماذا ؟ » .

فرد عليه — « لنشرب » .

فأدار نوفيكوف عينه فى المكان متحسراً . ولكن ليدا لم يكن لها أثر .

فضحك سانين وصاح به : « إن ليدا فى البيت تكفر عن ذنوبها ! » .

فقال نوفيكوف مغضبا :

— « ما هذه السخافة ؟ إن على أن أعود مريضاً ... » .

فأجاب سانين :

— « يستطيع أن يموت بدون مساعدتك ! ونحن نستطيع أن نشرب الفودكا بدون معونتك أيضاً » .

فقال نوفيكوف لنفسه « ولنفرض أنى سكرت ! » .

ثم التفت إليهم وقال :

— « حسن . سأذهب معكما » .

وكان يورى يسمع عن بعد صوت إيفانوف الضخم الخشن وضحكة سانين الجذلة المستخفة فعاد يتمشى فى الميدان وأهابت به ظلمة الليل أصوات فتيات ندية .

وكانت سينا كارسافينا ودوبوفا المدرسة جالستين على مقعد وهما فى ثياب قاتمة ، ورأساهما عاريان ، وفى أيديهما كتب يحملانها ، ولم يكن يسهل أن يراهما المرء فى الظلام .

فأسرع يورى ولحق بهما وسألهما :

— « أين كنتما ؟ »

فقالت سينا :

— « فى المكتبة » .

وتحركت رفيقتها دون أن تتكلم لتفسح مكانا ليورى .

وكان يود لو جلس بجانب سينا ولكنه لخجله جلس إلى جانب دوبوفا المدرسة الدميمة .

وسألته دوبوفا :

— « ما لوجهك فيه كل آيات التعاسة ؟ » .

وضمت شفتيها الجافتين كما هى عادتها .

فرد عليها : — « ماذا يحملك على الظن بأنى تعس ؟ إنى على العكس منشرح الصدر . وربما كنت سأمان قليلا » .

فقالت دوبوفا :

— « إن علة مللك أن لا عمل لك » .

قال — « أو لديك أعمال كثيرة إذاً ؟ » .

قالت — « مهما يكن من الأمر فليس عندى وقت للبكاء » .

قال — « أتريدنى أبكى ؟ » .

فقالت دوبوفا مكايدة : — « إن بك نوبة سهوم » .

قال يورى : بلهجة فيها من المرارة ما ألزمهم الصمت ،

— « إن حياتى أنستنى الضحك كيف يكون» .

ثم عاد إلى الكلام بعد فترة .

— « لقد أخبرنى صديق لى أن فى حياتى عبرة كبيرة » .

وإن كان لم يقل له أحد مثل هذا الكلام .

فسألته سينا بحذر :

— « وكيف ؟ » .

أجاب يورى : « هى مثال يريك كيف لا يعيش المرء » .

فقالت دوبوفا :

— « حدثنا عنها بالله لعلنا نستفيد من الدرس »

وكان يورى يرى أن حياته إخفاق مطلق وأنه هو أتعس الناس وأشقاهم. وفى هذا الاعتقاد نوع من السلوى الشجية فكان يلذ له أن يبث الناس شكاته من حياته ومن الناس على العموم . ولم يكن يحدث الرجال بشىء من هذا ، إذ كان يشعر بغريزته أنهم لن يصدقوه . أما النساء — لا سيما الشواب الجميلات منهن — فكان على أتم استعداد للإسهاب معهن فى تحديثهن عن نفسه .

وكان يورى وسيما محدثا ، ولم يعدم قط من النساء العطف عليه والمرثية له .

فشرع يحدثهما متفكها فى أول الأمر ، غير أنه لم يلبث أن عاودته

نغمته المألوفة فأطال فى الكلام فى نفسه ويظهر مما قال أنه رجل ذو مواهب عظيمة سحقتها قوة الظروف ، وأساء فهمها حزبه وقضى عليه نحس الطالع وحماقة الناس ألا يكون أكثر من طالب منفى لا زعيم أمة .

وكان يورى ككل الراضين عن أنفسهم لا يستطيع أن يدرك أن هذا ليس من شأنه أن يثبت عظم مواهبه ، وأن ذوى العبقرية يلتف بهم مثل رفقائه وتعترض سبيلهم مثل هذه الكوارث والمصائب ، ولكنه كان يتوهم أنه هو وحده فريسة قدر لا يرحم .

ولما كان محدثا بارعاً وكان فى كلامه قوة وحياة فإن ما يقوله كان يكتسب رنة الصدق ، فتصدقه الفتيات ويعطفن عليه . ويشاطرنه الأسى لما نزل به .

وكانت الفرقة لا تزال تعزف ألحانها الحزينة المتنافرة والليل حالك ثقيل الظل فاكتأبوا جميعاً . ولما كف يورى عن الكلام سألته دوبوفا وهى تفكر فى حياتها المملة الفاترة وصباها البائد قبل أن تدرى ما الطرب أو الحب :

— « قل لى يا يورى ؟ ألم تخطر لك فكرة الانتحار ؟ » .

أجاب : — « لماذا تسأليني هذا ؟ » .

قالت : — « لا أدرى لماذا ؟ » .

وصمتوا جميعاً .

ثم سألته سينا بشيء من التلهف :

— « إنك عضو فى اللجنة . أليس كذلك ؟ » .

فأوجز يورى فى الجواب مجمزئا « بنعم » .

كأنه يريد أن يعترف بهذه الحقيقة ولكنه فى الواقع سره أن يعترف لأنه ظن ذلك يزيد اهتمام الفتاة به .

ثم رافقهما إلى بيتهما وجعلوا يضحكون جميعاً ويتحدثون كثيراً طول الطريق ، وانقشعت عنهم سحابة الكآبة .

ولما انصرف يورى قالت سينا :

— « ما ألطفه » .

فهزت دوبروفا أصبعها متوعدة .

— « حاذرى أن تقعى فى حبه » .

فقالت سينا : « أى خاطر هذا ؟ » .

وضحكت وإن كان الخوف قد خامرها .

ووصل يورى إلى بيته وهو أكثر انشراحاً وأعظم أملا ، وذهب إلى الصورة التى كان قد بدأها وجعل يتأملها فلم يجد لها فى نفسه وقعاً ما ، فاستلقى ونام راضياً مطمئناً ، وبدت له فى أحلامه نساء جميلات متأنقات مغريات .

(١٠)

وفى الليلة التالية عاد يورى إلى نفس المكان الذى التقى فيه بسينا وزميلتها وكان نهاره كله يفكر مسروراً فيما جرى له معهما من الحديث فى الليلة السابقة .

فراح يرجو أن يلقاهما مرة أخرى وأن يحدثهما كما فعل ، وأن يرى فى عينى سينا الرقيقتين نظرة العطف والحنو التى أنس بها فى ليلته تلك .

وكان المساء ساكناً والجو دافئاً والأتربة الخفيفة ثائرة ، والميدان خاليا إلا من واحد أو اثنين من السابلة .

فسار يورى وعيناه إلى الأرض ، وجعل يخاطب نفسه قائلا :

— « ما أشد ملالى . ماذا أصنع ؟ »

وإنه لكذلك وإذا بشافروف الطالب يغذ السير ويطوح بذراعيه ثم دنا منه وعلى وجهه ابتسامة الودود وسأله :

« مالك تمشى وئيدا ؟ »

فقال يورى بلهجة فاترة فيها شىء من التعالى :

— « لقد كاد يقتلنى الملل ولا أدرى ماذا أصنع . وإلى أين ؟ »

وكان لا يكلم شافروف إلا بهذه اللهجة لأنه عضو سابق فى اللجنة الثورية أما شافروف فما هو فى نظره إلا فتى ثورى حديث العهد . فابتسم شافروف ابتسامة الرضى عن النفس وقال :

« ستلقى اليوم محاضرة »

وأشار إلى حزمة من الرسائل مطوية فى ملف ملون .

فتناول يورى إحداها وفتحها وقرأ المقدمة الطويلة الخالية لخطبة اشتراكية مشهورة كان يعرفها ثم نسيها الآن .

فسأله يورى — « وأين تلقى هذه المحاضرة ؟ »

ورد إليه الرسالة وعلى فمه ابتسامة الاستخفاف .

أجاب شافروف :

فى « المدرسة »

وكانت هى عين المدرسة التى تدرس فيها سينا كرسافينا ودوبوفا .

فذكر يورى أن أخته ليداليا حدثته مرة عن هذه المحاضرات ولكنه لم يجعل باله إليها ، فسأله . « أتسمح لى أن أرافقك ؟ »

أجاب « بلاشك »

وأظهر السرور بهذا الاقتراح وكان يعد يورى مهيجا صميا ويبالغ فى تقدير كفاءته السياسة ويكبره ويحبه .

وأحس يورى أن لابد له من أن يقول :

— « إنى عظيم الاهتمام بهذه الشئون »

وسره أن عرف كيف يقضى ليلته وأنه سيلاقى سينا مرة أخرى

فقال شافروف : « نعم تهتم بلا ريب »

أجاب : « إذن فلننهض »

وسارا مسرعين في الميدان واجتازا الجسر ، وصافحهما من جانبيه الهواء الليلي ولم يلبثا أن بلغا المدرسة حيث كان الناس قد اجتمعوا .

وكانت القاعة مظلمة وقد صفت فيها المقاعد والأدراج وبدا القماش الأبيض المعد للمصباح السحري . وكان المرء يسمع أصوات الضحك المكتوم .

ووقفت ليالينا ودوبرو فا عند النافذة ومنها كان الناظر يستطيع أن يرى أغصان الأشجار الخضراء وعليها من الظلام جهامته ، فحيتا يوري فرحتين

وقالت ليالينا :

— « ما أعظم سروري بحضورك ! »

وهزت دوبروفا يده بشدة .

فقال يوري مستفهما وأدار لحظه فيمن حوله لعله يرى شيئا :

— « لماذا لا تبدأون ؟ »

ثم قال وفي صوته دليل صريح على خيبة أمله :

— « أرى سينا لا تحضر هذه المحاضرات »

وأشعل بعضهم في هذه اللحظة عود كبريت قريباً من منضدة المحاضر ، فبدت في نوره قسمات سينا وأضاء محياها النضير الجميل وكانت تبتسم في سرور ، فقالت وانحنت ليوري ومدت إليه راحتها . . . .

— « ألا أحضر هذه المحاضرات ؟ »

فصافحها مسروراً دون أن يتكلم .

واتكأت شي قليلا ووثبت إلى جانبه فأحس تمسها العذب المنعش على خده

وجاء شافروف من الغرفة المجاورة وقال :

— « قد آن أن نبدأ »

فسار الخادم يخطي تقيلة طائفاً بالغرفة . وأوقدا مصابيحها واحداً بعد واحد فشاع في الحجرة نورها

وفتح شافروف الباب المؤدي إلى الممر وقال بصوت عال :

— « تفضلوا من هنا » .

فدخل الناس وكان بهم فى أول الأمر بعض الحياء ثم ماعتموا أن حثوا الخطى فى جلبة وضوضاء .

وجعل يورى يفحص وجوههم ولما كان من مروجى الدعوة السياسية فقد تحركت نفسه واشتد اهتمامه .

ودخل الحجرة شيوخ وشبان وأطفال لم يجلس منهم أحد فى الصف الأول فشغلته سبع سيدات لا يعرفهن يورى وإلى جانبهن مفتش المدارس واساتذة المدارس الابتدائية للبنين والبنات ومعلماتها وغصت بقية القاعة بلابسى الجلاليب والمعاطف الطويلة وبالجنود والملاحين والنساء وبكثير من الأطفال فى قمصان ملونة عليها جاكتات واسعة .

وجلس يورى بجانب سينا إلى درج وأصغى إلى شافروف وهو يتلو فى سكون — أردأ تلاوة — خطابا موضوعه حق الانتخاب العام .

وكان صوته جافا مملا فما قرأ شيئاً إلا خيل إلى سامعه أنه قائمة احصاءات .

ولكن الناس أنصتوا مع هذا ماخلا المتعلمين الجالسين فى الصف الأول .

فسرعان ماقلقوا وراحوا يتهامسون .

فساء يورى هذا منهم وأدركه العطف على شافروف والأسف لرداءة القائه وكان هذا قد بدا عليه التعب فقال يورى لسينا :

— « ماقولك فى أن أنوب عنه ؟ » .

فرمته بنظرة رقيقة من تحت أهدابها المرسلة . وقالت :

— « نعم . نعم افعل ذلك . بودى لو فعلت » .

فهمس فى أذنها مبتسما لها كأنما كانت شريكته :

— «أترين فى هذا ضيراً ؟ » .

فقالت : « ضير ؟ كلا . كلنا حقيقون أن نغتبط » .

وسنحت فترة فعرضت ذلك على شافروف وكان قد نال منه التعب ولم يكن يغيب عنه سوء القائه فقبل مسرورا وأخلى مكانه ليورى وقال :

— « بلاشك . حباً وكرامة » .

وكان يوري مولعاً بالالقاء بحسنه ويجيده فتقدم إلى المنضدة دون أن ينظر إلى أحد وشرع يتلو بقية المحاضرة بصوت عال متزن .

وسدد لحظه إلى سينا مرتين . والتقت عينه في كل منهما بعينها المتألقة الفصيحة . فابتسم لها مسرورا مرتبكا ثم رجع إلى كتابه واستأنف القراءة بصوت أعلى وأقوى وكان كأنما يباشر عملا ليس أسمى منه ولا أمتع ولما فرغ صفق له الجالسون في الصفوف الأولى فانحنى لهم يوري في أدب ووقار وانصرف عن المنضدة وهو يبتسم لسينا كأنما يريد أن يقول لها : « لقد فعلت هذا من أجلك »

وتهامس الناس قليلا ثم تجاوبت الحجرة بضوضاء الكراسي لما دفعها الجالسون عليها إلى الوراء وهم ينهضون عنها .

وقدم يوري إلى سيدتين هنأتاه بحسن القائه .

ثم أطفئت المصابيح وعادت الغرفة مظلمة .

وقال شافروف وهو يهز كف يوري بحرارة :

— « أشكرك كثيراً . وبودي لو أن لنا دائما من يلقي مثلك » .

وكانت المحاضرة شغل سافروف فأكبر صنيع يوري وطوق نفسه بفضله كأنما كان أحسن إليه في أمر يخصه وإن كان قد جعل شكره باسم الشعب . وألح سافروف في ذكر « الشعب » وجعل يؤكد لفظه ويميل كأنما يودع يوري سراً خطيراً :

— « إنهم لا يصنعون هنا شيئاً للشعب فإذا هم فعلوا فيدون أكرات أو احتفال . وغريب أمرهم ! يأتون بطائفة مختارة من خير الممثلين والمغنين والمحاضرين ليتلهى بهم المتطاولون من السادات . وأما الشعب فهي محاضر مثلى الكفاية . كل امرء راض . فسماذا يطلبون فوق هذا ؟ » .

وافتر ثغره سروراً بتهكمه الرقيق .

فقالت دوبوفا :

ـــ « هذا صحيح . والصحف تفرد أعمدة برمتها للممثلين ولأعمالهم العجيبة . إن هذا مثير حقا . أما هنا ... » .

فقال شافروف باقتناع وهو يجمع أوراقه :

« ولكن ما أصلح عملنا وأنفعه ؟ » .

فقال يورى لنفسه :

« يالها من غرارة كغرارة الأطفال ؟ » .

ولكن وجود سينا وما وفق إليه هو من النجاح جنحا به إلى التسامح . والواقع أن بساطة شافروف وسذاجته وقعا من نفسه وأشعراه بعض العطف عليه .

ولما صاروا فى الشارع سألتهم دوبوفا :

ـــ « والآن أين تذهب ؟ » .

وكان الظلام فى الشارع مثله فى الحجرة ولم يكن فى السماء إلا بضعة نجوم مضيئة .

وقالت دوبوفا ليورى :

ـــ « أنا وشافروف ذاهبان إلى أسرة راتوف فهل لك أن ترافق سينا إلى المنزل ؟ » .

أجاب : ـــ « بسرور » .

وكانت سينا ودوبوفا يسكنان بيتاً واحداً قائما وسط حديقة كبيرة مجدبة المنظر .

وكان حديث سينا ويورى أثناء رواحهما دائراً حول المحاضرة ووقعها فى نفوس السامعين .

فزاد اقتناع يورى بأنه أتى عظيما وفعل شيئاً جيداً .

ولما بلغا البيت قالت سينا :

— « هل لك أن تمكث معى برهة ؟ » .

فقبل يورى مسروراً وفتحت الباب واجتازا الفناء المعشوشب وكانت الحديقة تلوه . فقالت سينا ضاحكة :

— « اسبقنى إلى الحديقة . ولقد كان بودى أن أدخلك المسكن ولكنه ليس على ما ينبغى من النظافة والنظام فإنى لم أعد منذ زايلته فى الصباح ».

ودخلت البيت ومضى يورى مترباً إلى الحديقة الخضراء الأرجة ولم يوغل فيها بل وقف يلتفت فى أرجائها ويحدق فى نوافذ البيت المظلمة كأنما قام بنفسه أن شيئاً يجرى هناك — شيئاً غريباً جميلا غير مفهوم — وبرزت سينا إلى عتبة الباب ولكن يورى لم يكد يعرفها وكانت قد نضت ثوبها الأسود وارتدت ثوب « الروسيا الفتاة » وهو صدرية إلى الخصر قصيرة الأكمام ينسدل من تحتها إلى الساقين قميص أزرق فقالت باسمة :

— « هذا أنا » .

فأجابها يورى رفى صوته نبرة توكيد لا يقدرها غيرها :

— « وكذلك أراك » .

فابتسمت ثانياً ونحت عينيها عنه وهما يسيران بين الحشائش الطويلة وأغصان الليلاج . وكانت الأشجار صغيرة وأكثرها أشجار توت لأوراقها الصغيرة رائحة الصمغ . ومما يلى الحديقة مرج متفتحة فيه الأزاهير بين الحشائش .

فقالت سينا :

— « دعنا نجلس هنا » .

فجلسا إلى جانب السور المتداعى وجعلا يتأملان الشفق الزائل من وراء المرج ، وتناول يورى عود ليلاج صغير فتساقطت عنه الأنداء .

وسألته سينا : « هل أغنيك ؟ » .

أجاب : «نعم غني !» .

فأصعدت سينا نفساً عميقاً كما فعلت ليلة النزهة وبرزت معالم صدرها البديع تحت صدريتها الرقيقة وهي تغنيه :

« آه يا نجم الحب الوضيء »

وسبحت ألحانها النقية الحارة في جو المساء .

وظل يوري جامداً يرمقها ويحبس أنفاسه أن تطغى بصدره .

وأحست هي أنها قيد لحظه فأغمضت عينيها وانطلقت تغنى أعذب غناء وأحره .

وكان السكون شاملا محيطاً كأن كل شيء يصغى ، ومثل في خاطر يوري سكون الغابات الرهيب في الربيع إذا ما غرد بلبل .

وكانت خاتمة غنائها نغمة صافية عالية غادرت السكون أتم وأشد .

وكان الشفق قد زال وأمست السماء حالكة مهولة وارتعشت الأوراق والحشائش من حيث لا تراها عين ، وهب على المرج وجاز الحديقة نسيم أرج خفيف كالزفرة .

فأدارت سينا عينيها المتألقتين في الظلام إلى يوري وقالت :

« مالك صامتاً ؟ » .

أجاب : « ما أجمل هذا المكان » .

وتناول عود ليلاج ندى آخر .

فقالت سينا بهيئة الحالم : « نعم إنه جميل » .

فقال يوري :

— « جميل جداً أن يعيش المرء » .

وطاف برأسه خاطر غامض مقلق ولكنه لم يلبث أن زال قبل أن يستبين ويتضح .

وصفر بعضهم صفرتين عاليتين على الناحية الأخرى من المرج .

ثم سكتت كل نأمة فقالت سينا فجأة وقد سرها على ما يظهر هذا السؤال الذى لم يكن من داع له :

— « أتحب شافروف ؟ » .

فأحس يورى ألم الغيرة لحظة ولكنه أجاب بتؤدة بعد جهد لطيف :

— « إنه رجل طيب » .

فقالت : « ما أعظم انقطاعه لعمله » .

فسكت يورى وتصاعد من المرج ضباب رقيق أشهب وحال لون الحشائش تحت الندى .

وقالت سينا وهى ترتجف قليلا :

— « لقد اشتدت الرطوبة » .

فنظر يورى إلى كتفيها الرقيقتين المستديرتين واضطرب فجأة .

وأحست هى بنظرته فسرت إليها عدوى الاضطراب وإن كان قد سرها ما لاحظت وقالت :

— « لنقم من هنا » .

وعادا أدراجهما آسفين وقطعا ممشى الحديقة الضيق وكانا يحتكان أحياناً وهما سائران : وكل ما حولهما مظلم مهجور . وخيل إلى يورى أن ستبدأ حياة الحديقة الآن — حياة مستسرة مجهولة — وأن ستتسلل بين الأشجار وترتمى على الحشائش المثقلة بالأنداء ظلال غريبة من أحلولك الظلام ،وأن أصواتاً ستتهامس فى الخضر الساكن من أرجائها .

وأفضى إلى سينا بهذا الخاطر فشخصت بعينيها السوداوين إلى الظلام

وهى تفكر وقام فى نفس بورى أن « سينا » لو نضت عن جسمها كل أرديتها وانطلقت تعدو على الحشائش المطلولة إلى حيث تتكاثف الأشجار — وهى عارية بيضاء جذلة — لما كان فى هذا شيء من الغرابة . بل أخلق به أن يكون أمراً طبيعياً حسن الوقع . وليس من شأن هذا الحادث — إذا وقع — أن يزعج حياة الحديقة الخضراء المظلمة ولعلها تستوفى به حاجتها ونازعته نفسه أن يسر إليها بهذا الخاطر ولكن شجاعته خانته فتحدث إليها عن الحاضرات والشعب ولكن الحديث كان مقطع الأوصال ثم كفا عن الكلام كأنما ضنا بالألفاظ أن يسوقاها عبثاً .

وهكذا وصلا إلى الباب وهما صامتان باسيان ينفضان باكتافهما الندى عن الأغصان .

وكان كل شيء ساكناً مفكراً سعيداً مثلهما .

وكان الفناء مظلماً مهجوراً كما ألفياه من قبل . ولكن الباب الخارجى كان مفتوحاً وتأدى إليهما من البيت وقع أقدام مسرعة وصوت أدراج تفتح وتقفل فقالت سينا :

— « لقد عادت أوجا » .

وسألت دوبوفا من البيت :

— « سينا ! أهذا أنت ؟ ؟ » .

وكان فى نبرة صوتها ما ينعر بوقوع أمر سيء وبرزت إلى الباب مضطربة حائلة اللون . وقالت وأنفاسها منبهرة :

— « أين كنت ؟ لقد كنت أبحث عنك . إن سميتوف يموت ! » .

فصاحت سينا فزعة :

— « ماذا تقولين ؟ » .

أجابت : « نعم يموت . فقد انفجر أحد أوعية الدم . ويقول أناتول بافلوفتش أنه مقضي عليه . وقد حملوه إلى المستشفى . وكان كل ذلك بسرعة مرعبة . فقد كنا في بيت راتوف نشرب الشاي وكان المسكين جذلا يجادل نوفيكوف في كل مسألة . ثم أخذه السعال فجأة فنهض وتطرح ونفث الدم على كساء المائدة وفي طبق المربى ... والدم أسود سائل » .

فسألها يوري باهتمام ساهم :

« وهل هو يعرف ذلك ؟ » .

وذكر الليلة القمراء والظل الحالك والصوت الضعيف المتقطع يقول له « ستكون حياً وتمر بقبري وتقف عليه وأنا . . . » .

فقالت دوبوفا وعلى يديها حركة عصبية :

— « نعم يظهر أنه يعرف . فقد دارت بنا عينه وسألنا « ما هذا ؟ » ثم أخذته الرعدة من فرعه إلى قدمه وقال : « أو قد قضي الأمر ؟ » : أليس هذا فظيعاً ؟ » .

فقال يوري : — « هذا أهول مما يطاق ! » »

وصمتوا جميعاً .

وكان الظلام الآن حالكاً . ومع أن السماء صافية فقد توهموا فيها الكآبة والحزن .

ثم قال يوري ووجهه أصفر :

— « الموت شيء فظيع » .

فتنهدت دوبوفا ونظرت إلى الفضاء . وارتعشت ذقن سينا وابتسمت وهي لا تملك غير ذلك ولم تستطع أن تحس ما أحساه من الهول . وهي غادة في عنفوان الصبا يجول في عودها ماء الحياة الدافق ولا يسعها أن تحصر

خواطرها فى الموت . ولم يكن مما يصدقه خيالها أو يقوى على تصوره أن يعذب أحد ويموت فى ليلة صيفية جميلة وضيئة كهذه . نعم إن الموت طبيعى لا شك فيه ، ولكنه لسبب ما خطأ . وأخجلها هذا الإحساس فعالجت أن تنميه وأن تظهر على قسمات وجهها دلائل العطف . وراحت بفضل هذا الجهد وهى أظهر أسى من صاحبيها وسألت :

— « مسكين ! أهو حقيقة . . . . . . ؟ » .

وكانت تريد أن تسأل «هل سيموت عاجلا ؟ » .

ولكن الألفاظ وقفت فى حلقها .

وجعلت تلقى على دوبوفا أسئلة فارغة مفككة .

فقالت دوبوفا بصوت فاتر :

— « إن أناتول بافلوفتش يقول إنه سيموت الليلة أو غداً صباحاً » .

فهمست سينا :

« أولا نذهب إليه ؟ أم تريان أن البقاء خير ؟ لا أدرى ! » .

وكان هذا السؤال يدور فى أذهانهم جميعاً — أيذهبون ويشهدون سمينوف وهو يقضى نحبه؟ أيكون هذا خطأ منهم أم صواباً — ورغبوا جميعاً فى الذهاب ولكنهم أشفقوا مما عسى أن يشهدوا .

فهز يورى كتفيه وقال :

« فلنذهب . ومن المحتمل جداً أن لا يأذنوا لنا وربما . . »

فأضافت دوبوفا كأنما ارتفع عن كاهلها عبء :

— « ربما طاب سميتوف أن يرى بعضهم على الخصوص »

فقالت سينا بلهجة باتة :

— « تعالوا بنا ! سنذهب »

وقلت دوبوفا وكأنها تريد أن تسوغ الأمر لنفسها :

— « إن شافروف ونوفيكوف هناك » .

وعدت مينا إلى البيت لتعود بقبعتها ومعطفها ثم مضوا جميعاً فى وجوم مخترقين البلدة إلى البناء الضخم الأشهب ذى الأدوار الثلاثة أى المستشفى الذى كان سميتوف يجود فيه بأنفاسه .

وكانت الممرات الطويلة ذات الأقبية مظلمة تتصاعد منها رائحة اليودوفرم والكاربوليك .

ومروا فى طريقهم بقسم المجانين فسلك أسماعهم صوت ثائر أجش ، ولكنهم لم يروا أحداً ففزعوا ومضوا الخطى إلى نافذة صغيرة معتمة .

وجاء إليهم فلاح هرم شائب الرأس واللحية وعلى صدره « فوطة » كبيرة وقدماه فى حذائين عاليين ضخمين يدب بهما على الأرض ، فسألهم ووقف :

— « من تريدون أن تعودوا ؟ » :

فقالت دوبوفا متلجلجة :

— « جيء بطالب إلى هنا — سمينوف — اليوم ! » :

فقال الخادم :

— « رقم ٦ فى الدور الثانى » .

وتركهم وسمعوه يتمخط ويبصق على الأرض ثم يدهس البصاق بقدمه .

وكان الدور الثانى أضوأ وأنظف ولم تكن بالسقف عقود ورأوا باباً مفتوحاً مكتوباً عليه « حجرة الطبيب » ولمحوا فيها مصباحاً يضيئها وسمعوا أصوات الزجاجات والأكواب .

فأدخل يورى رأسه ونادى من فيها فانقطعت الأصوات .

وظهر ريازانتزيف نضير الوجه مسروراً كعادته وقال بصوت طروب إذا كان قد ألغى هذه الحوادث التى أحزنت زائريه :

ــ « آه إن دورى اليوم . كيف أنتم سيداتى ؟ » :

ثم قطب فجأة وقال بلهجة جادة كبيرة الدلالة :

ــ « إنه لايزال غائباً عن رشده على مايظهر . فلنذهب اليه إن نوفيكوف وغيره هناك » .

وساروا واحداً وراء الآخر فى الممر الضيق النظيف وإلى يمينهم ويسارهم أبواب بيضاء عليها أرقام سوداء وقال ريازانتزيف :

ــ ولقد أرسلنا فى طلب القسيس : ماأسرع ماجاءت الخاتمة ! إنى مستغرب ! ولكنه أصيب ببرد كما تعلمون وهذا هو الذى قضى عليه . هذه هى الغرفة » .

وفتح ريازانتزيف باباً أبيض ودخل منه وتبعه الآخرون يتصادمون على العتبة .

وكانت الغرفة نظيفة رحيبة . وفيها أربعة أسرة خالية وعلى كل منها غطاؤه الخشن مطوياً يحضر فى الذهن صورة النعش . وفى السرير الخامس رجل هرم ضئيل الجسم جاف العود جالس يلحظ الداخلين وعلى السرير السادس سميونوف وفوقه غطاء خشن كذلك . وإلى جانبه نوفيكوف منحنياً إليه . على حين كان إيفانوف وشافروف واقفين عند النافذة .

وكانوا كلهم يرون من الأمور الغريبة المؤلمة أن يتصافحوا فى حضرة رجل يموت وربكم أن لايفعلوا كأن فى ترك المصافحة إشارة إلى أن المنتهى قريب . فسلم البعض وامتنع الآخرون ووقفوا جميعاً يرمقون سميونوف بعيون مستفسرة

وكان يتنفس ببطء وجهد . وما أبعده عن سميونوف الذى يعرفونه ، والواقع أنه لم يكن كالأحياء . وقد ظلت معارفه وأوصاله ولكنها صارت متصلبة مشدودة فظيعة المنظر . وكأن ذلك الذى يصب الحياة والحركة فى أجسام الآدميين غيره لم يعد له وجود . وكأن أمراً مرعباً يجرى بسرعة وتكتم فى هذا الجسم الجامد — أمراً مهماً لا سبيل إلى إرجائه وكأنما لم يبق له من الحياة إلا تلك القوة المشتغلة بهذا العمل المتفرغة لاتمامه باهتمام حاد لا يناله التفسير .

وكان المصباح المدلى من السقف يصب ضوءه على وجه ذلك المائت . وكل من فى الغرفة يتنزه النظر ويعلق أنفاسه كأنما يخشى أن يزعج شيئاً رهيبا . فكانت أنفاس المريض المحشرجة المخنوقة — وسط هذا السكون — واضحة وضوحاً مرعبا

وفتح الباب ودخل قسيس بدين قصير يسير بخطى قصيرة ضعيفة ومعه المرتل وهو رجل أسمر هزيل ودخل معهما سانين وسعل القسيس سعالا خفيفا وانحنى للطبيبين وللحضور فردوا عليه بأدب مبالغ فيه ثم عادوا إلى الصمت التام .

أما سانين فلم يحفل باله إلى أحد . ومضى إلى النافذة ومن ثم أخذ يرصد سميونوف والحاضرين جميعاً منقباً فى سرائرهم معالجا أن يستكشف من الوجوه ما يحسه المريض ومن حوله ويفكرون فيه فى الواقع .

وظل سميونوف جامداً يتنفس كما كان .

وقال القسيس فى رفق غير موجه سؤاله إلى أحد على التعيين .

— « إنه غائب عن رشده . أليس كذلك؟ » .

فأسرع نوفيكوف وأجابه : « نعم » .

وتمتم سانين شيئاً غير مفهوم فنظر إليه القسيس مستفسراً غير أن سانين ظل صامتاً فصرف القسيس وجهه عنه ومسح شعره ورده إلى الوراء ولبس عباءته وشرع ينشد التراتيل للميت بصوت عال شجي .

وكان صوت صاحبه المرتل ضخماً خشناً ثقيلاً فصار الصوتان المختلفان مؤلمين في تنافرهما وهما يتصاعدان إلى السقف العالي .

ولم يكد الترتيل يبدأ حتى اتجهت كل العيون في فزع إلى ذلك الذي يموت .

وكان نوفيكوف أدنى إليه فخيل إليه أن جفون سمينوف اختلجت قليلاً كأنما تحرك من تحتها الإنسانان المكفوفان في اتجاه الغناء . أما الآخرون فلم يروا إلا أن سمينوف بقي بلا حراك كما كان من قبل .

ولم يكد الترتيل يبدأ حتى بكت سينا بكاء ساكناً ملحاً وانهمرت الدموع على محياها النضير الجميل . فتحولت إليها العيون وشرعت دوبوفا تبكي كذلك وجالت العبرات في عيون الرجال ولكنهم قرضوا أسنانهم ليمنعوا الدموع أن تسيل . وكانت الفتيات كلما علا الترتيل يزددن نحيباً . فعبس سانين وهز كتفيه حنقاً وجعل يقول لنفسه : ما أخلق سمينوف أن لا يطيق — إذا سمع — هذا العويل الذي يكرب نفس الأصحاب ثم قال للقسيس في غيظ :

— يخفض من صوتك ! » :

فمال القسيس إليه ليسمع ما يقول فلما فهم معناه قطب وزاد في صوته علواً . وحملق رفيقه في سانين ورماه الجميع بنظرهم كذلك وبهم مزيج من الخوف والدهشة كأنه قال شيئاً يسوء فأعرب سانين عما به من الضيق بإيماءة ولم ينبس . .

ولما انتهى من الترتيل وطوى القسيس الصليب في عباءته ألح الانتظار على النفوس بالألم .

وكان سمينوف متصلباً جامداً كالعهد به .

ثم طاف بأذهان الجميع فجأة خاطر فظيع لا سبيل إلى مغالبته ونفيه .

« أما لو أنه انتهى الأمر بسرعة ! لو أن سمينوف يعجل بالموت ! » .

ولكن الخوف والخجل دفعاهم إلى كتمان هذه الرغبة والاكتفاء بتبادل النظرات الضعيفة .

فقال سانين بصوت منخفض :

— « أما لو انتهى كل هذا ! فظيع . أليس كذلك ؟ » .

فأجابه إيفانوف :

— « نعم » .

وكان كلامهما همسا ومن الجلى أن سمينوف لم يكن يستطيع أن يسمعهما غير أن الحاضرين بدت عليهم إمارات الاشمئزاز والاستفظاع .

وهم شافروف أن يقول شيئاً ولكن صوتاً جديداً شاكياً لاسبيل إلى وصف ماانطوى عليه من ألم — دوى فى الغرفه وأرسل الرعدة فى الموجودين .

ذلك أن سمينوف أخرج هذا الصوت :

« اى...... اى...... اى...... » .

وكأنما اهتدى إلى طريقة يطلبها للتعبير والنطق فمضى يخرج هذا الصوت المسطوط لايعوقه الا نفسه المحشرج المخنوق .

ولم يدرك الحضور فى أول الأمر ماذا حدث له .

ولكن سينا ودوبوفا بكتا .

واستأنف القسيس ترتيله فى بطء واحتفال وظهرت على وجهه السمين الطيب دلائل العطف والانفعال .

ومضت دقائق . وكف سمينوف فجأة عن التوجع . وهمس القسيس أن قد قضى الأمر

ثم حرك سمينوف ببطء وبجهد جاهد شفتيه المصمتتين وتقبض وجهه كأنما يبتسم وسمع النظارة صوتاً أجوف منكراً يخرج من أعماق صدره وكأنه خارج من نعش — يقول :

— « أيها الشيخ الأحمق ! » .

وعيناه تنظران شزراً إلى القسيس وشاعت الرعدة في جسمه ودار حملاقاه كالمجنونين في كهفيهما وتمطى ...

وسمعوا جميعاً كلماته الثلاث ولكن لم يتحرك منهم أحد وغاضت — لحظة — من وجه القسيس السمين الرطب آية الحزن وتلفت حوله في قلق غير أن لحظه أخطأ كل عين .

وكان سانين وحده يبتسم .

وحرك سمينوف شفتيه ثانيا غير أنه لم يخرج منهما صوت واسترخى أحد شاربيه الخفيفين وتمطى مرة أخرى وصار في رأى العين أطول وأقطع . وانقطع كل صوت وكل حركة . ولم يبك أحد الآن . فقد كان نزول الموت أهول من ترنيقه وكأنما كان من الغريب المصحب أن ينتهي منظر مفشت كهذا بمثل تلك السرعة والبساطة .

فظلوا برهة وقوفاً إلى السرير يتأملون معارف وجهه المينة الناتئة وكأنهم يتوقعون أن يحدث شيء جديد وراحوا — لكي ينبهوا في نفوسهم الإحساس بالهول والمرثية — يرقبون نوفيكوف وهو يغمض أجفان الميت ويضع له يديه على صدره .

ثم خرجوا في سكون وحذر . وكانت المصابيح قد أضيئت في الممر وبدا لهم كل شيء مألوفاً فخلصت أنفاسهم .

وكان القسيس أول الخارجين فمضى بخطوات قصيرة وأراد أن يقول شيئاً على سبيل العزاء للإيضاع من الحاضرين فتنهد وقال بصوت رقيق :

— « وآسفاه ! إنه لأمر محزن جداً ! وفى مثل هذا الشباب أيضاً .
وآسفاه ! ومن الواضح أنه مات غير تائب ولكن الله رحيم » :

فقال شافروف وكأنه يليه متوخيا الأدب :

— « نعم : نعم . بالطبع » .

فسأل القسيس :

— « أتعرف أسرته ماحدث » .

فأجابه شافروف :

— « لست أدرى » .

ونظر بعضهم إلى بعض فى دهشة واستغربوا واستقبحوا أن لا يعرفوا من هم أهل الميت .

وقالت سينا : « أظن أخته فى المدرسة العالية » .

فقال القسيس :

— « آه حسن ! والآن عموا مساء » .

ورفع قبعته قليلا بأصابعه السمينة .

فقالوا جميعاً بصوت واحد .

— « عم مساء ! » .

ولما بلغوا الشارع تنهدوا كأنما تخلصوا . وسألهم شافروف :

— « أين نذهب ؟ » .

وبعد تردد قليل ودع بعضهم بعضا ومضى كل فى طريقه .

(١١)

لما رأى سمينوف الدم الذى نفث وأحس الفراغ الرهيب فى نفسه ومن حوله : ولما احتملوه ومضوا به ووضعوه وقاموا له بكل ما كان يفعله

هو فى حياته — حينئذ أيقن أنه سيموت وعجب كيف لا يشعر بأقل فزع من الموت .

وقد قالت دوبوفا : إنه ريع لأنها هي نفسها ريعت وتوهمت أنه لما كان الصحيح المعافى يرهب الموت فلابد أن يكون المحتضر أعظم فزعا واستهوالا له . وحسبت اصفراره وشرود نظرته — وهما نتيجة الضعف وخسارة الدم — دليلا على الخوف . ولكن الأمر لم يكن كذلك فى الواقع .

وكان سميونوف يخاف الموت أبدا ويفرق منه لا سيما منذ عرف أنه مصاب بالسل . وكان فى أول مرضه نهب الفزع وفريسة الذعر شأنه فى ذلك كشأن المحكوم عليه بالإعدام ضاع كل رجاء فى العفو عنه . وكاد يصور له الرعب أن الدنيا لم يعد لها وجود منذ تلك اللحظة وأن كل مستملح جميل سار قد اختفى وزال وأن ما حوله يموت ويقضى نحبه وأن كل لحظة بل كل ثانية قد تكر عليه بالفزع الذى لا يسعه طوق والمستهول كالهاوية السحيقة السوداء الفاغرة . وكان الموت يتمثل له كالهاوية الهائلة المظلمة كالليل . وكانت هذه الهاوية أبداً ماثلة لعينه حيثما ذهب . وفى ظلامها الكثيف يختفى كل صوت وكل لون وكل إحساس . وأخلق بمثل هذه الحالة النفسية أن تكون مرعبة ولكنها لم تطل وصار سميونوف كلما أحس به الداء وأوجف على مر الأيام يزيد الموت فى نظره بعداً وغموضا والتياثا .

واسترد ما حوله من الأصوات والألوان والعواطف قيمته الأولى عنده وعادت الشمس تشرق كأضواء ما كانت . ورأى الناس يباشرون أعمالهم كالعادة وأحس هو مثلهم أن ثم أموراً خطيرة وأخرى تافهة ينبغى له أن يعالجها . وصار يقوم فى الصباح ويتحرى العناية فى غسل وجهه ويتناول غذائه ويستمرئه أو لا يستمرئه كسابق عهده ويجد الغبطة بالشمس تطلع والقمر ينير والضيق بالمطر والرطوبة كما كان . ويلعب البليارد مساء مع نوفيكارف وغيره ويقرأ الكتب ويستجيد بعضها ويستسخف البعض ويسر ذلك كعهده قديماً .

وضايقه – بل آلمه فى أول الأمر – إن كل شىء ظل على حاله لم يلحقه تغيير فحاول أن يبدل هذا الحال بأن يدفع الناس إلى الاهتمام له والاكتراث لموته وأن يكرههم على أن يقدروا موقفه المفزع وأن يدركوا أن الأمر قد قضى : غير أنه كان كلما أفضى إلى إخوانه بهذا يعود فيرى أنه لم يكن ينبغى له أن يفعل ذلك وكانوا يعجبون أولا ثم يتشككون ويذهبون إلى الريب فى دقة تشخيص الطبيب للمرض . ثم جعلوا يتوخون آخر الأمر أن يتقوا غضاضة وقع المسألة بأن يغيروا موضوع الكلام ويحولوا مجرى الحديث . وهكذا ألفى سميتوف نفسه يحادثهم فى كل شىء ما خلا الموت .

ثم نزعت نفسه إلى العزلة وأن يخلو أبداً بنفسه وأن يتعذب مستفرداً إذ كان حيز إدراكه قد استغرقه القضاء المنتظر . غير أن كل شىء بقى على حاله كما ظلت حياته وأوساطه كما كانت فبدا له أن من الخرف أن يتصور أن الأمر يمكن أن يكون على خلاف ذلك أو أنه هو سيصبح ولا وجود له وصار خاطر الموت أقل لذعا بعد إذ كان جرحا عميقاً . ووجدت روحه المكروبة حريتها وتعددت لحظات النسيان التام وانبسطت أمامه وجوه الحياة رائعة اللون والحركة والصوت .

ولم يعد يطوف بنفسه إحساس الهاوية السوداء إلا وهو وحده ليلا . فكان بعد أن يطفىء المصباح يرى شبحا مسيحا لا شكل له ولا معارف يشارفه شيئاً فشيئاً فى الظلام ويهمس فى أذنيه « شش . . شش » بلا انقطاع فيجاوبه صوت يشبع كأنه خارج من جوفه ويحس أنه صسائر بعض هذا الهمس وهذه الهيولى ويرى حياته فيها لهيباً واتيا محتضرا قد ينطفئ فى أى لحظة :

فاعتزم أن يدع المصباح يضىء الغرفة الليل كله وكانت هذه الهمسات تنقطع فى الضوء والظلمة تنسخ . وفارقه إحساسه بأنه معلق على فوهة هاوية

بالغرفة لأن النور أشعره وجود ألف شيء تافه مألوف في حياته كالكراسي والنور والدواة وقلميه ورسالة لم يتم كتابتها والحذاء الذي نسي أن يتركه خارج الغرفة وغير ذلك من الأشياء اليومية المحيطة به .

على أنه مع ذلك كان يسمع همسات صادرة عن أركان الغرفة التي لم ينرها ضوء المصباح فتغفر الهاوية فاها له . فكان يعرق من النظر إلى الظلام بل من التفكير فيه لأنه كان إذا فعل تكتنفه الحلوكة المزعجة وتحجب عن عينه المصباح وتخفي العالم كأنما أضمره ضباب بارد كثيف . وكان هذا هو الذي يعذبه ويفزعه حتى لكان يحس الحاجة إلى البكاء كالطفل أو أن ينطح الحائط برأسه .

ولكنه ألف هذه الإحساسات والهواجس على مر الأيام وكلما دنا من الموت . ولم تكن تلح به وتطغى إلا إذا أذكره مذكر — من كلمة أو إعادة أو منظر جنازة أو قبر — أنه هو أيضاً لا محالة ميت فآلى — لكي يتقي هذه النذر — أن لا يسير في سكة تؤدى إلى المقبرة وأن لا ينام على ظهره ويداه مطويتان على صدره .

وكأنما كانت له حياتان : حياته الأولى الرحيبة المفهومة وهذه لا تتسع لخاطر الموت بل تغضي عنه إذ كانت في شاغل من شئونها وهي متعلقة بالأمل في البقاء أبداً كائنا ما كان ثمن ذلك — وحياة أخرى مستمرة غامضة غير معينة تقرض — كالدودة في التفاحة — قلب حياته الأولى وتسمها وتجعلها غير محتملة .

وهذا الازدواج في حياة سعينوف هو الذي جعله لا يكاد يحس أي فزع لما واجه الموت وأيقن أن المنتهى قريب . فلم يزد على أن سأل « أو قد قضي الأمر ؟ » ليعرف على وجه التحقيق ماذا يجب أن ينتظر .

ولما قرأ في وجوه من حوله جوابهم عن سؤاله عجب للموت كيف يكون على هذه البساطة كأنه مهمة ثقيلة أرهقت قواه وأدرك في الوقت نفسه بنوع

من الإلهام الباطن أنه لا يمكن أن يكون إلا هكذا وأن الموت نتيجة طبيعية لاستنزاف حيويته ولم يتحسر على شيء سوى أنه لن يرى شيئاً بعد ذلك .

ولما احتملوه فى المركبة إلى المستشفى جعل يحملق وعيناه مفتوحتان كل الفتح محاولا أن يأخذ كل شيء بنظرة وأسف لأنه لا يستطيع أن يثبت فى ذاكرته كل دقيق وجليل فى هذه الدنيا بسمائها اللانهائية وأناسها وخضرتها وآفاقها القصية الزرقاء وصار كل ما لم يكن قد فطن إليه حبيباً إلى نفسه عزيزاً عليها ككل ما كان يجده حافلا بالجمال والخطر الجليل لا بل أحب من أن يناله وصف وأقوم من أن يفى ببيانه تعبير . فمن السماء القاتمة المترامية ونجومها الوهاجة إلى ظهر السائق الهزيل ومن وجه نوفيكوف المكتئب إلى الطريق المترب ومن المنازل ونوافذها المضيئة إلى الأشجار الجهمة التى ظلت مكانها وراءهم فى صمت . ومن العجلات المضطربة إلى نسيم العشى اللين — كل أولئك رآه وسمعه وأحسه .

ولما صار فى المستشفى دارت عيناه بسرعة فى الغرفة الكبيرة ورصدتا كل حركة وشخص حتى صرفهما الألم الجثمانى الذى أشعره العزلة المطلقة عما حوله . وانحصرت مداركه فى صدره منبع كل آلامه — ثم أخذ فى بطء شديد يفارق الحياة وصار إذا رأى شيئاً يستغربه ولا يرى فيه معنى . . فقد بدأ الصراع الحاسم بين الحياة والموت واكتظ به كل كيانه وخلق له عالما جديداً غريباً موحشاً — عالما من الفزع والألم والصراع اليائس .

وكانت تعاوده من حين إلى حين لحظات انتباه وإفاقة فينقطع الألم ويهدأ ويعمق تنفسه وتستبين الشخوص والأصوات من خلال النقاب الأبيض . غير أن كل شيء كان ضعيفا وباطلا كأنه آت من مكان سحيق . وكان يسمع الأصوات واضحة ثم لا يتبينها أما الأشخاص فلم يكن لحركاتها صوت كأنها أشباح الصور المتحركة وأنكر الوجوه التى كان يعرفها ولم يستطع أن يذكرها .

وكان على السرير المجاور له رجل له وجه حليق غريب يقرأ شيئاً ويرفع الصوت به. لماذا يقرأ؟ ولمن يقرأ؟ لم يعن سمينوف بالتفكير فى هذا. وسمع بأجلى وضوح أن الانتخابات البرلمانية أوجلت وأن بعضهم حاول أن يقتل غراندوقا — ولكن الألفاظ كانت فارغة لا معنى لها كأنها الفقاقيع انفجرت وزالت ولم تخلف وراءها أثراً.

وتحركت شفتا الرجل والتمعت أسنانه ودارت عيناه وخشخشت الورقة وأضاء المصباح المدلى من السقف ودارت حوله فراشات كبيرة سوداء فظيعة المنظر. وكأنما اشتعل فى ذهن سمينوف شيء فأنار كل ما يحيط به وأحس فجأة أنه لا يعنيه شيء وأن كل ما فى الدنيا من قوة لا يستطيع أن يطيل حياته ساعة واحدة وأنه لا بد أن يموت. فهوى مرة أخرى فى أمواج الضباب الحالك وعاد الصراع الصامت بين قوتين هائلتين خفيتين تحاول إحداهما بأقصى ما أوتيت من العنف أن تقضى على الأخرى.

وكانت إفاقة سمينوف للمرة الثانية لما سمع البكاء والترتيل فلم ير وجه الحاجة إلى هذا إذ كان لا صلة له بما هو جار فى جوفه على أن ذلك أضاء ذهنه لحظة فرأى بوضوح وجه رجل مزيف الكآبة لا يعنيه من أمره شيء على الإطلاق. وكانت هذه آخر دلائل الحياة.

أما ما تلا ذلك فيتجاوز مدى الفكر والإدراك.

(١٢)

قال إيفانوف لسانين:

— « تعالى عندى نحيى ذكرى الفقيد ».

فهز سانين رأسه دلالة على الموافقة واشتريا فى طريقهما شيئاً من الفودكا

وانخفض وأدركا يورى وكان يتمشى مستمهلا فى الميدان وعلى وجهه كآبة شديدة .

وكان موت سميتوف قد وقع من نفس يورى موقعاً أليماً مزعجاً رأى معه من اللازم أن يحلله وإن كان قد أعجزه ذلك فقال لنفسه محاولا أن يرسم خطاً مستقيما قصيراً فى ذهنه :

— « إن الأمر بسيط على كل حال . لم يكن الإنسان موجوداً قبل أن يولد وليس فى هذا شيء مفزع أو غير مفهوم . والإنسان ينتهى وجوده متى مات . وهذا — كسابقه — بساطة وسهولة إدراك فالموت . وهو الوقوف التام للأداة التى تخلق القوة الحيوية ، فهمه ميسور على أتم وجه وليس فيه ما يفزع الخاطر ولقد غبر زمن كان فيه غلام اسمه « يورا » ذهب إلى الكلية وضارب زملاءه وكان يتلهى ويروح عن نفسه بأن يقطع رءوس الأشواك ويقضى حياته الخاصة الممتعة على النحو الخاص به . وقد مات « يورا » هذا وذهب فى سبيل من خلا وحل محله رجل آخر عشى ويفكر هو الطالب « يورى » . ولو أنهما التقيا لما وسع « يورا » أن يفهم « يورى » ولعله عقته ورى فيه أستاذاً مربياً محمله مالا آخر له من المتاعب . لهذا كان بينهما جون يتعاظم الجتاز . ولهذا أيضاً أرى أنى أنا قد قضيت نحبى بموت الغلام « يورا » وإن كنت لم أفطن لهذا من قبل . هذا هو واقع الأمر . وإنه لطبيعى بسيط ! وماذا يخسر الإنسان بأن يموت ؟ ؟ إن الحياة على كل حال يرجح فيها الشقاء بالسعادة . نعم إن لها مسراتها وما أتمنى أن ينفض المرء يده منها ! ولكن الموت يرعنا من كثير من البلايا والشرور فنحن فى نهاية الأمر نستفيد به ونربح من ورائه . ما أبسط هذا وأقل عناصر الفزع فيه ! ! أليس كذلك ؟ ؟ » .

قال يورى آخر جملة بصوت عال وتنفس الصعداء غير أنه فزع فجأة فقد طاف برأسه خاطر لداع .

« كلا ! عالم بأسره ، حافل بالحياة ، معقد الأمر إلى حد يتجاوز المدارك ، هذا العالم يحول فجأة إلى عدم ؟ ؟ كلا ! ليس هذا في شيء من تطور الغلام « يورا » وصيرورته الرجل « يورى » أن هذا سخيف مثير وهو لذلك مفزع غير مفهوم ! » .

وجاهد يورى بكل ما استطاع من قدرة أن يكون لنفسه فكرة عن هذه الحالة التي لا يرى أحد أن في الطوق احتمالها والتي يحتملها كل أمرىء على الرغم من ذلك كما فعل سمينوف .

وعاد يورى إلى مخاطبة نفسه وهو يبتسم لغرابة الخاطر فقال :

— « ولم يمت خوفا مع ذلك ! كلا ! لقد كان يضحك منا جميعاً ويهزأ بقسيسنا وتراتيلنا وعبراتنا . ألا كيف وسع سمينوف أن يضحك وهو موقن أنه بعد دقائق لا يكون ؟ ؟ أتراه كان بطلا ؟ كلا ! ليست المسألة مسألة بطولة . إذا فالموت ليس من الهول بحيث أتوهم ! » .

وأنه لكذلك وإذا بايفانوف يحييه فجأة بصوت مرتفع فسأله يورى وهو يرجف :

— « آه ! هذا أنت ! أين تراك ذاهب ؟ » .

فقال ايفانوف بجذل وحشى :

— « إلى الصلاة على روح صديقنا الفقيد ! ونخير لك أن تمضى معنا . ما خير أن تظل دائما مستفردا ؟ ؟ » .

ولما كان يورى حزينا مهموما فإنه لم يجتو سانين وإيفانوف كالعادة . وقال :

— « حسن جداً . سأمضى معكما » ؟

ثم ذكر فجأة بعد المدى بينه وبينهما وأنهما دونه مواهب وملكات فقال لنفسه :

— « أى جامعة بينى وبين مثل هذين ؟ أأشاربهما الفودكا وأروح أهذر مثلهما ؟ » .

وهم أن ينصرف عنهما ولكن إشفاقه من الوحدة بلغ منه مبلغاً دفعه إلى البقاء معهما .

ولم ينبث سانين ولا إيفانوف بشيء ووصلوا جميعاً في صمت إلى بيت إيفانوف . وكان الظلام قد أرخى سدوله وبدا لهم شبح رجل واقف عند الباب ومعه عصا غليظة معوجة اليد فقال إيفانوف مغتبطا :

— « أنه العم بيتر ايليتش » .

فأجابه الشيخ بصوت عميق رنان :

— « نعم هو بعينه » .

وذكر يوري أن عم إيفانوف شيخ سكير ينشد التراتيل في الكنيسة وكان شاربه أبيض فأكسبه ذلك منظر الجندي على عهد نيقولا الأول . وفغمتهم من معطفه الأسود البالي رائحة كريهة .

« بوم . بوم » هكذا كان صوته فكأنه خارج من جوف برميل :

وعرفه إيفانوف بصاحبه يوري فصافحه وهو لا يدري ماذا يقول لمثل هذا الرجل . على أنه ذكر أن الناس ينبغي أن يكونوا سواء عنده فتأدب مع المغني الكهل وتركه يتقدمه في الدخول .

وكان بيت ايفانوف أشبه بمخزن أخشاب منه بمسكن إنسان لكثرة التراب وقلة الترتيب والنظام .

ولكن إيفانوف لم يكد يشعل المصباح حتى وجد يوري أن الجدران مغطاة بصور فاسنتسوف وأن ما خاله أقذاراً ليس سوى كتب مكدسة أكواما على أن هذا لم يخفف من ضيقه فذهب يتأمل الصور ليخفي ما به .

وسأله إيفانوف :

— « أتحب فاسنتسوف ؟ » .

ولم ينتظر الجواب بل غادر الغرفة طلباً للصحاف .

وتمتم ساتين صديقهم سميتوف إلى بيتر فقال هذا :
— « رحمه الله ! آه ! لقد قضى أمره ! » .
فرماه يورى بنظرة المستطلع وأدركه العطف على هذا الشيخ الهرم .
وعاد إيفانوف بخبز وكؤوس وبشيء من الخضر المملحة ووضعها على المائدة وكانت مغطاة بجريدة . ثم فتح زجاجة بسرعة لا تكاد تحس وبحذق بلغ منه مع السرعة أن لم تسل قطرة واحدة .
فقال بيتر معجباً موافقاً :
— « يد صناع ! » .
فقال إيفانوف بلهجة الراضي عن نفسه وهو يملأ الكؤوس بالشراب الأخضر .
— « إنك تستطيع أن تتبين فى لحظة هل المرء عارف بما يعالج أم جاهل به » .
ثم رفع صوته وهو يتناول الكأس وقال :
— « والآن أيها السادة لنشرب على ذكر الفقيد الخ ! » .
وشرعوا يأكلون وأصابوا من الفودكا كثيراً وأقلوا من الكلام وأكثروا من الشراب وما هى إلا برهة حتى عاد جو الغرفة حاراً ثقيلا .
وأشعل بيتر سيجارة فاختلط بالهواء الدخان الأزرق المتصاعد من الطباق الردىء .
فدار رأس يورى من الخمر والدخان والحرارة وجرى بباله سميتوف مرة ثانية فقال :
— « إن فى الموت شيئاً مفزعاً » .
فسأله بيتر :
— « لماذا ؟ الموت ؟ هو هو هو ! إنه لا بد منه . الموت ؟ تصور أن يحيا الإنسان أبداً ؟ هو هو ! لا ينبغى لك أن تتكلم على هذا النحو . الحياة الأبدية حقا ! ماذا عساها أن تكون ؟ » .

فعالج يورى أن يتصور الحياة الأبدية كيف تكون . فارتسم لعينه خط أبيض ضارب إلى السواد ممتد إلى غير غاية فى الفضاء كأنما تقذفه موجة وتلقفه أخرى واستعجمت كل صورة للألوان والأصوات والعواطف وتسرب بعضها فى خلال بعض وغابت فى ثنايا جدول مربد يتحدر أبدا . وليس هذا فى شيء من الحياة وما هو إلا الموت الدائم . فاستهول هذا الخاطر . وتمتم .

— « نعم لاشك » .

وقال إيفانوف :

— « يظهر أن الأمر عظيم الوقع فى نفسك » .

فسأله يورى :

— ومن ذا الذى لا يعظم وقع الموت فى نفسه ؟ » .

فهز إيفانوف رأسه هزة مبهمة المعنى وشرع يحدث بيتر عن آخر ساعات سمينوف . وكان الهواء فى الغرفة قد صار لايطاق . وراقب يورى إيفانوف وهو يرشف الفودكا المتألقة فى ضوء المصباح وبدا له أن كل شيء يدور ويجول .

وهمس فى أذنه صوت غريب ضئيل « آ آ آ » .

فقال وهو لايدرى أنه إنما يرد على هذا الصوت العجيب الهامس :

— « كلا ! أن الموت شيء فظيع ! » .

فلاحظ إيفانوف متهكما :

— « إنك تضطرب له أكثر مما يجب » .

فقال يورى :

— « أو لست أنت كذلك ؟ » .

— « أنا ؟ كلا ! لاريب أنى لا أشتهى الموت فليس فيه متعة كبيرة ترغب . والحياة أشهى منه وأمتع . ولكن إذا كان لابد من الموت فأنى أحب أن يكون وحيا وأن تخلو موافاته من الجلبة والكلام الفارغ » .

فضحك سانين وقال :

— «إنك لم تجرب الأمر بعد !» .

فأجابه إيفانوف :

— «كلا ! هذا صحيح» .

فقال يورى :

— «لقد سمعنا كل هذا من قبل . قولوا ماشئتم فالموت هو الموت وهو فظيع فى ذاته وكفى هادما لكل لذة فى الحياة أن يفكر المرء فى هذه الخاتمة المتيقة التى لامفر منها . مامعنى الحياة ؟» .

فصاح به إيفانوف متضايقاً :

«لامعنى لها» .

فأجابه يورى :

«كلا ، هذا مستحيل . إن كل شىء أحكم نظاما وأبرع ترتيباً من ..»

فقال سانين مقاطعاً :

— «إن رأيى أنه ما من خير فى أى شىء» .

فقال يورى «كيف تذهب إلى هذا ؟ وما قولك فى الطبيعة ؟» .

فضحك سانين ضحكة خفيفة ولوح بيده مستخفا وقال :

— «الطبيعة ؟ ها ها ، إنى أعلم أن من المألوف أن نقول إن الطبيعة بالغة حد الكمال . والحقيقة هى أن الطبيعة مثل الإنسان نقصاً وعيوباً . وفى وسع كل منا بدون جهد كبير أن يتصور عالما يكون خيرا من هذا مائة مرة . لماذا لا تكون الحرارة والضوء سرمدا علينا والرياض خضراء نضيرة ضاحكة أبداً ؟ أما عن معنى الحياة فلا أشك فى أن لها معنى فإن الغاية فى مطاويها مجرى الأمور وأخلق بالفوضى أن تكون شاملة محيطة إذا لم يكن ثم من

غاية . ولكن هذه الغاية خارجة عن دائرة وجودنا إذ هي كائنة في أساس الوجود . هذا محقق . ونحن لا يمكن أن نكون أصل الوجود ولا آخره كذلك . وليس دورنا فيه إلا سلبيا إضافيا . ونحن نؤدي مهمتنا بمجرد حياتنا . فحياتنا ضرورية . وكذلك موتنا أيضاً » .

فقال يوري «لأي سبب ؟ » .

فأجاب سانين :

— «أنى لي أن أعلم هذا ؟ وماذا يعنيني منه فضلا عن ذلك أن حياتي معناها حوالجي النبيذة كانت أو غير النبيذة وكل ماهو خارج عن هذه الحدود . . فإلى الشيطان به ! ومهما تكن النظرية التي نشاء أن نخترعها فهي لا تعدو أن تكون نظرية ولا يمكن أن تخرج عن كونها نظرية . ومن الخرف أن نبني عليها فكرة عن الحياة . ومن شاء فليذهب ذهبه في ذلك أما أنا فإني معتزم أن أحيا ! »

فقال إيفانوف مقترحا :

— « لنشرب جميعا على قوة هذا العزم ! » .

وقال بيتر لسانين وهو يتأمله بعينيه الضعيفتين :

— ولكنك تؤمن بالله أليس كذلك؟ أنه لا يؤمن أحد بشيء في هذه الأيام حتى ولا بما يسهل الإيمان به »

فضحك سانين وقال :

— نعم أؤمن بالله . ولقد آمنت به طفلا ولا حاجة إلى المنازعة في أسباب ذلك أو تأييدها . والحقيقة أنه ليس أجدى علينا من الإيمان فإذا كان الله موجودا تقدمت إليه بأصدق الإيمان وأخلصه . وإذا لم يكن له وجود كان ذلك خيرا لي » .

فقال يوري :

— « ولكن كل حياة تقوم على الإيمان أو عدم الإيمان »

فهز سانين رأسه وابتسم مغتبطاً وقال :

— « كلا ، إن حياتى ليست بقائمة على شىء من هذا القبيل » .

فسأله يورى وقد تداعت قوته :

— « على أى شىء تقوم حياتك إذاً ؟ » .

وقال لنفسه : « آه ، ينبغى أن أكف عن الشرب » .

ومسح جبينه البارد الرطب بكفه ولم يسمع ماقال سانين رداً عليه فقد كان رأسه يدور وغلبته الخمر على أمره برهة .

وقال سانين :

— « إنى اعتقد أن الله موجود وإن كنت لست على يقين جازم مطلق . وسواء أكان موجودا أم غير موجود فإنى عاجز عن تصوره ولا أستطيع أن أعرف هذا حتى لو كنت أحر الناس إيماناً به ؟ إن الله هو الله ولما كان غير آدمى فلسنا نستطيع أن تجرى عليه المقاييس الإنسانية ، إن عالمه المخلوق المحيط بنا شامل لكل شىء : للخير والشر ، وللحياة والموت ، وللجمال والقبح — كل شىء فى الواقع — ولذلك يعجزنا كل معنى وكل تعريف محدود لأن معناه غير انسانى وآراؤه فى الخير والشر ليست بإنسانية ولا معدى لنا عن أن تكون فكرتنا عن الله وثنية فى صميم أمرها وليس يسعنا إلا أن نكسو معبودنا السحنة والثوب الملائمين للأحوال الجوية فى بلادنا التى نعيش فيها — سخافة — أليس كذلك ؟

فقال إيفانوف :

— « نعم ، أصبت . كل الإصابة ! » .

فسأله يورى ودفع كأسه مكروباً :

« إذن ماالفائدة من الحياة ؟ أو من الموت أيضاً ؟ » .

فأجابه سانين :

— « إنى أعرف شيئاً وحدا هو أنى لاأريد أن تكون حياتى شقية . لذلك يجب على المرء أن يرضى رغباته الطبيعية قبل كل شىء . إن الرغبة هى كل

شيء . ومتى انقطعت الرغبة انقطعت الحياة معها . وإذا قتل المرء رغباته فإنه يكون قد قتل نفسه » .

فقال يوري : « ولكن رغباته قد تكون شرا ؟ » .

فأجاب سانين : « ربما » .

فقال يوري : « إذاً ماذا يكون من أمرها ؟ » .

فأجابه سانين في رفق وحدق في وجهه بعينيه الزرقاوين الصافيتين :

— « اذاً ... تكون شراً ، لا أكثر ولا أقل » .

فرفع إيفانوف حاجبيه غير مصدق ولم يتكلم . وصمت يوري كذلك وحيرته هاتان العينان الزرقاوان الصافيتان لسبب ما وجعل يرنو إليهما .

وساد السكون لحظة فكان المرء يسمع فراشة هنالك تصطدم مستيئسة بزجاج النافذة ، وهز بيتر رأسه في حزن وتدلى رأسه المخمور إلى الجريدة القذرة الملوثة .

فعاد سانين إلى الابتسام . وكانت هذه الابتسامة المرتسمة أبدا على ثغر سانين تثير يوري وتفتنه كذلك فقال لنفسه :

— « ماأصفى عينيه! » .

ونهض سانين فجأة وفتح النافذة وأخرج الفراشة واندفعت موجة هواء بارد عليل كأنما أرسلتها أجنحة رقيقة .

وقال إيفانوف مجيباً على خواطره :

— « نعم ليس في الناس اثنان متشابهان . فلنشرب على هذا كاسا أخرى » فقال يوري وهز رأسه :

— « كلا ! لن أشرب شيئاً آخر »

أجاب إيفانوف : « ولماذا ؟ » .

قال يوري : « أني لا أكثر من الشراب »

وكانت الفودكا والحرارة قد صدعاه فطلبت نفسه الهواء الخالص وقال وهو ينهض :

— « لابد لى من الخروج » .

فقال إيفانوف : « إلى أين ؟ تعال . اشرب كأساً أخرى » .

فقال يورى متلعثما باحثاً عن قبعته :

— « كلا ، يجب أن ... » .

فرد عليه إيفانوف : «حسن . عم مساء » .

وخرج يورى وأغلق الباب وراءه .

وسمع سانين فى هذه اللحظة يقول لبيتر :

— « نعم أنت لست كالأطفال . إن هؤلاء لايستطيعون أن يميزوا بين الخير والشر . لأن نفوسهم ساذجة على الفطرة . وهذا هو السبب فى أنهم ... »

وكان يورى قد أتم إغلاق الباب فلم يسمع شيئا .

وكان القمر مضيئا فى قبة السماء ، وهب نسيم الليل البليل على محيا يورى ، وجلت له الطبيعة كل جميل محرك للخيال وجرى بذهنه سميونوف وهو يجتاز الشوارع الساكنة المضيئة . فتصور سميونوف راقدا فى قبر مظلم ساكن على أنه مع ذلك لم تعاوده تلك الهواجس الحزينة التى كانت من قبل تجثم على صدره وتسود الدنيا كلها فى نظره . بل خامرته الكآبة الهادئة المطمئنة وأحس دافعاً يغريه بالشخوص بطرفه إلى القمر . وذكر سانين وهو يجتاز ميداناً مهجوراً فسأل نفسه « أى رجل هذا ؟ » .

وغاظه أن فى الدنيا رجلا لا يستطيع هو أن يحلل شخصيته فى لحظة فراح يجد لذة فى النيل منه وقال :

ـــ إن هو إلا صواغ عبارات ليس إلا . وقد كان يتكلف الطيرة أولا ويدعى مقت الحياة ويرفه عن نفسه بالإعراب عن المستحيل من الآراء أما الآن فإنه يعبث بالحيوانية » .

وانتقل يورى من التفكير فى سانين إلى تأمل نفسه وانتهى من الموازنة إلى أنه لايعبث بشىء ما، وأن كل خواطره وآلامه وشخصيته مبتكرة وأنها لاتشبه خواطر الناس غيره وشخصياتهم فى دقيق أو جليل .

فارتاح إلى هذه النتيجة أعظم الارتياح . . ولكنه أحس افتقاد شىء: فانقلب يفكر فى سمينوف وأحزنه أن عينيه لن تقع عليه أبداً ، واستوحشت نفسه وإن كان لم يشعر له بإعزاز فى حياته ، وترقرقت الدموع فى عينيه وتصور الطالب الميت مدرجا فى قبره وقد صار كتلة متعفنة وذكر هذه الكلمات له :

« ستكون حياً تستنشق الهواء وتتمتع بضوء القمر وتمر بالقبر الذى يضم رفاتى » .

فرمى يورى بلحظة الى التراب وقال لنفسه :

ـــ « إن هاهنا تحت قدمى آدميين أيضاً . وإنى أطأ بقدمى عقولا وقلوبا وعيونا آدمية ! آه وسأموت مثلهم ويمشى غيرى فوقى وتخطر لهم مايطوف بذهنى الآن : آه . يجب أن يحيا الإنسان قبل أن يخرج الأمر من كفيه . إلا أنه يجب أن يعيش المرء ! نعم ولكن على الطريقة الصحيحة حتى لاتضيع عليه لحظة من حياته . ولكن كيف هذا ؟ » .

وكانت السوق عارية بيضاء فى ضوء القمر وكل مافى البلدة ساكت فغنى يورى نفسه : «لن يسمعنا المزمار عندئذ » .

ثم قال بصوت عال :

ـــ « ما أثقل كل شىء وأشجاه وأرهبه ! »

. كأنما يقول بشجوه لرفيق معه وأفزعه صوته وتلفت ونفض المكان بعينه ليرى هل سمعه أحد وخطر له أنه «سكران»

وكان الليل مشرقا فى سكون وجلال .

لما كانت سينا كارسافينا وزميلتها دوبروفا غائبتين فى زيارة كانت حياة يورى مملة فاترة :

وكان أبوه أبداً فى شاغل من « النادى » أومن شئون البيت .

ولم تكن لياليا وريازانتزيف يرتاحان الى وجود شخص ثالث معهما فكان يورى يجانبهما :

وصار من عادته أن يبكر فى الذهاب إلى مضجعه وأن لا يقوم إلا وقت الغداء وكان يقضى نهاره كله بين غرفته والحديقة مفكراً فى أموره . منتظراً أن تساعفه موجه نشاط تدفعة إلى عمل جليل .

وكان هذا العمل الجليل يتخذ فى كل يوم صورة فيوما يكون صورة ويوما يكون سلسلة مقالات تكشف للعالم عن الخطأ الجسيم الذى وقع فيه الديمقراطيون الاشتراكيون بأن لم يعقدوا ليورى الزعامة فى حزبهم . وطوراً تكون مقالا فى الحث على معاضدة الشعب والتعاون معه — مقالاشاملا ضافيا فى الموضوع . ولكن كل يوم كان يمضى عليه ولايخلف له سوى السآمة .

وجاء إليه توفيكوف وشافروت مرة أومرتين يزورانه .

وحضر يورى بعض المحاضرات وأدى بعض الزيارات غير أن هذا كله كان فى نظره فارغا لاخير فيه وليس هو بالذى يفكر فيه أويظن أنه يفكر فيه .

. وفى يوم من الأيام ذهب لزيارة ريازانتزيف وكانت غرف هذا الطبيب رحيبة مهواة حافلة بكل مايحتاج إليه الرجل الصحيح

الجسم المعافى البدن من وسائل التسلية فمن عصى هندية إلى كتل حديدية وسيوف وأدوات الصيد وحقائب للطباق غير ذلك مما هو بسبيل الملاهي التي يباشرها الرجال الأصحاء .

فرحب به ريازانتزيف وأحسن ملاطفته ومحادثته وقدم له السجائر ثم سأله أن يخرج معه للصيد .

فقال يورى : « ليس معي بندقية » .

فقال : « خذ واحدة من هنا فإن لدى خمساً »

وإذ كان يورى أخا لياليا فقد أراد ريازانتزيف أن يلاطفه ما أمكنته ملاطفته . أصر على أن يأخذ يورى إحدى بنادقه وعرضها كلها عليه ليختار من بينها وفككها وشرح له تركيبها بل لقد أطلق إحداها على هدف في الفناء . فاقتنع يورى وأخذ واحدة بعض والخراطيش وهو يضحك .

فسر ريازانتزيف وقال :

ــ « هذا حسن جداً . لقد كان عزمي أن أخرج غداً لصيد البط فلنذهب معاً » .

فقال يورى :

« هذا يسرني جداً » .

ولما عاد إلى بيته قضى نحو ساعتين يفحص بندقيته ويتحسس زنادها ويسددها إلى المصباح ثم صقل حذائي الصيد القديمين . وفي مساء اليوم التالي جاء إليه ريازانتزيف يهتز مسروراً في مركبة يجرها جواد مضمر وصاح به من النافذة وكانت مفتوحة .

ــ « أنت مستعد ؟ » .

وكان يورى قد احتمل حزامة الخراطيش وحقيبة الصيد والبندقية فخرج إليه مثقلا بها وقال :

— « إنى مستعد . مستعد » :

وكان ريازانتزيف قد أخف من هذه الأحمال فعجب ليورى وماتأهب به؛ وقال مبتسما :

— « ستغنانى البرح من هذه الأثقال . اخلعها وضعها هنا . فمابك حاجة إلى لبسها قبل أن نبلغ المكان » .

وساعد يورى على التخلص منها ووضعها تحت المقعد ثم أهبا الجواد فأخب بالمركبة وكان النهار قد أوشك أن ينقضى ولكن الجو كان لايزال دافئاً كثير التراب .

وجعلت المركبة تميل يمنة ويسرة حتى اضطر يورى أن يتشبث بمقعده؛

وكان ريازانتزيف يتكلم ويضحك طول الطريق فلم يسع يورى إلا أن يشاطره جذله .

ولما برزا إلى الحقول كانت الاكلاء الطويلة تلمس أقدامهم وصار الجو ألطف وانقطع التراب .

وبلغا حقلا واسعاً مستوياً فأوقف ريازانتزيف الجواد وكان يتصبب عرقا ورفع كفه إلى فمه وصاح بصوت رنان صاف :

« كوسيا ! كوسيا » :

وكان المرء يرى عند نهاية الحقل صفاً من الرجال صغيرى الأجسام فشخصوا بأبصارهم إلى مصدر الصوت .

ثم اجتاز أحدهم الحقل متحرزا بين الأخاديد ولما دنا منهم رأى يورى فلاحا ضخما أبيض الشعر طويل اللحية مفتول الساعدين .

فسار إليهما وقال مبتسما :

— « إنك تحسن الصياح ياأناتول بافلوفتش » .

— « عم مساء كوسيا كيف حالك ؟ أتسمح لى أن أترك الجواد معك ؟ » .

فقال الفلاح بصوت ساكن و ى وأمسك اللجام :

ـ « نعم ولاشك . جئت للصيد أليس الأمر كذلك ؟ ومن هذا ؟ » وألقى إلى يورى نظرة رقيقة . فقال ريازانتزيف :

ـ « إنه ابن نقولا تجوروفتش » .

أجاب : « آه نعم ! إنى أراه شبيها بليالينا ! نعم . نعم ! » .

وسر يورى أن هذا الفلاح الهرم المغتبط يعرف اخته ويذكرها ذكر الصديق المخلص .

وقال ريازانتزيف بصوته الطروب وتقدم زميله بعد أن احتمل بندقيته وحقيبة الصيد .

ـ « والآن فلنمض فى سبيلنا » ؟

فقال كوسما :

« أرجو أن يكون حظكما عظيما » .

وكان يسمعانه يلاطف الجواد وهو يجره إلى كوخه .

وكان عليهما أن يسيرا نحو ميل قبل أن يصلا إلى المستنقع وكادت الشمس تغيب وكانت الأرض مكسوة بالحشائش والأعشاب تحس القدم بللها وتجد الأنف ريح رطوبتها والعين جهامتها . والماء تامع صفحته فى بعض المواضع .

وكف ريازانتزيف عن التدخين ووقف ورجلاه منفرجتان وتجهم وجهه كأنما كان يهم بعمل عظيم التبعة .

ووقف يورى إلى يمينه يبحث عن مكان جاف مريح . وكان أمامهما الماء صافياً عميقاً تنعكس فى صقاله صفحة السماء المجاورة ومن ورائه الشاطىء كالخط الأسود .

وهب البط مثنى وثلاث وجعلت أفراخه تطير مترنحة فوق الماء خارجة من الأعشاب محلقة فوق رأسى الصائدين صفا من الأشباح السوداء باديا دون السماء فأرسل ريازانتزيف أول طلقة فأصاب وهوت بطة مكلومة إلى

الماء وجناحاها تخبطان الأعشاب فقال ريازانتزيف وضحك عالياً :

— « لقد أصبتها » .

وقال يورى لنفسه وكان قد جاء دوره : «إنه رجل طيب حقيقة ..» .

وأطلق بندقيته فهوت بطة ولكنها سقطت فى مكان بعيد لم يصل إليه يورى وإن كان قد جرح كفيه وخاض إلى ركبتيه فى الماء ولم تزده هذه الخيبة إلا حماسة وظن الأمر لهواً طيباً .

وكان للدخان البنادق رائحة لذيذة فى هذا الجو الصافى البليل وكانت الطلقات تبرق فى الظلام فيجد المرء لبريقها وقعاً حسناً . وجعلت الطيور الجريحة ترسم وهى تهوى أقواساً رشيقة تحت قبة السماء الخضراء التى بدت فيها النجوم . وأحس يورى من النشاط والاغتباط مالا عهد له به كأنما لم يمر به ما هو أمتع من هذا وأعظم إنعاشاً للنفس . وقلت الطيور الطائرة الآن وتعذر تسديد المرمى فى الظلام المتكاثف .

وصاح ريازانتزيف بزميله :

— « يورى ! يجب أن نعود الآن ! » .

فأسف يورى للذلك وعز عليه أن يرجع ولكنه مضى إلى رفيقه إجابة لرغبته وكان يتعثر فى سيره بين الأعشاب ويخوض الماء الذى لم يعد يفترق فى الظلام عن الأرض الصلبة .

فلما التقيا برقت عيونهما وكان كلاهما يلهث .

فقال ريازانتزيف :

— « هل مالأك الحظ ؟ » .

فقال يورى وكشف عن حقيبته المكتظة :

— «أظن ذلك !»

فقال ريازانتزيف متبسطا :

— « إنك أشد مني ساعداً وأحكم رماية » .

فابتهج يورى بهذا الثناء وإن كان لا يفتأ يدعي قلة الاعتداد بالقوة الجثمانية أو المهارة وقال بغير اهتمام :

— « لا علم لى بأنى خير أو شر . وكل ما فى الأمر أن الحظ ظاهرنى » .

وكان الظلام قد اشتد لما بلغا الكوخ وغمرت الدياجى حقل الليمون فلم تكن العين تأخذ منه سوى صفوفه الأولى تلتمع فى ضوء النار وتلقى على الأرض ظلالا طويلة .

وكان الجواد واقفاً ينفخ إلى جانب الكوخ حيث أوقدت النار من عيدان الكلأ الجافة فجعلت تقعقع وهى تحترق .

وسمعا أصوات رجال ونساء يتكلمون ويضحكون .

وخيل ليورى أنه يعرف أحد الأصوات وكان ليناً جذلا .

فقال ريازانتزيف وقد أخذه العجب :

— «إنه سانين . ماذ جاء به إلى هنا؟ » .

واقتربا من النار . وكان كوسما ذو اللحية البيضاء جالساً بجانبها فرفع طرفه إليهما وهز رأسه مرحباً بهما وسألهما بصوت غليظ عميق يخرج من تحت شاربيه المتهدلين .

— « كيف كان حظكما؟ » :

فقال ريازانتزيف :

— « متوسطا » .

وكان سانين جالساً على جذع ضخم فرفع رأسه أيضاً وابتسم لهما .

فسأله ريازانتزيف :

— « كيف جئت إلى هنا ؟ » .

فقال سانين وزاد ابتساماً :

— « أوه . إنى أنا وكوسما صديقان قديمان » .

فضحك كوسما وانفرجت شفتاه عن بقايا أسنانه الصفراء المتداعية وجعل يربت ركبة سانين بيده الخشنة وقال :

— « نعم نعم . اجلسا يا أناتول بافلوفتش وذوقا هذا البطيخ وأنت ياسيدى الشاب ما اسمك ؟ » .

فقال يورى مسرورا :

— « يورى نيقولا يفتش » .

وأحس بعض الارتباك ولكنه أحب هذا الفلاح الشيخ الرقيق وارتاح إلى لهجته الودية . وقال كوسيا :

— « يورى نيقولا يفتش . أها . يجب أن نتصادق . اجلس يا يورى » .

فجلسا قريباً من النار على جذعين كبيرين وقال كوسيا :

— « والآن أريانا ماصدتما » .

فأفرغا من الحقيبتين كوماً من الطيور المقتولة وتلوثت الأرض بدمها وكان لها فى ضوء النار المضطرب منظر منفر وبدا الدم أسود اللون وكأنما كانت المخالب تتحرك .

فرفع كوسيا بطة وأمر يده تحت جناحيها متحمساً . وقال :

— « هذه بطة سمينة . يجب يا أناتول أن تدع اثنين . وماذا عساك تصنع بكل هذه ؟ » .

فقال يورى فى خجل :

— « خذها كلها » .

فضحك الشيخ قائلا :

— « لماذا آخذها كلها ؟ إنك أكرم مما يجب . لا آخذ سوى اثنين » .

ودنا منهم فى هذه اللحظة فلاحون آخرون ومعهم نساؤهم ولم يستطع يورى أن يميز وجوههم لفرط ما ازاغت النار من نظره وكان الوجه تلو الوجه يخرج من الدجى ثم لايكاد يظهر حتى يغيب .

ورمى سانين الطيور بعينه وهو عابس ثم أدار وجهه ونهض واستكره أن يرى هذه المخلوقات الجميلة مكسورة الأجنحة ملطخة بالدم والتراب .

وراقب يورى كل شىء باهتمام وهو يمص بطيخة كبيرة ناضجة شهية قطعها له كوسما بسكين يدها من العظم الأصفر وقال كوسما :

— « كل يا يورى . إن هذه البطيخة جيدة . إنى أعرف أختك الصغيرة ليالبا وأباك أيضاً . كل وتمتع » .

وشاع السرور فى نفس يورى بكل شىء : برائحة الفلاحين والخبز الجديد وضوء النار والجذع الضخم الذى كان جالساً عليه ووجه كوسما كلما أطرق . وكان إذا رفع رأسه يلفه الظلام ولا تظهر منه إلا عيناه وكانت الظلمة الطاغية فوقهم تكسب المكان المضاء بهجة وأنسا .

وكان يورى إذا رفع رأسه لا يرى شيئاً ثم لا تلبث السماء الشاسعة الساكنة أن تبدو متألقة فيها نجومها البعيدة .

على أنه حيره أنه لا يعرف ماذا يقول لهؤلاء الفلاحين .

وكان كوسما وسانين وريازانتزيف يحدثونهم بلا كلفة وببساطة عن هذا الأمر أو ذاك ولا يهتمون بأن يتخيروا موضوعاً خاصاً للكلام .

ولما انقطع الحديث سألهم :

— « كيف حال الأرض ؟ » .

وأحس أن سؤاله متكلف لا محل له فرفع كوسما لحظه وقال مجيباً :

— « سنصبر . سنصبر ونرى » .

ثم طفق يحدثهم عن حقول البطيخ وغيرها من الشئون الخاصة ويورى يزداد ارتباكا وحيرة وإن كان قد سره أن يصغى إليه .

وسمعوا وقع أقدام مقبلة وظهر فى الضوء كلب أحمر صغير ذنبه أبيض ملتو وجعل يشم يورى وصاحبه ويحك جسمه بركبة سانين فمسح له هذا جلده الخشن . وجاء على أثر الكلب شيخ قصير له لحية خفيفة وعينان صغيرتان لامعتان . وفى يده بندقية صدئة ذات خرطوم واحد . فقال كوسما :

— « إنه الجد حارسنا » .

وجلس الشيخ على الأرض ووضع إلى جانبه سلاحه وأقبل يتأمل يورى وصاحبه ثم قال وكشف عن لثاه المجعد المشوه :

ـــ «كنتما تصيدان ؟ نعم، نعم . هاها ! كوسيا لقد آن أن تغلى البطاطس».

فالتقط ريازانتزيف بندقية هذا الشيخ وأرى يورى إياها ضاحكا ، وكانت قديمة علا الصدأ كل أجزائها ، ثقيلة مشدودة بسلك ملفوف عليها ، وقال لصاحبها :

ـــ « أى بندقية هذه ؟ ألا تخشى أن تصيد بها ؟ » .

أجاب الشيخ :

ـــ « هاها . لقد كادت تقطنى مره . قال لى ستيبان شابكا إن المرء يستطيع أن يطلقها بدون . . اسطوانة . هاها . بدون اسطوانة . وقال إنه إذا كان فى البندقية مقدار من الكبريت باقياً فإنك تستطيع إطلاقها بغير اسطوانة . فوضعت البندقيـــة المحشوة على ركبتى هكذا وأطلقت زنادها بأصبعى هكذا ـــ انظروا . فانطلقت وكدت أقتل نفسى . هاها . حشوت البندقية وأطلقتها وكدت أقتل نفسى » .

فضحكوا جميعاً وانحدرت دموع السرور من عينى يورى وما كان أمتع هذا الشيخ الضئيل ولحيته الخفيفة وشدقيه الغائرين .

وضحك الشيخ كذلك حتى دمعت عيناه وجعل يردد قوله :

ـــ « كدت أقتل نفسى ! هاها » .

وكان المرء يستطيع أن يسمع فى الظلام وراء دائرة النور ضحكاوأصوات بنات نأى بهن الحياء عن المجلس .

وكان سانين جالسا على بضعة أقدام من النار فى مكان غير الذى توهمه يورى .

فأوقد سانين عود كبريت ورأى يورى فى ضوئه الأحمر عينيه الساكنتين الوديعتين وإلى جانبه وجه غض عيناه الرقيقتان مرفوعتان إلى سانين وفيهما نور الجذل الساذج .

فنظر ريازانتزيف إلى كوسيا وقال :

ــ « أيها الجد أليس خيراً لك أن ترقب بعينيك حفيدتك ؟ » .

فأجاب كوسيا عنه وأومأ إيماءة من لا يكترث :

ــ « وما الفائدة ؟ إن الشباب هو الشباب » .

وضحك الشيخ والتقط بأصابعه جمرة متقدة من النار .

وسمع القوم ضحكة سانين فى الظلام .

وكأن الفتيات خجلن فقد انصرفن عنه وعادت أصواتهن وهى لا تكاد تسمع .

وقال ريازانتزيف وهو ينهض :

ــ « لقد آن أن نذهب . أشكرك يا كوسيا » .

فقال كوسيا : « لا شكر البتة » .

ومسح بكمه بذور البطيخ التى علقت بلحيته البيضاء . وصافحهما .

وأحس يورى استكراهاً لمس هذه الراحة الخشنة المعروقة .

وخفت الظلمة لما نأيا عن النار ورأيا فوقهما النجوم الزهراء المقرورة وقبة السماء الهائلة الجليلة الجمال .

وبدا الجالسون حول النار والخيل وكوم البطيخ فى شملة من الظلام وقال لهما سانين :

ــ « افتحا عيونكما . عما مساء » .

فقال يورى : «عم مساء» .

وتلفت وراءه ليرى قوامه الطويل وخيل إليه أن امرأة رشيقة القد معتمدة على كتفه فخفق قلبه وذكر سينا وأحس الغيرة تلب فى صدره لسانين .

وانطلقت عجلات المركبة تخطف الأرض وجعل الجواد ينفخ وهو يجرى وخفيت عنهما النار والأصوات والضحكات وساد السكون وتطلع يورى إلى السماء ورنا إلى نجومها المنثورة ولما قاربا البلدة بدأت الأضواء تسطع هنا وههنا والكلاب تنبح .

وقال ريازانتزيف ليورى :

« إن كوسيا هذا فيلسوف . ألا ترى ذلك ؟ » .

وكان يورى جالسا خلف صاحبه ينظر إلى عنقه فنبهه السؤال وأيقظه مما كان غارقا فيه من الخواطر السوداء وحاول أن يفهم ما ألقى إليه وأجاب بتردد :

« آه — نعم ! » .

فقال ريازانتزيف وهو يضحك :

« لم أكن أظن أن سانين فاجر إلى هذا الحد » .

ولم يكن يورى يحلم الآن فذكر منظر سانين ومحيا الفتاة الجميل فى نور الكبريت وعاودته الغيرة وما عتم أن طاف برأسه أن معاملة سانين للفتاة وضيعة مستوجبه للاحتقار فقال مجيباً صاحبه :

« كلا . ما حسبته كذلك قط » .

وكان فى صوته نبرة تهكم لم يلتفت إليها ريازانتزيف فألهب الجواد بالسوط وقال بعد فترة :

« إنها فتاة جميلة . أليست كذلك ؟ وأنا أعرفها . حفيدة الشيخ الهرم » .

فصمت يورى . وانقشعت عنه سحابة التفكير واقتنع بأن سانين رجل سوء .

وهز ريازانتزيف كتفيه ثم قال :

« إلى الشيطان بها ! وفى ليلة كهذه أيضاً ؟ وأرانى أخذت كذلك . أسمع . ما قولك فى أن نعود وأن ... » .

ولم يفهم يورى فى أول الأمر ما أراد صاحبه الذى عاد فقال :

« إن هناك بضع فتيات حسان كما تعلم . ما قولك ؟ أنعود ؟ » .

فصبغ الحياء وجه يورى وشاعت فى كيانه هزة شهوة حيوانية ومثلت لعينيه ولخياله الملتهب صور مغرية ولكنه ضبط نفسه وقال بصوت جاف :

« كلا ! لقد آن أن نكون فى البيت الآن » .

ثم زاد على ذلك بخبث :

« ليالبا تنتظرنا » .

فتداعى ريازانتزيف وقال :

« نعم . نعم بالطبع . نعم يجب أن نكون فى البيت الآن » .

وقرض يورى أسنانه وحدق فى ظهر صاحبه المريض تنسجم عليه ابلدا كتة البيضاء وقال متحدياً متاصبا :

« لست أحب المغامرات التى من هذا القبيل» .

فأجابه ريازانتزيف ضاحكا فى فتور :

« كلا ! كلا ! اعلم ذلك ! ها ها ! » .

ثم صمت . وقال لنفسه :

« قاتلنى الله ما أغبانى ! » .

وساروا بالمركبة إلى البيت دون أن ينبسا بحرف آخر وكان يخيل إليهما أن الطريق لا آخر له ولما وصلا قال يورى دون أن يرفع رأسه :

« ألا تدخل معى ؟ » .

فقال ريازانتزيف متردداً :

« أ . . أ . . لا ! إن على أن أعود مريضاً . والوقت متأخر كذلك » .

فنزل يورى ولم يعن بأن يأخذ البندقية أو الطيور وكأنما صار يمقت كل شىء مما يتعلق بريازانتزيف فصاح به هذا :

« لقد نسيت بندقيتك » .

فالتفت يورى وعاد فأحتمل البندقية والحقيبة بهيئة المتقزز وصافح صاحبه ملفاً ودخل .

ومضى الآخر بمركبته فى بطء مسافة قصيرة ثم انثنى فجأة وعطف على زقاق وكان يورى يسمع صوت العجلات آتيا من ناحية أخرى غير التى درجت فيها المركبة أولا فأصغى يورى وهو ثائر النفس إلا أنه خسائر وقال لنفسه :

« حظ سيء » وأدركه العطف على أخته .

(١٤)

أحتمل يورى ما معه ولم يجد بعد ذلك ما يصنع فانحدر إلى الحديقة وكان الليل كظلمة القبر وزاد فى وقعه منظر السماء وما فيها من النجوم المتألقسة وكانت ليالنا جالسة على إحدى درجات السلم وهى لا تكاد ترى فى الظلام فسألته :

« أهذا أنت يا يورى ؟ » .

« نعم هو أنا » .

وجلس إلى جانبها فأسندت رأسها إلى كتفه وهى كالحالمة وفاح منها عبير الصبا الغض فتحركت حواسه وقالت :

« هل آتاك الحظ فى الصيد ؟ » .

ثم سألته بعد قليل بصوت رقيق :

« وأين أناتول بافلوفتش ؟ لقد سمعت صوت المركبة» .

وود يورى — وقد هاج فجأة — لو يقول لها « إن أناتولك هــذا جيم قذر » غير أنه أجابها غير محتفل :

« لا أدرى أين هو . لقد كان عليه أن يعود مريضاً» .

فرددت ليالنا لفظة « مريض » ولم تزد وشخصت بعينها إلى النجوم ولم يسؤها أن ريازانتزيف لم يحضر فقد كانت على نقيض ذلك تبغى الوحدة لتطلق لأحلامها وخيالاتها اللذيذة العنــان ولا يكبحها وجوده وكانت العاطفة التى استولت على كيانها الغض غريبة حلوة رقيقة أشعرتها أنها تستقبل غاية منشودة

محتومة إلا أنها مقلقة تطوى بها صفحة ماضيها ويبدأ بها عهد جديد بالغا من الجدة مبلغا جعل ليالبا تحسب أنها ستصير كائنا آخر غير الأول فى كل شىء .

وعجب يورى لأخته اللعوب الضحوك كيف تغرى بالسكون والتفكير وكان هو مكروبا مكتئبا فبدا له أن كل شىء به مثل سهومه وفتوره — كل شىء حتى ليالبا والحديقة المظلمة والسماء البعيدة الملتمعة النجوم ولم يفطن إلى هذه الحالة الحالمة لا تنطوى على الحزن بل على قوة الحياة نفسها . فى السماء قوى مجهولة لا حد لها تموج وتتصارع . والحديقة الغامضة تمتص من الأرض ما تحتاج إليه من العصير الحيوى . وفى قلب ليالبا غبطة تامة كاملة تضن بها أن تنفى سحرها أية حركة أو شعور . وفى صدرها الحب والحنين يتجاوبان وهى بما يختلج فى نفسها منهما وضيئة كالسماء المزدانة بالنجوم وعليها كالحديقة المستسرة نقاب يخفى ما تحته .

وسألها يورى مترفقا كأنما خشى أن يوقظها :

« خبرينى يا ليالبا . أتحبين أناتول كثيراً ؟ » .

فبدا لها أن تقول« كيف تسألنى عن هذا ؟ » ولكنها كبحت نفسها ودنت منه حتى التصقت به وفى نفسها له الشكر على أن لم يحدثها إلا عما يعنيها فى حياتها — أى الرجل الذى تحبه .

فقالت ليالبا : «نعم أحبه حباً جماً» .

وكان صوتها من الرقة بحيث حزر يورى ما قالت إذ لم يكد يسمعه وهى تتكلم وتحاول أن تمنع دموع الفرح . ولقد خيل إلى يورى أن فى صوتها نغمة أسى فزاد عطفه عليها ومقته لريازانتزيف .

فسألها وأذهله أن يسألها ذلك :

« ولماذا ؟ » .

فرفعت طرفها إليه مستغربة وضحكت فى رفق وقالت :

« أيها الولد الخرف ! لماذا حقــا ؟ لأن . . . اسمع ! ألم تحبب مرة فى حياتك ؟ إنه طيب شريف مستقيم . . » .

وكان بودها أن تزيد على ذلك « وهو جميل قوى ولكنها خجلت ولم تزد شيئاً » .

فقال يورى :

« أتعرفينه حق معرفته ؟ » .

وخطر له أنه لم يكن ينبغى أن يسألها هـــذا لأنها بالبداهة تحسبه خير من فى العالم .

فأجابته بخجل وفى صوتها لهجة الظافر المنتصر :

«إن أناتول لا يكتمنى شيئاً» .

فابتسم يورى وإذ كان يدرك أن لا سبيل إلى التراجع فقد ألح عليها بالسؤال :

« أأنت على يقين جازم ؟» .

أجابت : « نعم والثقة بالبداهـــة . ولماذا لا أكون على يقين ؟ » : وارتجف صوتها .

فقال يورى وبه شيء من الارتباك :

ــ « لا شيء . لا شيء . إنه سؤال لم أرد به شيئاً خاصاً » .

وصمتت ليالبا ولم يستطع هو أن يحزر ما يجرى فى ذهنها من الخواطر ، ثم سألته فجأة :

ــ « لعلك تعلم عنه شيئاً ! » .

وكان فى صوتها ما ينم على الألم .

فحار يورى وقال :

ــ « لا ! لا ! كلا ماذا يمكن أن أعرف عن أناتول بافلوفتش » .

فقالت ليالبا ملحة :

« لولا أنك تعلم شيئاً لما قلت ما قلت » .

قال : «إن كل ما أعنيه هو . . . » :

ثم قطع الكلام فجأة واستحيى وعاد فقال :

— « إننا معشر الرجال كلنا فساق » .

فلزمت ليالبا الصمت هنيهة ثم انفجرت ضاحكة وقالت :

« نعم . أعرف ذلك ؟» .

فلم ير أن لضحكها هذا محلا وقال بشيء من الغيظ :

« لا يحسن بك الاستخفاف بالأمور إلى هذا الحد . كذلك لا يسعك أن تحيطى بكل ما يجرى . وأنت خالية الذهن مما فى الحيـاة من حقارة . أنت أصغر سنا من أن تلمى بهذا وأنق وأطهر » .

فقالت ليالبا ضاحكة وقد سرها كلامه :

«أهذا كذلك حقا ؟» .

ثم اتخذت لهجة الجد فقالت :

« أتحسب أنى لم أفكر فى مثل هذه الأمور ؟ لقد فكرت وآلمنى وأحزننى أننا نحن النساء نكترث لسمعتنا وطهرنا وعفتنا كل هذا الاكتراث ونخاف أن نخطو خطوة لئلا . . . لئلا . . . نهوى ونسقط على حين يعد الرجال إغواء الفتاة من مظاهر البطولة . إن هذا ظلم شنيع أليس كذلك ؟ » .

فقال يورى بمرارة وإن كان على ذلك قد وجد شيئاً من الارتياح إلى الاعتراف بمعايبه وذنوبه ولكنه اعتراف تخالطه الشعور بأنه ليس كالناس فى شيء .

— «نعم هذا أظلم شيء فى الدنيا . سلى من شئت منا أيرضى أن يتزوج من . . (وهم أن يقول مومسا ولكنه رد هذا اللفظ وأعتاض منه) عتجة يقل لك « كلا » ومن أى الوجوه يفضل الرجل المرأة العتجة ؟ إنها تبيع نفسها فى مقابلة المال على الأقل لترتزق وتعيش ، فأما الرجل فيطلق لشهوته العنان بلا خجل ولا استحياء » .

فصمتت ليالبا .

وكان هنالك خفاش يطير تحت سقف البهو رائحا جائيا ولا يراه أحـــد واصطدم جناحاه مرات بالجدار ثم رفرف واختفى .

وأصغى يورى إلى أصوات الليل الغريبة ثم أستأنف الكلام وقد زادت مرارة لهجته وصار صوته نفسه يدفعه ويستاقه فقال :

« وشر ما فى الأمر أنهم جميعاً يعرفون ذلك وهم مع هذا متفقون على أن الحال يجب أن يظل كذلك ثم تريهم يمثلون مآسى مضحكة فيسمحون بأن يتزوجوا ثم يكذبون على الله والإنسان . ولا يذهب ضحية أحط الفساق وأدنأ المستهتكين إلا أنقى الفتيات وأطهرهن (قال هذا وهو يفكر فى سينا كرسافينا) .

ولقد قال لى سمينوف مرة «كلما كانت المرأة أطهر كان صاحبها أقذر» وأراه على صواب .

فسألته لياليا بلهجة مستغربة :

« أهذا كذلك ؟ » .

فقال يورى وعلت وجهه ابتسامة مرة :

«نعم كذلك بلا مراء» .

فتمتمت لياليا وقد خنقتها العبرات :

« لا أعرف . . لا أعرف شيئاً عن هذا »

فصاح بها يورى ولم يكن قد سمع ما قالت :

«ماذا؟» .

أجابت : « لاشك أن توليا ليس كالباقين ! إن هذا مستحيل » .

وكانت هذه أول مرة ذكرت فيها اسم حبيبها بلفظ الإعزاز ثم طفقت تبكى فجأة فوقع من نفسه بكاؤها وأمسك بيدها وقال :

« ليالي ! ليالي ! ماذا جرى ؟ لم أكن أقصد أن . . . لا تبكى يا عزيزتى ليالي ! ازجرى العين عن بكاها» .

ونحى يديها عن وجهها وقبل أصابعها التى بللها الدمع فقالت وهى تشنج :

« لا ! لا ! إن الأمر صحيح وأنا أعلم ذلك ! » .

وكان قولها أنها فكرت فى هذا من قبل تخيلا محضا ولم تكن تدرى عن حياة ريازانتزيف وسلوكه شيئاً . نعم إنها تعرف أنها ليست أول من أحب ولا تجهل معنى هذا ودلالته ولكن وقع هذا الذى تعلمه كان غامضا زائلا .

وكانت تحس أنها تحبه وأنه يحبها . وهذا هو الجوهر وما سواه لا قيمة له ولا وزن . فأما وقد قال أخوها ما قال بلهجة التعنيف والازدراء فقد خيل لها أنها على حرف هاوية واستهولت ما تحدثا عنه وحسبت أن حلم سعادتها قد انتسخ وأنه لا سبيل إلى إصلاح ما فسد وأنه لم يعد ثم محل للتفكير فى حبهـــا لريازانتزيف .

وحاول يورى وهو يكاد يبكى أن يرفه عنها وجعل يقبلها ويمسح شعرها ولكنها ألحت فى البكاء واستسلمت للأسى والمرارة كالطفل .

وأسى يورى لحزنها وما بدا له من ألمها فعدا إلى البيت وهو ممتقع اللون مضطرب فاصطدم رأسه بالباب وعاد إليها بكوبة ماء أراق نصفها على الأرض وعلى يديه وقال لها وهو يقدمها إليها .

— « لا تبكى يا ليااليا ! لا ينبغى لك أن تبكى هكذا ؟ ماذا جرى ؟ ما خطبك ؟ لعل أناتول بافلوفتش خير من الباقين يالياليا ؟؟ » .

وجعل يكرر ذلك وبه من اليأس خاطر .

ولكن ليااليا ظلت تعول وترجف رجفاً عنيفاً حتى لكانت أسنانهـــا تصطك بزجاج الكوبة .

وجاءت الخادمة وقالت :

« ماذا جرى يا سيدتى ؟ » .

فنهضت لياليا واتكأت على سور البهو ومضت وهي باكية تنتفض إلى غرفتها .

فقالت لها خادمتها :

« سيدتي العزيزة خبريني ماذا حدث ؟ أأدعو سيدي والدك ؟ » .

وخرج في هذه اللحظة أبوها نيقولا من المكتبة يمشي بخطى بطيئة متزنة فلما أخذت عينه لياليا وقف في الباب وقد أذهله منظرها وسأل :

« ماذا حدث ؟ » .

فأجابه بورى :

«لا شيء ! لا شيء ! مسألةتافهة ! لقد كنا نتحدث عن ريازانتريف . كلام فارغ » .

وضحك ضحكة مستكرهة فنظر أبوه إليه شزراً وارتسمت على وجهه دلائل الغضب وصاح به :

ـــ « ماذا بالله كنت تقول لها ؟ » .

وهز كتفيه واستدار وخرج .

فطار طائر بورى وهم بأن يجيبه جواباً عنيفاً وقحاً ولكن ما خالجه من الحياء أسكته وعقد لسانه . وجاش بصدره الغيظ من أبيه والتوجع لليالياوالاحتقار لنفسه فلم يسعه إلا أن ينحدر إلى الحديقة وداس وهو يمشي ضفدعة تمتق فسحقها وكادت تزل قدمه فوثب صائحا محنقاً . وجعل يمسح قدمه مدة طويلة على الحشائش الطويلة وقد سرت في ظهره رعدة باردة .

وعبس وأغسراه الاشمئزاز الجثماني والعقلي باعتبار كل شيء مثيراً مستفزاً حميراً . وتلمس الطريق إلى مقعد جلس عليه وشخص بعينه إلى الحديقة غير معتمد شيئاً على التعيين بنظره ولم ير إلا رقعاً عريضة سوداء في الظلام الشامل واصطخبت في صدره ورأسه الخواطر السوداء .

ورمى بعينه إلى حيث كانت تموت تلك الضفدعة الصغيرة المسكينة أو حيث ماتت بعد كرب وألم هائلين . فكأنما ماتت دنيا بأسرها وزهق عالم برمته فيالها من حياة مفردة مستقلة لقيت حتفها الشنيع ولم يحسها أحد ولا سمع بها ديار !

واستطرد يورى من ذلك إلى خاطر مقلق غريب هو أن كل ما يكون الحياة من غرائز الحب أو البغض الخفية التي تدفع المرء إلى قبول شيء بعينه ورفض آخر — وإحساسه الفطرى بالخير والشر ، كل هذا ليس إلا ضباباً رقيقاً يغطى شخصيته وحدها ويلفها ويحجبها . فأما أعمق تجاريبه وأوجعها فلا يكترث لها العالم فى جملته الهائلة كما لم يكترث لمصرع هذه الضفدعة الصغيرة . وكان قبل ذلك يتصور أن آلامه وعواطفه تعنى غيره فنسج من هذه العلاقة شبكة معقدة بينه وبين الوجود كان مصرع الضفدعة كافياً لتحطيمها والقضاء عليها فتركه ذلك مستفردا يعوزه العطف والغفران .

ثم كرت خواطره إلى سميونوف وإلى ما بدا له من استخفافه بالمثل العليا التي استغرقت نفسه هو وملايين غيره من الناس فراح يفكر فى لذة الحياة الخالصة وفى سحر المرأة الجميلة وضوء القمر والبلابل وهو موضوع كان قد شغل خواطره فى اليوم التالى لآخر حديث جرى له مع سميونوف ولم يكن يومئذ يفهم لماذا يهتم سميونوف بالتافه من الأمور كركوب زورق أو وجه فتاة حسانة ، وكيف يأبى أن يكترث لأسمى الآراء وأعمقها . فأما الآن فقد أدرك أن هذا لم يكن منه بد وأنه لا سبيل إلا إليه إذ كانت هذه الأمور التافهة هى التي تتكون منها الحياة . الحياة الحقيقية الغاصة بالإحساسات والعواطف والمتع واللذات — أما تلك الآراء السامية العميقة فليست إلا عبارات جوفاء باطلة لا يسعها أن تؤثر أضأل تأثير فى ذلك السر الضخم المحجوب وراء الحياة والموت . وهب لهذه الآراء قيمة ووزناً فستعفى عليها وتحل محلها فى المستقبل آراء أخرى ليست دونها خطراً وأهمية .

ولما انتهى إلى هذه النتيجة التي نشأت على غير انتظار من آرائه في الخير والشر حار واضطرب وأحس كأنما يواجه فراغاً هائلا وتحرر ذهنه لحظة وصفا وشعر بالقدرة التي يشعر بها الحالم على السبح في الفضاء إلى حيث أحب دون أن تقعد به قيود المادة فأفزعه هذا الإحساس وجاهد بكل ما وسعه من قوة أن يجمع آراءه المألوفة في الحياة فزايله هذا الإحساس المرعب وعاد كل شيء جهماً مثالا في نظره كما كان .

وكان بوري يقول بأن الحياة هي تحقيق الغريزة وأن من الطبيعي على ذلك أن يبغي المرء في حياته اللذة وأن يعيش لها . وعلى هذا تكون وجهة نظر ريازانتزيف — على انحطاطها — منطقية معقولة إذ كان لا ينشد إلا سد حاجاته الجنسية ما أمكنه ذلك لأنها ألح الحاجات وأعنفها . ولكن هذا جره إلى القول بأن الفسوق والطهر ليسا إلا أوراقا ذاوية تكسو الحشائش النضيرة الجديدة وأن لمثل لياليا وسينا كرساتينا من الفتيات الطاهرات الحق كل الحق في الارتماء في تيار اللذة الجثمانية . فأحس لهذا الخاطر صدمة واستقذره ورآه عبثاً وصبيانية وعالج أن ينفيه عن ذهنه وقلبه بعباراته الجادة القاسية المألوفة فقال وهو ينظر إلى السماء :

« نعم . إن الحياة هي الشعور ولكن الناس ليسوا بهائم لا تعقل وعليهم أن يحكموا شعورهم وعواطفهم وأن يضبطوها وأن يوجهوا رغباتهم إلى ما هو خير . ولكن أثم إله فيما وراء هذه النجوم ؟ » .

وما كاد يسأل نفسه هذا حتى شاع في جوانب نفسه إحساس مضطرب مؤلم رهيب كاد يسحقه وألح بالنظر على نجم وضيء في ذيل الدب الأكبر وذكر أن كوسما الفلاح صاحب حقل البطيخ سمى هذه المجموعة الجليلة من النجوم « عجلة أثقال » وضايقه أن يذكر هذا الوصف المرذول الوضيع وشخص إلى الحديقة المظلمة السوداء بنظره كأنما يريد أن يقابل بينها وبين السماء الوضيئة وأن يفكر فيهما ويتدبر أمريهما . ثم قال لنفسه :

« إذا حرم العالم طهر المرأة وحسنها وهما باكورة أزهار الربيع فماذا عسى أن يبقى للإنسان مما هو مقدس جليل ؟ » .

وصور لنفسه وهو يقول ذلك سربا من الغادات الفاتنات كأزهار الربيع جالسات فى ضوء الشمس على المروج الخضراء فى ظل الأغصان المتهدلة بالثمار والنوار وجعلت صدورهن واكتافهن الرقيقة البديعة التكوين واعضاؤهن اللينة تتحرك أمام عينيه وتشيع فى جسمه هزات لذة سارة وكأنما أدارت رأسه هذه الصورة فأمر يده على جبينه يمسحه بها .

وجعل يسائل نفسه « لماذا يثور ثائرى لأن ليالبا ليست بأول من أحب ريازانتزيف ؟» .

ولم يدر كيف يجيب عن سؤال كهذا ثم مثلت لعينه فجأة صورة سينا كرسافينا فقر ثائر نفسه . وحاول أن ينيم إحساساته التى ايقظتها هذه الصورة ولكنه كان كلما عالج ذلك يزداد شعوراً بما يجعله ينشدها كما هى: نقية لم تمسسها يد .

وقال لنفسه لأول مرة « نعم ولكنى أحبها » .

ونفى هذا كل ما عداه من الخواطر واستحوذ على نفسه حتى جالت الدموع فى عينيه . وما هى إلا برهة ثم راح يسأل نفسه وعلى وجهه ابتسامة مرة :

« لماذا إذاً توددت إلى سواها من النساء قبلها ؟ نعم إنى لم أكن أدرى أنها موجودة . وكذلك لعمرى لم يكن ريازانتزيف يعرف ليالبا . وكان كلانا وقتئذ يحسب أن المرأة التى يشتهى أن يفوز بها هى الوحيدة التى لا غنى له عنها وكنا فى ذلك على ضلال ولعلنا الآن مخطئون أيضاً . فلا معدى لنا عن إحدى اثنتين : أن نحب أبداً أو أن نتمتع بالحرية الجنسية دون قيد ما ونبيح للنساء مثل ما أبحنا لأنفسنا . وعلى هذا لا يكون ريازانتزيف ملوما من أجل أنه أحب نساء غير ليالبا بل من أجل أنه لا يزال على صلة بعدة منهن . وليس هذا مما أصنع أنا فى شىء » .

وزهاه هذا الخاطر وأشعره الطهر ولكن هذا الإحساس لم يدم إلا هنية ثم ذكر ما تخيله من منظر الفتيات الجميلات اللينات في ضوء الشمس وغلبه ذلك حتى ملك عليه حواسه وصار ذهنه ميدانا تتدافع فيه الخواطر المتناقضة واتعبه النوم على جانبه الأيمن فانقلب وتمطى على الأيسر وقال يخاطب نفسه :

« الحقيقة أنه ما من امرأة عرفتها تستطيع أن ترضيني طول حياتي والذي أسميته الحب الحقيقي مستحيل لا سبيل إلى تحقيقه ومن الهذيان أن يحلم المرء بشيء كهذا » .

ولم يجد للتمطي على جانبه الأيسر ما قدره من الراحة فعاد إلى الأيمن وهو قلق يتصبب تحت الغطاء الدافيء وتصدع رأسه .

« إن العذرية مثل أعلى رقى تحقيقه نماء الإنسانية فهي إذا جنون — والحياة ماذا هي إن لم تكن بالجنون كذلك ؟ » .

وكاد ينطق هذه الكلمات بصوت عال وعض على نواجذه حتى أومضت لعينيه نجوم صفر .

وهكذا ظل إلى الصباح يتقلب وقد أثقلت قلبه وذهنه الخواطر المؤلمة ولما أراد أن يتخلص منها راح يقنع نفسه أنه هو أيضاً أناني شهواني مستهتك وأن شكوكه ليست إلا نتيجة الشهوة المخبوءة . غير أن هذا لم يزده إلا مضا ولم يرفه عنه إلا هذا السؤال البسيط :

« لماذا أعذب نفسي هكذا ؟ » .

وأحنقه عبث هذا التشريح لنفسه ونفدت قواه فنام .

(١٥)

بكت لياليا في غرفتها طويلا ووجهها مخبوء في الوسائد حتى أخذ عينيها الكرى وقامت في الصباح برأس متصدع وعين منتفخة وكان أول ما خطر

لها ان البكاء لايجمل بها لأن ريازانتزيف سيتغدى معها وأخلق به إذا دى لجت فى البكاء أن يروعه منظرها وهيئتها ثم ذكرت أن الأمر انقضى بينهما فألهبت هذه الذكرى حبها وأشعرتها ألماً مراً فبكت من جديد وقالت وحاولت أن تحبس دموعها :

« يالها من نذالة وشناعة ! ولماذا ؟ لماذا؟ » .

وجعلت تكرر هذا السؤال كأنما غلبها البث والحزن على الحب الذى ضاع وأهاجها أن ريازانتزيف كان يكذبها ابداً على هذا النحو .

« وليس هو بالكاذب وحده بل كل من عداه كانوا يكذبون مثله . كانوا يدعون أنهم أتم مايكونون سروراً بوشك زواجنا ويزعمونه رجلا شريفا طيبا ! لا لا ! إنهم لم يكذبوا فى الواقع ولكنهم لم يروا أن زواجنا خطأ . وما أشنع ذلك منهم ! » .

وهكذا خيل لها أن كل من حولها أشرار بغيضون فأسندت جبينها إلى زجاج النافذة ونظرت إلى الحديقة من خلال دموعها وكانت الحديقة فى ثوب من الجهامة . والمطر يضرب زجاج النافذة فلم تدر أيهما حجب الحديقة عن عينها : المطر أم دموعها . وكانت الاشجار كاسفة ولم يزل القطر عن أوراقها الصفراء ولا تكاد تبدو غصونها السوداء من خلال خطوط الديمة السحاحة المسكوب التى أحالت ممشى الحديقة مستنقعاً من الطين .

وأحست ليااليا أنها شقية وأرسلت طرفها إلى المستقبل فلم تر فيه نجم أمل واحد يومض وكرت إلى الماضى فإذا هو مظلم .

وجاءت الخادمة تدعوها إلى الإفطار فسمعت ليااليا ألفاظها ولكنها عجزت عن فهم معناها .

ولما جلست إلى المائدة ألفت نفسها مرتبكة كلما خاطبها أبوها ولم يخامرها شك فى أن كل الناس قد أحاطوا علماً الآن بغدر حبيبها وزيف حبه فبادرت إلى العود إلى غرفتها وجلست مرة أخرى تنظر إلى الحديقة الساهمة الموحشة .

« لماذ يغدر ؟ وما الذى يدفعه إلى إيذائى وإيلامى ؟ أترى يفعل هذا لأنه لا يحبنى ؟ كلا ! إن توليا يحبنى وأحبه . إذاً فماذا ؟ إن الأمر هذا : لقد خدعنى وكان فى خلال ذلك يخطب وداد كل امرأة مقبوحة . فياعجباً ، أأحببنه كما أحبه ؟ »

سألت نفسها ذلك فى دلال وحرارة ثم قالت :

« تالله ما أحمقنى ، ما خير أن أقطع قلبى بالأسى والتفكير فى هذا ؟ لقد خاننى عهدى فانقضى الأمر بينى وبينه ، آه ، ما أتم شقاوتى ! نعم يحق لى أن أقطع قلبى أسى ، لقد غدر بى ، وكان يجدر به أن يعترف لى بذلك على الأقل ولكنه لم يفعل ، فيالها من نذالة ، يقبّل زمراً من النساء غيرى ، ولعله أيضاً ...... يا للشناعة ، ويحى لقد صرت شقية ! ».

ثم غنت نفسها :

« وثبت ضفدعة فى الطريق ورجلاها ممدودتان » .

تلك كانت اغنيتها وهى تنظر إلى ضفدعة صغيرة تثب فى الطريق الزلى . ثم عادت تحدث نفسها بعد أن اختفت الضفدعة بين الحشائش :

« نعم أنا شقية وقد قضى الأمر . وما كان أحلى ما مر بى من عهد حبى هذا وأحفله بالغرائب الممتعة أما هو .. فلم يكن الأمر فى نظره إلا مسألة عادية مألوفة ! وأحسبه لهذا كان يحاذر أن يحدثنى عن ماضيه ! وهذا أيضاً فيما أظن سر ما كان يبدو لى من غرابة شأنه ومن هيئة التفكير التى كانت تلازمه . كأنما كان يقول لنفسه أبداً « إنى خبير بهذا وأنا أعرف ما تحسينه واستطيع أن أتكهن بالنتيجة بينما كنت أنا طول هذا الزمن ... آه ما أفظع هذا وأشنعه ! ألا لن أحب أحداً بعد ذلك ! » .

ثم بكت مرة أخرى وأسندت خدها إلى الزجاج البارد وشخصت بعينها إلى العالم السائر ولم تكف عن مناجاة نفسها :

« ولكن توليا سيحضر للغداء اليوم ! » .

وارتجفت لهذا الخاطر :

« فماذا عسى أن أقول له ؟ ماذا ينبغى لمثلى أن يقول لمثله فى هذه الأحوال ؟ » .

وفتحت فمها وأثارت نظرها إلى الحائط :

« لابد لى من سؤال يورى فى هذا . إنه ما أطيب يورى وأقومه ! » .

وجالت دموع العطف فى عينيها . ولما كانت لم تألف أن ترجىء أمراً ماقصدت إلى أخيها فى غرفته حيث ألفت معه شافروف يناقشه فى مالا تعلم فوقفت مترددة فى الباب وقالت بشىء من الذهول :

« عما صباحاً » .

فأجابها شافروف :

« عمى صباحا ! تفضلى بالله ياليليا ! إنه لاغنى لنا عن عونك فى هذا الأمر » .

فلم يفارقها ارتباكها واطاعت وجلست إلى المنضدة وجعلت تعبث بأصابعها ببعض الأوراق الخضراء والصفراء المكومة فوقها .

والتفت إليها شافروف التفاتة من يهم بجلاء معضل وقال :

« المسألة هى أن كثيرين من زملائنا فى كورسك فى ضيق وكرب شديدين ولابد لنا من بذل كل ما يسعنا بذله لمساعدتهم ومن أجل هذا فكرت إحياء ليلة فهل توافقين ؟» .

فأذكرها سؤاله وعباراته المألوفة ماجاءت من أجله إلى أخيها فنظرت إليه بعين ملؤها الأمل وقالت وهى تعجب لماذا يتق يورى لحظها :

« لم لا ؟ إنها فكرة حسنة جداً ! » .

وكان يورى بعد الذى شهده من بكاء أخته وما كابده من الخواطر المقلقة طول الليل — يحس أنه أشد اكتئاباً وحزنا من أن يستطيع أن يكلم أخته . ولقد توقع أن تقصد إليه طلباً لمشورته ولكنه شعر أن الإشارة عليها بشىء مرضى

مطلب بعيد . كذلك من المستحيل استرداد ماقاله ليرفه عنها ويسرى أحزانها وليدفعها إلى ذراعى ريازانتزيف . ولم يشعر بالقدرة على القضاء على سعادتها الوليدة .

وعاد شافروف إلى الكلام ودنا من ليانيا كأنما زاد الأمر تعقداً أو إشكالا :

« حسن . إن الذى قررنا أن نفعله هو هذا : نريد أن نطلب إلى ليدا سانين وإلى سينا كرسافينا أن يغنيا — كلى منهما على حدة أولا ثم بعد ذلك معاً وليس أصلح من صوتيهما للغناء المشترك فإذا فرغا عزفت على الكمنجا ثم بعد ذلك يغنى ساروودين ومعه تاناروف » .

فسألته ليانيا بلا تعمد وهى تفكر فى شىء آخر :

« إذاً فسيشترك الضباط فى الحفلة أليس كذلك ؟ » .

فصاح شافروف ولوح بيده :

« نعم بلاشك ، وما على ليدا إلا أن تقبل فتلتف بها جمهرة منهم كالزنابير . أما من حيث ساروودين فهذا يسره أن يغنى وهو لايكترث للمكان مادام يستطيع أن يغنى وسيجتذب غناؤه عدداً جماً من زملائه الضباط فيغص المكان » .

فرمت ليانيا إلى أخيها بنظرة ذات معنى وقالت :

« يجب أن تدعو سينا كرسافينا » .

وحدثت نفسها قائلة :

« لا أحسبه قد نسى . كيف يكلمنى فى شأن هذه الحفلة وأنا ...... » .

فقال شافروف :

« لقد قلت لك منذ هنيهة أننا دعوناها ! » .

فقالت ليانيا :

« نعم قلت ذلك » .

وابتسمت : « وهناك أيضاً ليدا ولكنك ذكرت اسمها فيا أظن ؟ » .

قال شافروف : « نعم فعلت . ومن ندعو غيرها ؟ » .

فتمتمت لياليا :

« لا أدرى والله ! .... إن برأسى صداعاً » .

فنظر يورى إلى أخته مسرعا ثم استأنف الإكباب على الأوراق وحرك عطفه عليها أصفرارها وثقل جفونها وقال لنفسه :

« لماذا قلت لها كل هذا ؟ إن المسألة غامضة مستبهمة المعالم فى رأيى ورأى الكثيرين من الناس . ولا مفر للمسكينة الآن من تعب القلب والخاطر . فلماذا خبرتها ؟ » .

وأحس كأنما سيهم بتمزيق شعره .

وفى هذه اللحظة دخلت الخادمة وقالت :

« سيدتى إن المسيو أناتول بافلوفتش قد حضر ! » .

فأسرع يورى وألقى إلى أخته نظرة فزعة فالتقت عينه وعينها فأشاحت لارتباكها بوجهها عنه إلى شافروف وقالت على عجل :

« هل قرأت شارل برادلاف ؟ » .

أجاب : « نعم قرأنا بعض كتبه مع دوبوفا وسينا كرسافينا . إنها ممتعة ! » .

قالت : « نعم . أو قد عادتنا ؟ » .

أجاب : « نعم » .

فسأل يورى وكتم انفعاله :

« متى ؟ » .

قالت : « منذ أول من أمس » .

فقال يورى : « حقاً ؟ » .

ونظر إلى أخته وخجل منها وأحس الخوف فى حضرتها كأنما كان قد خدعها .

وظلت ليالياً لحظة وهى واقفة مترددة تعبث بأصابعها بكل شىء ثم دنت من الباب .

فقال يورى مخاطبا نفسه « وبحى ماذا صنعت ؟ » وأصغى وهو مكروب إلى وقع قدميها المتعثرتين .

ومضت ليالياً إلى الغرفة الثانية مترددة حزينة وأحست كأنما جمد الدم فى عروقها وكأنما هى تائهة فى غابة مظلمة فتقدمت إلى مرآة ورأت فى صقالها وجهها المقطب وقالت تحدث نفسها :

« سيرانى بهذا الوجه ! » .

وكان ريازانتزيف واقفاً فى غرفة المائدة يقول لنيقولا بصوته العالى :

« بديهى أن هذا غريب ولكنه لا بأس منه » .

فلما سمعت ليالياً صوته خفق قلبها خفقاً عنيفاً كأنما يهم أن يتمزق وأبصرها ريازانتزيف تكف فجأة عن الكلام وتقدم إليها وذراعاه مفتوحتان ولم يكن أحد سواها يعلم أن هذه الإشارة دليل على أنه يريد أن يحتضنها .

فرفعت إليه طرفها فى حياء وارتجفت شفتاها ونزعت كفها من كفه دون أن تنبث واجتازت الغرفة وفتحت الباب الذى يفضى إلى الشرفة وجعل ريازانتزيف يرقبها وهى تفعل ذلك — وهو هادىء غير أن به بعض الدهشة . والتفت إلى أبيها وقال بوقار المازح :

« إن لود ميللا نافرة ! » .

فانفجر الأب نيقولا يضحك وقال :

« الأولى أن تذهب إليها وتتألفها » .

فتنهد ريازانتزيف وقال بهيئة مضحكة وهو يتبعها إلى الشرفة :

« ليس ثم غير ذلك » .

وكان المطر لايزال يهطل وفى الجو صوت قطراته المتساقطة المملة ولكن السماء كانت أصفى والسحب متقطعة .

وكانت لياليا واقفة وخدها الى أحد عمدان الشرفة والمطر يضرب يدها العارية وشعرها مبتل

فقال ريازانتزيف وهو يدنو منها

« أن سيدتى غاضبة . . . . . . ليالييتشكا ! . . . »

ومنح شعرها المطر البابل قبلة خفيفة فأحست كان شيئاً يذوب فى صدرها ويتحلل وأقبلت عليه وهى لاتدرى ماتصنع وطوقت عنق حبيبها القوى بذراعيها وامطرته وابلا من القبلات وهى تقول بينها :

« إنى مستاءة جداً جداً منك . . . أنت رجل شرير »

وكانت فى خلال ذلك تقول لنفسها أن ليس فى الأمر بعد كل مايقال سوء لاسبيل الى إصلاحه كما حسبت من قبل . وماذا يهم ؟ أن كل ماتريده هو أن تحب هذا الرجل الكبير الجميل وأن يحبها .

ولما جلسا بعد ذلك الى المائدة آلمها من أخيها نظرة اليها مستغربة وما سنحت لها الفرصة حتى أسرت اليه « أن هذا منى فظيع وأنا أعرف ذلك »

فلم يزد على أن ابتسم ابتسامة مجتوأة .

وكان يورى فى الواقع قد سره أن الأمر انتهى على هذا الحال الحسن وإن كان على هذا قد ذهب يدعى استنكار هذا التسامح العامى واحتقاره فانسحب الى غرفته ومكث بها وحده الى المساء

ولما آذنت الشمس بالمغيب ورأى السماء صافية احتمل بندقيته على نية الذهاب للصيد فى حيث صاد هو وريازانتزيف أمس .

وكان المطر قد أكسب هذه البركة حياة جديدة فكان المرء يسمع

أصواتاً غريبة كثيرة والحشائش تترتح كأنما تحركها قوة حيوية خفية والضفادع تنقنق جماعات والطيور من حين إلى حين ترسل أصواتاً حادة متنافرة والبط يصيح بين الأعشاب والأكلاء البالية على مقربة من يورى وأن كان أبعد من مدى بندقيته . ولم يحس الرغبة فى الصيد فاحتمل بندقيته وانثنى آيبا يصغى الى أصوات الصفاء البلورى فى الغسق الساكن ثم قال :

« ما أجمل هذا كل شىء جميل الا الإنسان فهو وضيع . »

وأخذت عينه النار موقدة على بعد فى حقل البطيخ ولما اقترب عرف فى ضوئها وجهى كوسيما وسانين فاستغرب ونزعت نفسه الى استطلاع السر

« ولماذا يدأب على المجىء الى هنا ؟ »

وكان كوسيا جالساً الى جانب النار يقص حكاية وهو يضحك ويومىء وسانين يضحك كذلك وكان لهيب النار خفيفا كلسان الشمعتوردنيا لاأحمر قانياً كما يكون فى ظلمة الليل . وفى قبة السماء الزرقاء طلائع النجوم تتوامض وفى الجو رائحة الجدة غب المطر وشذى النبات المطلول .

وخاف يورى لسبب ما أن يرياه وأحزنه فى الوقت نفسه أن لايستطيع أن يلحق بهما ويكون معهما فكأنما قام بينهما وبينه حجاز كاذب غير مفهوم أو فضاء لاجو فيه أو بون لاسبيل الى تخطية . .

وثقلت على نفسه وطأة هذا الإحساس بالعزلة . وتجسم له أنه منفرد وحيد وأنه واقف بمعزل عن هذه الدنيا بأصواتها وألوانها وتيرانها ونجومها وأصواتها الآدمية كأنما هو ملقى به فى غرفة حالكة وبلغ من جثوم هذا الشعور بالوحدة أن خيل له وهو يجتاز حقل البطيخ حيث كانت مئات منه أن هذه ليست سوى جماجم آدمية مبعثرة فوق ظهر الأرض .

(١٦)

جاء الصيف بالحرارة والدفء فكان الجو بين الارض الساخنة والسماء

الزرقاء المشرقة الصفحة كأنما يغشاه ويسبح فيه نقاب خفيف من البخار الذهبي وكأنما أرهق الحر الأشجار فنامت وألقت أوراقها المتدلية الساكنة ظلالا شفافة قصيرة على الثرى الظامىء الجاف . وفي البيوت الرطوبة . والحدائق ترسل ألواناً خضراء باهتة ترسمها الأضواء على السقوف وكل شيء ساكن ما خلا الستائر المجموعة إلى جوانب النوافذ . هذه وحدها كان النسيم الواني يعابثها .

وكان ساروديين في جاكتة من التيل مفكوكة الازرار يقطع أرجاء الغرفة في بطء وهو يدخن سيجارة في كسل وفتور ويكشف عن أسنانه الكبيرة البيضاء . وعلى الكنبة تاناروف في ثياب الركوب متمطياً يلحظ ساروديين بعينيه الصغيرتين السوداوين . وكان في أشد الحاجة إلى خمسين روبلا وقد طلب إلى ساروديين مرتين أن يسلفه أياها ولم يجرؤ على معاودة الكرة مرة ثالثة . فجعل ينتظر في قلق أن يعود ساروديين من تلقاء نفسه إلى الموضوع ولم يكن ساروديين قد نسي ولكنه كان قد قامر وأضاع سبعمائة روبل في الشهر الماضي فضن على صاحبه بأي قرض آخر . وكان يقول لنفسه وهو ينظر إلى تاناروف إذ يمر به « أن عليه لي مائتي روبل وخمسين روبلا . وهذا مدهش حقاً ! نعم نحن صديقان حميمان الخ ولكني أعجب له كيف لا يخجل . أنه على الأقل يستطيع أن يعتذر إلى من أنه مدين لي بكل هذا المبلغ . كلا . لن أقرضه درهما واحداً آخر » .

ودخل في هذه اللحظة خادمه وهو جندي صغير الجسم منقط الجلد ووقف بشكل محتوى وحيا وقال وهو لا ينظر إلى ساروديين :

« سيدتي لقد طلبت جعة ولكنه لم يبق منها شيء »

فنظر ساروديين على غير إرادته إلى تاناروف وأحمر وجهه وقال لنفسه :

« حقاً أن هذا أكثر مما يطاق ! أنه يعلم ما أنا فيه من الضيق ومع ذلك لا بد من الجعة ! » .

وزاد الخادم على خبره السابق :

« والباقى من الفودكا قليل أيضاً »

قال « حسن . لعنة الله عليك ! أنه لا يزال معك روبيلان فاذهب واشتر ما تريد » .

أجاب « عفواً سيدى فليس معى شيء على الإطلاق » .

فوقف ساروديـن وصاح به :

« كيف هذا ؟ ماذا تعنى بالكذب على ؟ » .

قال « عفواً ياسيدى . لقد أمرت أن أنقد الغسالة روبيلا و٧٠ كوبيك ففعلت ووضعت الثلاثين الباقية على المنضدة » .

فقال تانارف متكلفا عدم الاهتمام وإن كان على هذا قد احمر خجلا :

« نعم هذا صحيح . لقد أمرته بهذا أمس وكانت المرأة لم تزل تعقبنى منذ أسبوع وأنت تعلم ذلك » .

فبدت على خدى ساروديـن الحليقين المصقولين نقطتان حمروان وتقبضت عضلات وجهه واستأنف رواحه ومجيئه فى صمت ثم ما عتم أن وقف بغتة أمام تانارف وقال والغضب يرعش صوته :

« اسمع . إنى أكون شاكراً جداً إذا تركتنى أدير شئونى المالية فى المستقبل » .

فاحتقن وجه تانارف وتمتم وهو يهز كتفيه :

« هـ . م ! ومسألة تافهة كهذه ! » .

فقال ساروديـن :

« أنها ليست مسألة توافه . بل مسألة مبدأ . فهل تسمح لى أقول لك بأى حق . . . » .

أجاب « أنا . . . » .

وقاطعه ساروديـن بنفس هذه اللهجة الجارحة وقال :

— « أرجوك أن لا تشرح لى شيئاً . وليس يهمنى إلا أن أرجوك أن لا تستعمل هذه الحرية مرة أخرى » .

فارتجفت شفتا تاناروف وتدلى رأسه وجعلت أصابعه تعبث « بفم » سيجارة .

وبعد لحظة استدار سارودين بحدة وأخرج مفاتيحه وفتح درج مكتبه وقال :

« خذ واذهب واشتر ما تريد ! » .

قال ذلك بصوت أهدأ وأعطى الجندى ورقة بمائة روبل .

فقال الخادم : « حسن يا سيدى » .

وحيا وخرج .

ثم أغلق سارودين صندوق نقوده ورد الدرج وأدار فيه المفتاح واستطاع تاناروف أن يرى الصندوق الذى يحتوى الخمسين روبيلا التى به الحاجة إليها ثم تنهد وأشعل سيجارة وهو على أشد ما يكون ألماً ولكنه خشى أن يظهر ألمه لئلا يزداد سارودين غضبا واكتفى بأن يقول لنفسه :

« ما قيمة روبيلين عنده ؟ أنه يعلم علم اليقين أنى فى ضيق شديد » .

وظل سارودين يروح ويجيء فى الغرفة والغضب باد عليه إلا أنه كان يهدأ شيئا فشيئا ولما عاد الخادم بالجعة كرع كوبا من هذا الشراب المرغى المثلج بالتفداد واضح وبعد أن مص حافة شاربيه قال كأنما لم يكن قد حدث شيء :

« لقد عادت ليدا إلى أمس ! تالله ما أحلاها ! حارة حامية ! » .

وكان تاناروف لا يزال متوجعا فلم يجبه ولم يلتفت سارودين إلى صمته . واجتاز الغرفة فى بطء وفى عينه ضحكة ذكرى مكتومة . وجعل الحر كيانه القوى الصحيح أحس بتأثير الخواطر المثيرة . ثم ضحك ضحكة قصيرة فكأنما كان يصهل ثم وقف وقال :

« تعلم أنى البارحة حاولت ... »

وهنا استعمل لفظة خشنة وضيعة لا يليق أن يشار بها إلى امرأة واستأنف الكلام .

« فتأبت قليــلا فى أول الأمر : بالنظرة عينيها ! أنت بالضرورة تعرف » .

فابتسم تاناروف ابتسامة الشهوان وقد ثارت غرائزه الحيوانية .

وقال ساروديِن والذكرى ترعش منه .

« ولكن بعد ذلك لانت أعطاف الأمور . لم تمر بي مثل هذا الوقت فى حياتى كلها » .

فقال تاناروف حاسداً أياه :

« ما أسعد حظك ! » .

وصاح بهما صوت من الشارع :

« هل ساروديِن هنا ؟ أندخل ؟ » .

وكان السائل هو إيفانوف ففزع ساروديِن وأشفق من أن يكون ما قاله عن ليدا قد سمعه أحد ولكن إيفانوف كان يناديه من السكة ولم يكن بحيث يرى فصاح به ساروديِن من النافذة .

« نعم . نعم هنا » .

وعلت فى الغرفة الأخرى جلبة ضحك ووقع أقدام كأنما غزا البيت جيش من أهل القصف ثم دخل إيفانوف ونوفيكوف والكبتن مالينوسكى وضابطان آخران وسانين وصاح مالينوسكى وهو يدفع نفسه داخلا الغرفة .

« هوراه ! كيف أنتم أيها الصبيان ؟ »

وهو رجل وجهه أحمر وخداه سمينان طريان وله شاربان كأنهما عودين من القش .

وقال ساروديِن يحدث نفسه مغضبا :

« وستذهب أيضاً ورقة بخمسة وعشرين روبيلا ! »

ولكنه لم يكن يحب أن تسوء سمعته وأن يظن به إلا أنه غنى كريم فصاح بهم وهو يبسم لهم :

« هللوا ! أين أنتم ذاهبون جميعاً ! آتون إلى ؟ هيا ياشيربيانوف هات لنا فودكا وسائر مانحتاج إليه . أجر إلى النادى وائت بشىء من الجعة . أنتم تريدون جعة أليس كذلك ياسادة ؟ فى مثل هذا الحر ؟ »

ولما جاء الخادم بالجعة والفودكا زادت الضجة وعلت الجلبة وصاروا جميعاً يضحكون ويصيحون ويشربون كأنما آلوا أن يحدثوا أكبر صخب ممكن . ولكن نوفيكوف كان مطرقا مكتئبا وعلى وجهه الطيب أمارات منذرة . ولم يكن قد عرف إلا أمس ماتلغط به البلدة فطغت به فى أول الأمر الغيرة والشعور بالمهانة ثم قال لنفسه .

« إن هذا مستحيل ! سخافة مطبقة وحديث خرافة » .

وأبى أن يصدق أن ليدا الجميلة المزهوة البعيدة المنال — ليدا التى يحبها من أعماق قلبه — يمكن أن تكون قد تورطت على نحو مخز مع مخلوق مثل سارودين الذى يعده نوفيكوف دونه ذكاء ومواهب . ثم استحوذت على نفسه الغيرة الجامحة الحيوانية ومرت به لحظات يأس مرة فكانت تمزق قلبه الكراهية لليدا ولسارودين على وجه أخص . وهو إحساس لا يلائم مزاجه الهادىء اللين فكان لذلك يتطاير منفذا ومتنفسا وظل الليل كله يرثى لنفسه بل لقد خطر له الانتحار غير أنه ماكاد الصبح يتنفس حتى نازعته رغبة جامحة طاغية غامضة أن يرى سارودين .

ولما جاء انتحى ناحية وجعل يكرع السكأس أثر الكأس وعينه ترصد كل حركة لسارودين كما يرصد الوحش فى الغابة قرينه الوحش — متظاهراً بأنه لا يرى شيئاً ولكنه على هذا أتم ما يكون استعداداً للوثوب — وكان كل ماله علاقة بسارودين — ابتسامته وأسنانه

البيضاء وقسمات وجهه المليحة وصوته — كل هذه كانت سهاما أو خناجر فى جرح رغيب فاغر .

وقال ضابط طويل نحيف له ذراعان طويلتان :

« ساروديين ! لقد جئت إليك بكتاب » .

وسمع نوفيكوف وسط الصخب العالى اسم ساروديين يذكر وملك أذنه صوته كذلك كأنما كانت ألسنة الحضور خرساء وقال .

— « أى كتاب ؟ »

فقال الضابط الهزيل ورفع صوته كأنما يلقى بياناً :

« إنه كتاب عن النساء بقلم تولستوى » .

وكانت على وجهه الطويل الضخم آيات الزهو والمباهاة بأنه يقرأ تولستوى ويبحثه .

فسأله إيفانوف وقد لاحظ دلائل هذا الزهو .

« أو تقرأ تولستوى ؟ »

وقال ماليتوسكى مجيباً عنه :

« إن فون دايتز مجنون بتولستوى » .

وتناول ساروديين الكتاب الصغير وقلب بعض صفحاته وقال .

« أهو لذيذ ؟ »

فقال فون دايتز بحماسة :

« سترى . لعمرى أنه لعقل ! ويخيل لك بعد قراءته كأنما كنت تعرف هذا من قبل ! »

فسأل نوفيكوف بصوت منخفض وعيناه إلى الكأس فى يده .

« ولكن لماذا تطلب إلى فيكتور سر جيفتش (ساروديين) أن يقرأ تولستوى مع أن له آراء خاصة عن النساء ؟ »

فقال ساروديين بحذر وقد استروح نية المحروم :

« ما الذى يجعلك تظن هذا ؟ »

فصمت نوفيكوف وكان يود أن يلطم سارودين على وجهه الحسن الذى ينم على الرضى عن النفس وأن يطرحه على الأرض ويلكزه لكزاً من طغى بصدره ورأسه جنون العاطفة . ولكن الألفاظ التى يطلبها خانته . وأدرك — وآلمه أن يدرك — أنه ينطق بما لا يريد حين قال :

« حسب المرء أن ينظر إليك ليعرف ذلك » .

فأحدثت لهجته الغريبة المنذرة سكوناً مباغتاً كأنما ارتكبت جريمة قتل وفطن إيفانوف إلى سر المسألة وقال ساوودين ببرود :

« يخيل إلى أن . . . . . »

وتغيرت هيئته قليلا وإن كان قد ملك عواطفه وضبطها .

فصاح بهما إيفانوف :

« مهلا مهلا يا سادتى ، ماذا حدث ؟ »

فقال سانين مقاطعاً :

« لاتدخل بينهما ، دعهما يقتتلان ويفرغان من الأمر » .

وعاد نوفيكوف فقـــال مجيباً ساروديين بنفس اللهجة وعيناه إلى كأسه :

« ليس فى الأمر تخيل وإنما هو كذلك » .

ولم يكد يقولها حتى حال بين المتنافسين حائط من اللحم والدم وكثر الصياح والتلويح بالأذرع وانطلقت الألسنة بعبارات المزاح والدهشة وأمسك مالينوسكى وفون دايتر بساروديين ورد إيفانوف والضباط الآخرون نوفيكوف وأترع إيفانوف الكؤوس وقال شيئاً غير معتمد أحداً بخطابه وصار السرور متكلفاً لا إخلاص فيه ، وأحس نوفيكوف أن خروجه واجب ولم يطق البقاء فابتسم ابتسامة خرقاء والتفت إلى إيفانوف والضباط الذين كانوا يحاولون أن يلفتوا نظره إليهم وقال يحدث نفسه .

« ماذا دهانى ؟ أحسب أن واجبى أن أضربه ... أن أهجم عليه وألكمه فى عينه ، وإلا عدونى طفلا إذ لابد أن يكونوا قد حزروا أنى أضحكك به .. »

ولكنه بدلا من أن يفعل هذا ادعى الاهتمام بما يقوله ايفانوف وفون دايتز .

وقال فون دايتز .

« أما من حيث النساء فلست أوافق تولستوى كل الموافقة » .

فقال ايفانوف :

« إن المرأة ليست إلا انثى . وقد تجد فى كل ألف رجل واحداً جديراً بأن يسمى رجلا فأما النساء ... ويحهن أنهن جميعاً سواء وليس إلا قردة عارية حمراء ولكنها بغير أذناب »

فقال فون دايتز موافقاً .

« ما أذكى هذا ؟ »

فقال نوفيكوف بمرارة .

« بل ما أصدقه ! »

واستمر ايفانوف ملوحاً بيديه قريباً من أذن صاحبه فقال .

« يا سيدى العزيز . اسمع . إذا ذهبت إلى الناس وقلت لهم (إن المرأة إذا نظرت إلى الرجل نظرة اشتهاء فقد زنت معه فى قلبها) — كان الأرجح أن يعد أكثرهم هذا القول صحيحاً مبتكراً » .

فأخرج فون دايتز ضحكة جشاء كأنها نباح الكلب ولم يكن قد فهم نكتة إيفانوف غير أنه على هذا آسف لأنه لم يقلها دونه .

وإنهم لكذلك وإذا بنوفيكوف تمد يده إلى فون دايتز فقال فون دايتز مستغربا :

« ماذا ؟ أذاهب أنت ؟ »

فلم يحر نوفيكوف جوابا . وسأله سانين :

« إلى أين ؟ »

فظل توفيكوف صامتا وهو يحس كان الألم المكتوم يوشك أن ينهمر دموعا .

فقال ساتين .

« إنى أعرف ما بك . ابصق على كل ذلك . »

فرمى إليه بنظرة من يرثى له وارتجفت شفتاه وأومأ إيماءة الأسف وخرج فى صمت والإحساس بعجزه يخامره فقال ليتسلى .

« ما خير أن ألطم هذا النذل على وجهه ؟ أن هذا ما كان ليفضى إلا إلى قتال سخيف ولخير لى أن لا ألوث يدى » .

ولكن النبرة الثائرة والإحساس بالعجز ظلا ضاغطين فعاد إلى بيته وهو فى أشد حالات الغم والأسى وألقى بنفسه على الفراش وأخفى وجهه فى الوسادة وظل كذلك بقية النهار وبه ما به من مرارة الشعور بأن لا حيلة له

* * *

وسأل ماليتوسكى زملاءه :

« الا نلعب الورق ؟ »

فقال إيفانوف :

« حسن جداً » .

وجاء الخادم بمنضدة اللعب وعليها غطاؤها الأخضر يستهويهم جميعاً . وكان اقتراح ماليتوسكى قد أيقظهم فجعل ينقل الأوراق بكفيه الصغيرتين الكثيرتى الشعر وانتشرت على المائدة الخضراء الأوراق الزاهية وسمع رنين الروبيلات الفضية بعد كل دور أو صارت الأصابع تطبق عليها كالعناكب ولم تند عن الأفواه إلا عبارات وجيزة مصرحة عن السرور أو الكمد .

وخذل الحظ ساروديين فذهب إلى العناد وأصر على المخاطرة فى كل شوط بخمسة عشر روبيلا وكان يخسرها فى كل مرة وصار وجهه ناطقاً

بالألم الشديد وكان فى الشهر الماضي قد قامر وخسر سبعمائة روبل يضاف إليها كل ما ذهب اليوم وأعدى غيره بسوء خلقه فلم يلبث فون دايتز وماليتوسكي أن تراشقا بالعبارات الجارحة

فصاح بهما ساروديين وألقى ورقة :

« ويحكم ما معنى هذا كله ؟ »

وفى هذه اللحظة ظهر قادم جديد فى مدخل الغرفة . فخجل ساروديين لانفجار مرجلى غضبه وانطلاق لسانه بعبارات العامة ولوجود هؤلاء الضيوف المخمورين الصاخبين ولأوراق اللعب وزجاجات الخمر وخيل اليه أن غرفته قد صار لها منظر الخمارة

وكان القادم رجلا نحيفا طويلا فى بدله بيضاء فضفاضة وأنيقة عالية فوقف على العتبة مذهولا وجعل يتأمل الحضور باحثاً عن ساروديين بينهم

فصاح ساروديين وتقدم لتحيته ووجهه كالجمر من الغيظ

« أهلا بك يا بافل لفوفتش ! ماذا جاء بك »

ودخل القادم بهيئة المتردد وصارت كل العيون قيد حذائيه الأبيضين الناصعين وهو يخطو بهما على حذر بين زجاجات الجعة وسداداتها وأعقاب السجاير وكان من البياض والنظافة والتعطر وحسن الهندام بحيث صار بين سحب الدخان المعقود فى جو الغرفة ومرسليها السكارى أشبه شيء بالزنبقة فى المستنقع لولا خورة وذبوله ولولا أن قسمات وجهه ضعيفة وأسنانه البادية تحت شاربيه الخفيفين الأحمرين — متداعية .

فقال ساروديين :

ومن أين جئت أغبت طويلا عن بتجر (١)

ثم أدركه الخوف من أن تكون بتجر لفظه لا يحمل مثله استعمالها

---

(١) اسم عامي لبترو غراد .

فقال الرجل ذو الثوب الأبيض بلهجه باتة وإن كان صوته كصياح الديك المكتوم :

« جئت أمس فقط » .

فقال ساروديين وقدمه إلى الحاضرين :

« هذا هو المستر بافل لفوفتش فلوتشين » .

فانحنى فلوتشين قليلا وقال إيفانوف وكان ثملا فأزعج ساروديين : يجب أن تدون هذا !

— « تفضل واجلس يافلوتشين . أتشرب نبيذاً أم جعة ؟ »

فجلس فلوتشين ببطء وحذر على كرسي ذي ذراعين فظهر تصوع ثوبه إلى جانب الغطاء القذر وقال ببرود ودارت عينه في الحضور :

— « أرجوك أن لاتتعب نفسك . انما جئت لأراك هنيهة »

فسأله ساروديين :

« كيف تقول هذا ؟ سأطلب لك نبيذاً أبيض . فإنك تحية أليس كذلك؟ »

وأسرع فخرج وهو يقول لنفسه :

لماذا شاء هذا الأحمق أن يأتي إلى اليوم ؟ إنه سيروي عني في بطرسبرج مايجعل من المستحيل على أن تطأ رجلي عتبة بيت محترم فيها »

وبعث خادمه ليشتري النبيذ

وفي خلال ذلك كان فلوتشين ينقد الحاضرين نقداً صريحاً وينظر اليهم نظر الموقن أنهم دونه بمراحل . ويقلب فيهم عينة الزجاجية تقليب من يعرض مجموعة من الوحوش ووقع من نفسه على وجه الخصوص قامة سانين ووثاقه تركيبه وثيابه فقال لنفسه

(هذا نوع ممتع ! ولابد أن يكون قويا !)

وبه إعجاب الضعيف الخوار للقوي الباطش . والواقع أنه ما عتم أن انطلق يكلم سانين غير أن سانين كان متكئا على حافة النافذة ينظر إلى الحديقة فكف فلوتشين عن الكلام وغاظه حتى صوته وحدث نفسه أن هؤلاء ليسوا الاحثالة الخلق

وعاد سارودين فى هذه اللحظة وجلس بجانبه وجعل يسأله عن بطرسبرج وعن مصنعه ليفهم الحاضرين أن زائره رجل ثرى خطير الشأن وبدت على وجهه الوسيم دلائل الزهو والغرور الحقير فأجابه فلوتشين بلهجة السأمان :

«كل شىء هناك كما كان ! وكيف حالك أنت ؟»

فقال سارودين وأخرج زفرة :

«إنى أعيش عيشة النبات»

فصمت فلوتشين ورفع طرفه بازدراء إلى السقف حيث كانت تلتمع الأضواء المنعكسة عن الحديقة .

وعاد سارودين إلى الكلام :

«إن سلوتنا الوحيدة هى هنا»

وأشار إلى الورق والزجاجات والضيوف .

فقال فلوتشين .

«نعم نعم ،»

وخيل لسارودين أن صاحبه يقول له «أنك لست بخير منهم ..»

ثم وقف فلوتشين يودع صاحبه وقال

«يجب أن أذهب الآن . إنى مقيم بالفندق القائم فى الميدان وأرجو أن أراك مرة أخرى ،»

وفى هذه اللحظة دخل الخادم وحيا بهيئة رثة وقال :

«سيدى أن السيدة الصغيرة هناك»

ففزع سارودين وصاح به :

«ماذا ؟»

اجاب : «لقد حضرت ياسيدى»

فقال سارودين :

«آه ! نعم سمعت»

وأدار لحظة فى الغرفة مضطربا وأوجس خيفة وقال لنفسه .

« أتراها ليدا مستحيل ! »

فالتمعت عين فلوتشين وكأنما استجد جسمه الصغير الضعيف فى ثيابه الواسعة البيضاء حيوته المفقودة فقال وهو يضحك :

« حسن أسعد الله مبارك . أراك لا تزال على عهدك القديم ها ها ! »

فابتسم سارودين وهو قلق وماشى زائره إلى الباب :

ولما عاد سارودين قال لرفقائه :

« والآن يا سادة . كيف يجرى اللعب ؟ خذ (البنك) عنى يا تاناروف إذا سمحت . وسأعود اليكم عاجلا »

وكان يتكلم بسرعة وعيناه قلقتان .

فتبعه مالينوسكي وكان قد سكر .

« وهذا كذب ! لا بد أن نشبع من النظر سيدتك الصغيرة هذه .. »

فأمسك تاناروف بكتفه ورده إلى كرسيه وعاد الباقون إلى أماكنهم حول المنضده وهم لاينظرون إلى سارودين وجلس سانين كذلك ولكن ابتسامته كان فيها شيء من الجد وكان قد أدرك أن ليدا هى التى جاءت وخالجه إحساس غامض بالغيرة و المرثية لأخته الجميلة التى صارت الآن فى كرب شديد .

(١٧)

جلست ليدا على سرير سارودين يائسة تلوى المنديل فى الاضطراب فلما دخل عليها لحظ تغير منظرها وحؤول هيئتها — فما بقى شيء من تلك الفتاة المزهوة الشامخة الرأس العالية الروح — ورأى أمامه امرأة محزونة حطمها الأسى وأغار من خديها وأخمد لمعة عينيها . فحدقته هاتان العينان السوداوان ثم ما عتمتا أن جانبتاه فأدرك بغريزته أن ليدا تخشاه وفاجأه الذلك غيظ شديد فرد الباب بعنف ومضى إليها . وقال وهو لايكاد يغالب جماح رغبة أن يضربها :

« إنك حقيقة عجيبة جدا ! هاذا أنا هنا فى غرفة غاصة بالناس وفى جملتهم أخوك . أما كان يسعك أن تتخيرى وقتا آخر للمجىء ؟ أن هذا مثير حقا . »

فانطلقت اليه من العينين السوداوين نظرة تداعى لها سارودين فتغيرت لهجته وابتسم وكشف عن أسنانه البيضاء وتناول يد ليدا وجلس الي جانبها على السرير وقال :

« حسن حسن . أن الأمر غير مهم . وإنما كان قلقى وإشفاقى عليك ولقد سرنى أنك جئت فقد كنت مشتاقا لرؤيتك »

ورفع سارودين يدها الحارة المعطرة الى شفتيه وقبلها مما يلى القفاز فسألته :

« أتقول حقا ؟ »

فأدهشته غرابة لهجتها . ثم نظرت اليه مرة أخرى وقالت له عيناها بأصرح ما تنطقان :

« أصحيح أنك تحبنى ؟ أنك ترى مبلغ شقوتى الآن . وكيف إن لم أعد فى شىء مما كنت . وإنى لأخافك وأشعر بكل مافى حالتى من الذلة والمهانة ولكنه ليس لى معين سواك »

فأجابها سارودين :

« كيف يخامرك الشك فى صدق ما أقول ؟ »

ولكن صوته خلا من رنة الإخلاص بل لقد كان باردا جافيا .

وتناول يدها مره أخرى ولثمها وأحس أنه عالق بشبكة عجيبة من الأحساسات والخواطر — منذ يومين فقط على هذه الوسادة بعينها كانت خصل شعرها متهدلة وهو يطوقها بذراعيه وشفاههما ملتقية فى قبلة عن أحر عاطفة وأجمحها ، وفى تلك اللحظة خيل اليه أن كل

ما استمتع به من النساء الأخر قد تحقق وأنه بلغ سؤله من الإساءة الى هذه المرأة التي جعلتها العاطفة درج يديه إساءة وحشية متعمدة — والآن . . . شعر لها فجأة بالمقت . وود لو استطاع أن يدفعها عنه وأن لايراها أو يسمع صوتها بعد ذلك . وبلغ من قوة هذه الرغبة وطغيانها أن الجلوس الى جانبها صار مؤلما له . على أنه نازعه خوف مبهم منها فسلبه ذلك إرادته واضطره الى البقاء بجانبها . وكان يدرك أتم إدراك أنه ليس ثم مايربطه بها وأنه ما نال منها شيئاً إلا برضاها دون أن يعدها شيئاً فكأن كلا منهما قد أخذ كما أعطى بيد أنه مع ذلك أحس كأنما لصق بمادة لزجة لم يقو على التخلص منها وتوقع أن تطالبه ليدا بشيء وأنه سيكون بين أمرين : أن يوافق ويقرها على ماتدعي أو أن يأتي عملا حقيراً دنيئاً . وأحس أن كل قوة له مسترقة كأنما نزعت عظام رجليه وذراعيه وكأنما صار لسانه الذي في فمه خرقة مبلولة . وأراد أن يصيح في وجهها وأن يفهمها صراحة أن ليس لها حق مافي مطالبته بشيء ولكن قعد به عن ذلك الخوف والجبن وندت الى لسانه عبارة فارغة كان يعلم أنها لا محل لها على الإطلاق

« آه . المرأة . المرأة . »

فنظرت اليه ليدا مستفظعة وكأنما أضاء لذهنها بارق فأدركت في لحظة أنها فقدت كل شيء وأن كل مامنحت من طهرها وشرفها إنما منحته رجلا ليس له وجود وأن حياتها وصباها وطهرها وكبرها قد ألقت بها جميعاً عند قدمي بهيم جبان نذل لم يشعر لها بالشكران على مابذلت له بعد أن لوثها فهمت أن تلطم كفا بكف وأن تسقط على الأرض يأسا وألما غير أن الرغبة في الانتقام المنبعثة عن مرارة البغض حلت محل ذلك الشعور بسرعة البرق

فقالت وأسنانها مطبقة وعينها محدقة به :

« ألاتعلم أنك غاية في الغباء والسخف . ؟ »

فجاءت قحة هذه الألفاظ ونظرة الحقد التي لاتلائم ليدا اللينة السمحه — صدمة لساروين تراجع لها ولم يكد يفهم مدلولها وحاول أن يمزح ويضيع أثرها بالفكاهة وقال وهو مستغرب مغيظ :

« أي ألفاظ هذه ؟ »

فردت ليدا بمرارة وخبطت كفا بكف

« لست في حالة تسمح لى بانتقاء الألفاظ »

فقطب ساروين وسألها :

« لماذا كل هذه السمات الحزينة ؟ »

واستهواه وهو لايشعر جمال شكلها فجعل ينظر الى كتفيها الرقيقتين وذراعيها البديعى التكوين وأشعرته إيماءات اليأس والضعف الثقة بقوته فكأنما هما في كفتى ميزان اذا شالت إحداهما رجحت الأخرى ووجد ساروين لذة قاسية لعلمه أن هذه الفتاة التي كان يعدها أسمى منه قد صارت معذبة من أجله وكان في العهد الأول من علاقتهما يخافها فسره الآن أنها هوت الى حضيض العار .

فلان لها وتناول في رفق يديها الضعيفتين وجذبها اليه وتنبهت مشاعره وصار نفسه سريعاً وقال :

لاتراعى . سينصلح الأمر فما فيه شيء فظيع بعد كل مايقال .

فأجابته باحتقار :

« أو تظن ذلك ؟ »

وساعدها الاحتقار على أن تثوب اليها نفسها وقوتها فحدجته بنظرة غريبة العنف

فقال ساروين وهو يحاول أن يضمها اليه ضمة يعلم أن لها سحرا

نعم بلا شك اظن ذلك .

غير أنها ظلت باردة جامدة فقال بلهجة العاتب المترفق :

« تعالى تعالى . مابالك نافرة ياحبيبتى » .

فصاحت به ليدا وهى تدفعه عنها :

« دعني ! أقول لك دعني ! »

فتألم سارودين وحز في نفسه أن عوطفه هاجت عبثاً وحدث نفسه « إن المرأة هي الشيطان بعينة » وسألها وقد حرج صدره واحمر وجهه

« ماخطبك ؟ »

وكأنما أطاف سؤاله بذهنها ذكرى فسترت وجهها بكلتا يديها وبكت بكاء الفلاحات الساذجات وأعولت ووجهها مدفون في راحتيها وجسمها منحن وشعرها متهدل على محياها البليل المتهضم فأسقط في يد سارودين ولم يسعه الابتسام. وإن كان على هذا خشى أن يسوءها ابتسامه وحاول أن ينحى كفيها عن وجهها فقاومته مقاومة عنيدة وظلت تبكي

فقال « ياآلهي ، » ونازعته نفسه أن يصيح بها وأن ينزع كفيها وأن يسبها ويشتمها وقال لها بخشونة :

« لماذا تبكين ؟ لقد خطئت معي وهذا من سوء الحظ ولاحيلة الآن ، فلماذا كل هذه الدموع اليوم ؟ أمسكي بالله ، »

وأمسك بإحدى يديها فاهتز رأسها يمنة ويسرة فكفت عن البكاء بغتة ونحت كفيها عن وجهها المبلل بالدمع ورفعت عينها إليه كما يرفعها الطفل الخائف وطاف بذهنها بمثل سرعة البرق أن في وسع من شاء أن يلطمها الآن ولكن سارودين آلان من شدته وقال بصوت المواسي :

« اسمعي ياليدوتشكا ، كفي عن البكاء ، إنك ملومة مثلي ، فلماذا تحدثين ضجة ؟ لقد خسرت الكثير ولاشك وإني لأعلم ذلك ولكننا نلنا حظاً كبيراً أليس كذلك ؟ ويجب علينا أن ننسى ... »

فانطلقت ليدا تبكي من جديد فصاح :

(آوه ، أمسكي عن هذا ،)

ثم مشى الى آخر الغرفة وجعل يشد شعر شاربيه بعنف وشفتاه ترجفان وصارت الغرفة ساكنة . وحط طائر على أغصان شجرة مما يلي النافذة

فاهتزت فى رفق وحاول سارودين أن يكبح جماح غضبه فدنا من ليدا وطوق خصرها بذراعه ولكنها أفلتت منه مسرعة وضربته بجمع يدها على ذقنه ضربة اصطكت لها أسنانه فصاح مغضباً :

« إلى الشيطان بها ! » .

وآلمته الضربة وغاظه صوت أسنانه المصطكة أكثر مما آلم اللطمة .

ولم تسمع ليدا قوله هذا ولكنها أدركت بفطرتها أن موقف سارودين مضحك فانتهزت هذه الفرصة بكل ما أوتيت المرأة من قسوة وقالت تحاكيه.

« أى ألفاظ هذه ؟ » .

فأجابها مغيظا :

« أن هذا يكفى لاستفزاز أى انسان ! » .

ثم عاد فقال :

« لو أنى عرفت ما خطبك ! » .

فقالت ليدا بلهجه جارحة مرة :

« أتريد أن تقول إنك مازلت تجهل ؟ » .

وصمتا برهة . وجعلت ليدا تنظر إليه شزرا ووجهها أحمر كالنار فامتقع سارودين كأنما انسدل على وجهه نقاب أصفر ثم صرخت به صرخة المتشنج حتى لأفزعها صوتها :

« مالك صامتاً ؟ لماذا لا تنطق ؟ تكلم قل شيئاً تعزينى به ! » .

أجاب « أنا ... » .

وارتجفت شفته السفلى .

فصرخت مرة أخرى ودموع الحنق واليأس تكاد تخنقها :

« نعم أنت — ولا أحد سواك ! » .

وسقط عنه كما سقط عنها نقاب الأدب والمجاملة وظهر الوحش الشارد الجامح فى عيونهما كليهما .

وطافت برأس ساروديين خواطر كالجرذان والفيران ... وخطر له أولا أن ينقدها مالا وأن يقنعها بالتخلص من الجنين ورأى أن لا بد له من بت كل صلة بها وبذلك ينتهي الأمر غير أنه لم يقل شيئاً وإن كان يرى أن هذه خير وسيلة وتمتم :

« لم يخطر لى قط ... » .

فصرخت ليدا كالمجنونة :

« لم يخطر لك قط ! لماذا لم يخطر لك ؟ بأى حق لم تفكر ؟ » .

فقال والألفاظ تتعثر :

« ولكني ياليدا لم أقل لك أبداً إنى ... » .

وخاف أن يتم ما يريد فأمسك وفهمت ليدا مراده دون أن يصارحها به فاسود وجهها ومسخه الاستفظاع واليأس وسقط ذراعاها إلى جانبيها وهوت إلى السرير وقالت وكأنها تفكر بصوت عال :

« ماذا أصنع ؟ أأغرق نفسى ؟ » .

أجاب « لا ! لا ! لا تقولى هذا ! » .

فرمته ليدا بنظرة قاسية وقالت :

« هل تدرى يافيكتور سرجيفتش ؟ أنى واثقة أن هذا لا يحزنك أبداً » .

وكان فى عينيها وعلى فمها الجميل المرتجف من الحزن والأسى مما جعل ساروديين يدير وجهه عنها .

ثم وقفت . وكانت تحسب فى أول الأمر — ويعززها حسبانها هذا — أنها ستجد فيه منقذاً لها وعوناً وأنها ستعيش معه أبداً . فالآن كلها ماأهداه إليها من خيبة الأمل بالمقت والتقزز منه وودت لو هزت له قبضة يدها وبصقت احتقارها فى وجهه جزاء له على إذلالها وامتهانها ولكنها شعرت أنها ستبكى قبل أن ينطلق لسانها بحرف وصدتها بقية من الكبر هى كل ما بقى من ليدا الجريئة الجميلة وقالت له وأسنانها مطبقة وفى لهجتها من الاحتقار العميق ما أدهشها كما أدهشه :

« أيها الوحش ؟ » .

وانطلقت كالسهم خارجة من الغرفة وعلق كمها برتاج الباب فتمزق .

فاصطبغ وجه سارودين بالحمرة إلى جذور شعره . ولو أنها قالت « أيها الشقى » أو « أيها النذل » لاحتمل منها هذا فى سكون ولكن لفظة « الوحش » خشنة لاتتفق فى رأيه مع شخصيته الساحرة . فأذهله ذلك واحمر حتى بياض عينيه فتلوى وهز كتفيه مضطرباً وزر جاكتته ثم فك أزرارها وهو على أتم ما يكون اضطرابا .

ولكنه ما عتم أن استشعر الارتياح الناجم عن الإحساس بالتخلص . فقد قضى الأمر . على أنه غاظه أنه لن يظفر مرة أخرى بليدا وأنه خسر مثل هذه الرفيقة الجميلة المشتهاة . غير أنه نفى هذا الأسف بإعادة احتقار .

« إلى الشيطان بهن جميعاً . إن فى طوقى أن أنال ما أشاء ممن أشاء منهن » .

وسوى جاكتته وأشعل سيجارة وشفتاه لا تزالان ترتجفان ثم استعاد مألوف هيئته وكر إلى ضيوفه .

(١٨)

لم يعد أحد من المقامرين ـــ ماخلا ماليوسكى السكران ـــ يلذ اللعب . ولج بهم جميعاً حب الاستطلاع والرغبة فى معرفة السيدة التى جاءت إلى سارودين من عسى أن تكون . وأدرك بعضهم أنها ليدا وخالجتهم لذات الغيرة وتصوروا جسمها الأبيض بين ذراعى ساروين .

وبعد برهة وقف سانين وقال :

« لن ألعب أكثر مما لعبت . فإلى الملتقى » .

فسأله إيفانوف :

« تمهل ياصديقى . إلى أين ؟ » .

فأشار سانين إلى الباب الموصد وقال :

« سأذهب لأرى ما يجرى هنا ! » .

فقال إيفانوف :

« لا تكن أحمق ! اجلس واشرب كأساً ! » .

فأجابه سانين وهو يخرج :

« إنك أنت الأحمق ! » .

ولما وصل سانين إلى منعطف تكثر فيه الأشواك النابتة نفض المكان ليرى الموضع الذى تشرف عليه نافذة ساروودين ثم مشى بحذر بين الأشواك وتسلق الحائط ولما بلغ قمته كاد ينسى لماذا صعد لفرط ما بهره جمال المنظر وهو يطل من مرقبه على النجائل والحديقة الفيحاء — والنسيم الرقيق يمسح اعضاءه الحارة القوية ثم وثب عن الحائط إلى الناحية الأخرى بين الأشواك وجعل يدلك جسمه فى حيث شكته واجتاز الحديقة وبلغ النافذة حين كانت ليدا تقول :

« أتريد أن تقول أنك لا تزال تجهل ؟ » .

فأدرك من غرابة لهجتها حقيقة الأمر فاستند إلى الحائط وعينه إلى الحديقة وأرهف سمعه وأدركه العطف على أخته الحسناء التى لا تلائم جمالها لفظة « الحبلى » الخشنة . ووقع من نفسه الاختلاف بين هذه الأصوات الآدمية الصاخبة والسكينة الرائعة التى كانت تجلل الحديقة الزاهية .

وطارت فراشة بيضاء فوق الحشائش وقد انعشتها الشمس فضحت لها فجعل سانين يرقبها بمتل اهتمامه بالإصغاء .

ولما صاحت ليدا « أيها الوحش ! » ضحك سانين جذلا وعاد ادراجه فى تثاقل وإبطاء غير مكترث لمن يراه أو لا يراه .

وعلت أمامه سحلية فلبث برهة يرصد حركاتها السريعة وهى تزحف بجسمها الصغير الأخضر بين الحشائش الطويلة .

(١٩)

لم تعد ليدا إلى البيت بل حثت خطاها في طريق ينأى بها عنه وكانت الشوارع خالية والحر يأخذ بالمخنق والظلال متقلصة إلى الحائط والسياج بعد أن هزمتها الشمس الظافرة وردتها فتحت ليدا مظلتها بحكم العادة وقوتها ولم تلتفت إلى الحر أو البرد ولا إلى النور ولا الظلمة ولم تدر في أيها تسير فمضت مسرعة وتجاوزت الأسيجة المعفرة المكسوة بالاكلاء ورأسها منثى وعينها إلى الأرض ولم تصادف في طريقها إلا نفراً من الراجلين كاد يخنقهم الحر وفيما عدا ذلك كانت البلدة ساكنة كما تكون في القيلولة .

وكان قد تبعها جرو أبيض شم رداءها ثم انطلق يعدو أمامها يلتفت إليها ويبصبص لها بذنبه كأنما يريد أن يقول لها أنهما زميلان مترافقان . ورأت ليدا عند منعطف الشارع صبياً صغيراً بدينا مضحك الهيئة أطل قميصه من جاكتته عند كتفه وخداه طويلان ملوثان بعصير بعض الفاكهة ويداه تعملان بقوة في منفاخ خشبي .

فأومأت ليدا إلى الجرو وابتسمت للصبي غير معتمدة شيئاً مما فعلت فقد كان روحها سجينا وكانت تدفعها إلى الأمام قوة غامضة تفصل ما بينها وبين الدنيا وتجوز بها ضوء الشمس والخضرة وكل ما في الحياة من مفارح ومتع وتسوقها إلى هاوية سحيقة مظلمة أشعرها الألم أنها منها قريبة .

ومر بها ضابط تعرفه على جواده فلما أبصرها وقف وسألها بصوت طروب : « ليدا بتروفنا ! إلى أين في هذا القيظ » .

فارتفعت عينها بلاعمد إلى قبعته المشدودة إلى جبينه الملوح الرطب ولم تتكلم ولكنها منحته ابتسامة الدلال المألوفة وجعلت تردد سؤاله «إلى أين؟» وهي تجهل ما عسى أن يقع لها .

وزايلها غضبها على سارودين ولم تكد تفهم لماذا قصدت إليه فقد كان يخيل أن من المستحيل أن تحيا بدونه أو أن تحتمل حزنها وحدها . أما الآن

فكأنما اختفى و غاب ولم يعد له وجود فى حياتها ومات الماضى ولم يبق إلا ما يعنيها وحدها وهذا ما يسعها أن تبت فيه دون أن ترجع فى ذلك إلى أحد.

وكان ذهنها يفكر بسرعة المحموم غير أن خواطرها كانت على هـــذا واضحة جلية . ولكن أهول ماكان يهولها هو أن ليســدا الجميلة المزهوة ستذهب وتخلف وراءهامخلوقاً شقياً مضطهدا ماطحا ضعيف الحول .. كلا! لا بد أن تبقى النفس المزهوة والوجه الجميل .. وإذن لا بد لها أن تمضى.. إلى حيث لا تعلق بها الأوحال .

ولما تقرر هذا فى ذهنها أحست كأنما أحاط بها فراغ وغابت الحياة والشمس والناس وصارت مستفردة بينهم كل الاستفراد . . ألالامفر ! لا معدى لها عن الموت ! يجب أن تغرق نفسها . وما عتمت أن استولت عليها هذه النية واستغرقتها هاته الفكرة فبدا لها كأن سوراً من الحجر التف بها وحجبها عن كل ما كان وكل ما عسى أن يكون .

وقالت : « ما أبسط هذا فى الحقيقة ! » .

ودارت بعينها ولم تر شيئاً ..

وصارت خطاها أسرع . ولولا سعة ثوبها لجرت فقد كانت تحس أن بطنها لا يطاق .

« هنا بيت وههنا آخر له نوافذ خضراء ثم هنالك الفضاء ! » .

والنهر والجسر ثم ما سيحدث . . فلم تتمثل لها صورة واضحة لهذا ، فكأن ثم سحابة أو ضبابا يحجب كل شيء . غير أن هذه الحالة النفسية لم تدم إلا ريثما بلغت الجسر . ولما حنت على سور الجسر ترمق الماء المزبد زايلتها ثقتها بنفسها وتملكها الخوف وإرادة الحياة وعاودها إحساسها بكل شيء حتى وسكت سمعها الأصوات وتناغى الأطيار ورأت نور الشمس والأزاهير فى الرياض والجرو الأبيض يتطلع إليها تطلع من يعدها سيدته بلا مراء وكان مقعيا قبالتها يرفع لها كفه ويضرب الأرض بذيله .

فرنت إليه ليدا واشتاقت أن تضمه على ساعديها إلى ثدييها واغرورقت عيناها وغلبهما الأسى والأسف على حياتهما الجميلة التي درست فمالت إلى السور وهي تكاد تفقد رشدها واتكأت على حافته المنهية فسقط لسرعة انحنائها أحد قفازيها في الماء فجعلت ترقب في فزع صامت هويه الساكن إلى صفحة الماء واندياح الدوائر فيها فرأت قفازها الأصفر يعلو ثم شيئا فشيئا ويملأه الماء وينقلب كأنما لواه ألم النزع ثم يهوى إلى أغوار النهر الخضراء فحددت ليدا نظرها لترى غوصه ولكن النقطة الصفراء لم تزل تتضاءل حتى غابت ولم تعد تأخذ عينها إلا صفحة الماء المصقولة .

رأتها لكذلك وإذا بصوت انثى على كثب منها يسألها : « كيف حدث هذا أيتها السيدة ؟ » .

ففزعت متراجعة ورأت فلاحة مفرطحة الأنف ترمقها مستطلعة بعين عطوف ومع أن هذا العطف لم يكن المقصود به إلا القفاز المفقود إلا أن ليدا شعرت كأنما هذه الفلاحة السمينة الطيبة القلب تعرف كل شيء وترثي لها فهمت أن تقص عليها خبرها وأن ترفه بذلك عن قلبها غير أنها نحت هذه الفكرة وطاردتها مستخفة إياها . واحمر وجهها وتمتمت « لا شيء ! » وهي تنطرح متراجعة عن الجسر .

« هنا ! مستحيل ، لو أغرقت نفسي هنا لأنقذوني » .

وسارت مسافة أخرى على شاطئ النهر متوخية طريقا ممهدا إلى اليسار بين النهر والحقول وعلى جانبيه الأشواك والأزاهر وأشجار الصفصاف منحنية إلى النهر وكان الشاطئ المنحدر مكسواً بالخضرة ومغموراً بنور الشمس والنباتات ترنح نواراتها الزجة فوق الأكلاء والأشواك التي علقت بأهداب ليدا ولمست وهي سائرة نباتا هائجا دانثرت فوقها حباته البيضاء .

وكانت ليدا تدفع نفسها دفعاً وتغالب القوة التي تحاول أن تثنيها وتقول وتكرر « لا بد من ذلك ! لا بد منه ! » وهي تجر نفسها وكان

رجليها أنبت ما بينهما لما نأت عن الجسر ودنت من الموضع التى اعتزمت أن تنتهى إليه .

ولما بلغته ورأت الماء الأسود البارد فى ظل الأغصان المتهدلة والتيار يندفع ويزخر عند زاوية نائتة من الشاطىء أدركت لأول مرة كيف شوقها إلى الحياة وفزعها من الموت ولكنه لم يكن لها مفر من الموت إذ كان البقاء مستحيلا . فرمت بقفازها الثانى ومظلتها دون أن تنظر حولها وعاجت عن الطريق ومالت إلى النهر بين الحشائش ومر بذهنها فى تلك الهنيهة ألف خاطر وتنبه إيمانها من أعمق أعماق روحها حيث ظل راقداً فجعلت تردد هذه الصلاة : « رب انقذنى ! رب ساعدنى » . وما أتمتها حتى ذكرت من حيث لا تحتسب قطعة من انشودة كانت تدرسها فى الأيام الأخيرة فارتد ذهنها إلى سارودين ثم بدا لها وجه أمها وزاد حبها لها فى تلك الآونة . فلم يثنها ذلك بل زاد عزمها مضاء فاندفعت تعدو إلى النهر ولم تكن ليدا تدرك حتى الساعة أن أمها وسائر من يحبونها إنما يحبون منها ذلك الذى يودون أن تكونه لا ليدا على حقيقتها وبكل عيوبها ونقائصها وشهواتها . فالآن وقد حادت عن الطريق الذى لا يعدون غيره مستقيما فإن هؤلاء الوامقين وأمها على وجه أخص سيقسون عليها بقدر حبهم لها .

ثم اختلط كل شيء فى نظرها اختلاط الحلم فى مخيلة المحموم وتنازعها الخوف والشوق إلى الحياة والإحساس بالقدر المحتوم والإنكار والاقتناع بأن الأمر قد قضى والأمل واليأس والشعور المفزع بأنها هاهنا ستموت ثم مثلت لعينيها صورة رجل شبيه بأخيها يثب بين الأكلاء إليها .

« لم يكن يسعك أن تفعلى أسخف من هذا ! » .

هكذا قال سانين وهو يلهث .

ومن عجيب الاتفاق أن ليدا كانت قد انقلبت إلى نفس الموضع الذى أمكنت فيه سارودين منها لأول مرة وهو موضع تحجبه الأشجار الضخمة عن ضوء القمر فرآها سانين وفطن إلى ما عقدت عليه نيتها فخطر

له بادىء الرأى أن يدعها وشأنها ولكن حركاتها العصبية المضطربة حركت عطفه فتخطى مقاعد الحديقة وحواجزها وأسرع إلى إنقاذها .

فكان لصوت أخيها تأثير مفزع فى نفسها فتداعت أعصابها بعد أن شددها الصراع الباطن ودارت بها الأرض وصار كل شىء يسبح أمام عينيها ولم تعد تدرى أفى الماء هى أم على الشاطىء . وكان سانين قد أمسك بها ولما يكد وتراجع عن الماء وقد سرته قوته ومهارته وقال : « هذا أنت ! » وأجلسها إلى سياج الحديقة وأدار عينه فيما حوله وهو يقول لنفسه « ماذا أصنع لها ؟ » .

وثابت إلى ليدا روحها فى هذه اللحظة وشرعت تبكى بكاء أليما وهى مصفرة مضطربة وتقول وهى تعول كالطفل : « يا إلهى ! يا إلهى ! » : فقال سانين ناهراً فى رفق : « سخافة مطبقة ! » .

ولم تسمعه ليدا ولكنها لما أخذ يتحرك تعلقت بذراعه وزاد عويلها ثم قالت لنفسها خائفة :

« آه ! ماذا أنا صانعة ؟ لا ينبغى لى أن أبكى . يجب أن أضحك وإلا فطن إلى الأمر » . فسألها سانين وربت كتفها بحنان :

« مالك مضطربة؟ » . فرفعت إليه طرفها تحت القبعة وبها مثل حياء الطفل وكفت عن البكاء . فقال سانين : « إنى أعرف كل شىء . القصة كلها . أعرفها من زمن مديد » .

وكانت ليدا تعلم أن أناساً كثيرين قد فطنوا إلى نوع علاقتها مع ساروديين ولكنها أحست لما قال سانين هذا كأنما لطمها على وجههـا فتقبض جسمها اللين ونظرت إليه بعين غاض منها الدمع . فقال سانين وهو يضحك : « ماذا دهاك الآن ؟ إنك تنظرين إلى كأنى دست على قدمك » . ثم أمسك بكتفيها المستديرتين المصقولتين فارتجفتا للمسته وردها فى رفق إلى مجلسها الأول وهى مذعنة طائعة وقال : « تعالى ! ماذا يحزنك ؟ أهو

أني أعلم كل شيء ؟ أم تحسبين خطيئتك مع سارودين من الفظاعة بحيث تخافين أن تقوى بها ؟ الحق أني لا أفهمك باليدا — إذا كان سارودين لا يريد أن يتزوجك — حسن . . هذا شيء يجب أن تحمدى الله عليه . لقد عرفت الآن — ولا بد أنك كنت تعرفين من قبل — أى حقير دنيء هو على الرغم من قسامته ومن صلاحه لمواقف العشق . إذ كل ماله هو الوسامة وأحسبك الآن أصبت منها كفايتك » .

فقالت ولسانها يتعثر : « لقد أصاب هو كفايته مني . . . لا أنا منه ! آه ! ربما كنت قد أصبت كفايتي ! آه ! يا إلهي ماذا أصنع ؟ » فقال سانين : « والآن أنت حبلى . . . » .

فأغمضت ليدا عينيها وأطرقت . فمضى سانين في كلامه مترفقاً :

« لا شك أن هذا أمر سيء . فالوضع — أولا — عمل ثقيل مؤلم والناس ثانياً وهو المهم — قد يضطهدونك . على أنك ياليدو تشكا لم تسيء إلى أحد ولو أنك جئت إلى هذه الدنيا بعشرة أطفال لما أضر هذا بأحد سواك » .

وأمسك سانين ليفكر وطوى ذراعيه على صدره وجعل يعض أطراف شاربه وقال : « وفي وسعي أن أشير عليك بما ينبغي لك أن تصنعي ولكنك أضعف وأسخف من أن تعملي برأيي . إنك أجبن من ذلك ! ومهما يكن من الأمر فالمسألة لا تستحق أن تنتحري من جرائها . انظري إلى الشمس المشرقة وإلى النهر المتحدر الساكن واذكرى أنك إذا مت عرف كل إنسان ماذا أماتك فأى خير لك في هذا ؟ إنك لا تريدين الموت من أجل أنك حبلى بل من أجل أنك تخافين ما سيقوله الناس . فشر ما في مصيبتك ليس في المصيبة نفسها بل في أنك تضعينها بينك وبين حياتك التي ترين أنها يجب أن تنتهي . ولكن هذا في الحقيقة لن يغير من الحياة شيئاً . إنك لا تخافين البعداء بل القريبين منك ولا سيما من يحبونك ويعدون بذلك نفسك إحدى الكبر لأن البذل كان في غابة أو مرج لا في سرير شرعي . وهؤلاء أن

يتلكؤا فى عقابك على زلتك فأى خير فى هؤلاء لك ؟ إنهم قوم أغبياء غلاظ القلوب فارغو الرءوس . ولماذا تموتين من أجل قوم أغبياء غلاظ القلوب فارغى الرءوس ؟ » .

فسألته بصوت أجش : « ولكن ماذا ينبغى أن أصنع ؟ خبرنى ماذا . . . ماذا . . ؟ » .

فقال سانين : « أمامك طريقان . أن تتخلصى من هذا الطفل الذى لا يريده أحد والذى لا يفيدك ميلاده إلا المتاعب كما لا بد أن تعرفى » .

فأعربت عينا ليدا عن الاستفظاع وعاد سانين إلى الكلام فقال :

« من الظلم الشديد أن يقتل المرء مخلوقاً يقدر لذة الحياة ويعرف هول الموت . ولكن جرثومة . . . كتلة جامدة من اللحم والدم . . . » .

فوجدت ليدا إحساساً عجيباً . وشعرت فى أول الأمر بالعار حتى لكأنما نضت عنها ثيابها جميعاً وراحت أصابع وحشية تجسها وتلمسها . ولم تجرؤ أن تنظر إلى أخيها وخشيت أن يميتهما العار كليهما . ولكن عينى سانين السوداوين كانتا ساكنتين وكان صوته متزناً هادئاً كأنما يحدثها عن أمور مألوفة . وهذه القوة الهادئة وعمق الصواب هما اللذان أزالا خجل ليدا وخوفها غير أنها ما لبثت أن غلبها اليأس فأمسكت بجبينها وجعلت أطراف ثوبها الرقيق تخفق كجناحى الطائر الفزع وقالت :

« لا أستطيع . كلا . لا أستطيع ! أحسبك مصيباً ولكن لا أستطيع ! إن هذا فظيع ! » .

فقال سانين وهو يركع وينحى كفيها فى رفق عن وجهها :

« حسن حسن . إذا لم تستطيعى هذا فلابد لنا أن نحتال على إخفائه على نحو ما . وسأرى لى رأياً فى حمل ساروديين على الخروج من البلدة : وأنت — حسن — ستتزوجين نوفيكوف وتسعدين . إنى أعرف أنك كنت حقيقة أن تقبلى نوفيكوف لولا أن لاقيت هذا الضابط الأهوج ! إنى على يقين من هذا » .

فلما ذكر اسم نوفيكوف بدا لليدا النور فى الظلمة وخيل إليها لحظة أن من السهل إصلاح ما فسد لأن ساروديين أشقاها وهى مقتنعة أن نوفيكوف لم يكن ليصنع بها ما صنع ذلك . ولم يبق عليها إلا أن تنهض لتوتها وأن تعود وأن تقول كلمة أو اثنتين لتعود الحياة وضيئة الجمال . وستحيا مرة أخرى وتحب ثانية .

ولكن حياتها فى هذه المرة ستكون خيراً وحبها أعمق وأطهر بيد أن هذا الحلم لم يطل فتذكرت أن هذا مستحيل وأن الحب السخيف الحقير قد لوثها وهوى بها .

وخطرت ببالها كلمة خشنة لم تكن تدرى أنها تعرفها ولم تنطق بها قط فنعتت بها نفسها فكأنما لكمها لاكم على أذنها وصاحت :

« ويحى . هل صرت حقاً . . ؟ نعم نعم لا شك » .

ثم تمتمت وقد أخجلها رنين صوتها : « ماذا قلت ؟ »

فسألها سانين : « حسن علام عولت ؟ » .

ونظر إلى شعرها الجميل المتهدل على جيدها الناصع المتألق فى ضوء الشمس النافذ إليه من خلال الأوراق . وتملكه الخوف من أن يعجز عن إقناعها وأشفق أن تغيب فى فراغ الموت المظلم هذه المرأة الجميلة التى خلقت لتنشر السرور والغبطة وكانت ليدا صامتة تعالج أن تصرع رغبتها فى الحياة وكانت هـــذه الرغبة قد طغت بها على رغم إرادتها واستولت على كيانها المرتعد . وحسبت أن من العار بعد الذى جرى لا أن تعيش فقط بل أن ترغب فى الحياة . غير أن جسمها القوى المملوء حيوية رفض هذه الفكرة الممسوخة كأنها السم الزعاف .

وسألها سانين : « مالك صامتة ! » .

قالت : لأن هذا مستحيل . إنه يكون دناءة ! إنى .. » .

فقال سانين وقد نفد صبره : « لا تنطقي بهذه السخافة ! » .

فرفعت ليدا طرفها إليه مرة أخرى وفي عينيها المغرورقتين بارقة أمل. وكسر سانين غصناً صغيراً عضه ثم ألقى به وقال :

« دناءة ! إن ألفاظي تذهلك . ولكن لماذا ؟ إن المسألة لا يسعني لا أنا ولا أنت أن نجيب عنها جواباً صحيحاً . جريمة ؟ ما هي الجريمة ؟ إذا تعرضت حياة الأم للخطر وهي تضع طفلا وأميت هذا الطفل الذي لتنجو أمه لم يعد الناس هذا العمل جريمة بل ضرورة منحوسة ! فإما أن نقضي على شيء لم يوجد بعد فهذا جرم شنيع ! نعم جرم شنيع حتى ولو كانت حياة الأم بل سعادتها وهي أكبر من حياتها رهن بذلك ! لماذا يكون هذا هكذا ؟ لا يدري أحد ! ولكن كل امرىء يذهب إلى هذا ويصيح مرحى ! » وضحك سانين ساخراً « ويحكم معاشر الرجال يخلقون لأنفسهم خيـــالات وأشباحاً وأوهاما هم أول من يروح فريستها . على أنهم يقولون إن الإنسان أشرف الكائنات وأعلاها وأنه تاج الخليقة وملكها وأراه ملكا لم يحكم قط . ملكا معذبا يفزعه ظله ! » .

وأمسك سانين هنية ثم عاد يتكلم :

« على أن هذا ليس بسبيلنا الساعة . تقولين إن هذا يكون عملا دنيئاً . لا أدري . لعل الأمر كما تقولين . وأحسب أن لو سمع نوفيكوف بما أنت فيه لأمضه جداً وأحزنه . وربما قتل نفسه على أنه مع ذلك سيحبك كما أحبك من قبل . ولئن قتل نفسه ليكونن هو الملوم . أما إذا كان لبيباً ذكياً فأخلق به أن لا يكترث لكونك (معذرة من هذه العبارات) ضاجعت سواه فإن جسمك لم يفقد شيئاً بذلك — لا ولا روحك . وياعجباً له ! أما يمكن أن يتزوج أرملة مثلا ؟ إذن فليس هذا بالذي يمنعه أن يتزوجك وإنما تمنعه — إذا منعته — آراؤه المشوشة المختلطة التي حشي بها رأسه وأما أنت ياليدا فلو أنه كان ممكناً أن لا يحب الآدمي إلا مرة في حياته كلها لكانت معاودة الحب

عبثاً لا يسر ولكن هذا ليس هكذا . والحب متعة مشتهاة دائما وستألفين نوفيكوف وتحبينه فإذا لم تمعلى رحلتنا معا باليدو تشكا ، إن المرء يستطيع أن يعيش حبيًا اتفق أليس كذلك ؟ »

فتنهدت ليدا وحاولت أن تغلب ترددها وتمتمت :

« ربما . . . صلحت الأمور . . نوفيكوف . . طيب رقيق القلب . . وجميل أيضا أليس كذلك ؟ نعم . . . لا . . لا أدرى ماذا أقول . » .

فقال سانين « ولو كنت أغرقت نفسك .. ماذا إذن ؟ ان قوى الخير والشر ما كانت لتكسب أو تخسر بذلك وكل ما كان يحدث هو إن جثتك المشوهة الممسوخة الملطخة بالأوحال كانت تطفو وتجر الى الارض وتدفن . هذا كل ما كان يحدث . »

فتصورت ليدا الماء المربد والأوحال والأعشاب والفقاقيع سابحة حولها وقالت واصفرت : كلا . كلا . ابداً . اهون من ذلك ان احتمل كل عار . . ونوفيكوف . . كل شيء .. » أي شيء سوى هذا » .

فقال سانين ضاحكا : « انظري كيف تفزعين » .

فابتسمت ليدا بين دموعها وعزتها ابتسامتها وقالت بقوة :

« مهما يكن ما يحدث فإني مصممة على الحياة » .

فصاح سانين ووثب :

« حسن إنه ليس أفظع من فكرة الموت ومادام المرء يستطيع أن يحتمل العبء وأن لا يفقد إحساسه بمناظر الحياة واصواتها فليحيي . ألست على صواب؟ والان ناوليني يدك . » .

فمدت إليه ليدا يدها شاكرة

وقال سانين : «هذا حسن . . . ما أحلى يدك وأجملها» .

فابتسمت ليدا ولم تقل شيئا .

ولم يذهب كلام سانين سدى فقد كانت ليدا قوية الحيوية زخارتها وكانت

الأزمة التي مرت بها قد وترت أعصابها إلى أقصى حد فلو زاد الضغط لتمزقت ولكن الضغط لم يزد وعاد كيانها يتجاوب بالرغبة في الحياة زاخرة قوية . فنظرت فوقها وحولها وهي ثملة وأحست السرور تنبض به كل جارحة وكل شيء أحسته في ضوء الشمس وفي المروج الخضراء وفي النهر المؤتلق وفي وجه أخيها الساكن المبتسم وفي نفسها فكأنما كانت ترى ذلك وتسمعه لأول مرة وصاح بها صوت طروب من أعماق صدرها « الحياة . الحياة » .

وقال سانين : « حسن سأكون عونك في متاعبك وظهيرك وساعدك في معاركك . والآن لما كنت فتانة الجمال فهاتي قبلة » .

فابتسمت ليدا ابتسامة عرائس الغاب ولف سانين ذراعيه حول خصرها وضمها فاهتز جسمها الحار اللين للمسته وخصرها وعانقها عناقا حاراً وشاع في نفسها السرور وحنت إلى الحياة الرحيبة القوية ولم تك تكترث لما تصنع فطوقت عنق أخيها بكلتا ذراعيها في بطء وزمت شفتيها لتتلقى قبلته وعيناها مفتوحتان كمغمضتين .

وأحست سعادة لاتدانيها سعادة بين ذراعي سانين ونسيت في هذه اللحظة من يقبلها أهو أخوها أوأجنبي عنها مثل الزهرة تدفئها الشمس ولاتسأل من أين كل هذه الحرارة .

ثم قالت مغتبطة : « ماذا جرى آه ! نعم ! لقد أردت أن اغرق نفسي .. ما أحمقني ! ولماذا ؟ آوه إن هذا جميل ! هات أخرى وأخرى . والآن سأقبلك أنا : ما أحلى هذا ! ولن أكترث لما يحدث مادمت أحيا » .

فقال سانين وأطاقها : « هذا أنت فانظري إن كل شيء حسن في الدنيا حسن ولاينبغي لنا أن نحياه قبيحاً ونمسخه » .

فابتسمت ليدا ابتسامة المفكر ورتبت شعرها وسوته وناولها سانين المظلة والقفاز فأدهشها في أول الأمر أن قفازها الثاني لاوجود له ولكنها لم تلبث أن ذكرت السبب وأضحكها اهتمامها العظيم بذلك الحادث لما وقع وقالت : « حسن حسن لقد مضى هذا وانقضى » .

وسارت مع أخيها على شاطىء النهر وأرسلت الشمس أشعتها القوية على صدرها الناضج المكتنز .

٢٠

لما فتح نوفيكوف الباب بيده لسانين لم تكن لهجته تدل على الارتياح إلى هذه الزيارة لأن كل ما يذكره ليدا وحلمه المتسخ كان يحرك آلامه .

ولاحظ سانين هذا ودخل الغرفة يبتسم وكان كل ما فيها مبعثر على غير نظام كأنما ثارت به زوبعة وكانت الأرض مغطاة بالأوراق والقش وغير ذلك . والسرير والكراسي عليها الكتب والثياب وأدوات الجراحة وحقيبة .

فسأله سانين مستغربا : « أمسافر أنت ؟ وإلى أين ؟ » .

فتحاشى نوفيكوف نظرة سانين ومضى في جمع أشيائه وهو مرتبك مغبط لارتباكه ثم قال أخيراً :

« نعم . لابدلي من مغادرة هذا المكان . فقد أمرت بذلك رسمياً » .

فنظر إليه سانين ثم إلى الحقيبة ، وبعد نظرة أخرى انبسطت أسارير وجهه عن ابتسامة وكان نوفيكوف صامتا يجثم على صدره إحساسه بالوحدة وحزنه العميق وشرع — وهو غارق في خواطره — يلف حذاءين مع بعض الأنابيب الزجاجية . فقال سانين : « إذا كنت تحزم أمتعتك على هذه الطريقة فستصل إلى حيث تقصد بدون الأنابيب أو بدون الحذاءين » .

فأرسلت عين نوفيكوف المغروقة ردها وقالت : « آه ! دعني . أما ترى كيف حزني وألمي ؟ » .

ففهم سانين هذا الرد الصامت وسكت .

وكان الأصيل قد جاء وصارت السماء صافية كالبلور ثم قال سانين : « أظن أن الأرشد لك والأولى بك بدلا أن تذهب إلى حيث لايدري إلا الشيطان — أن تتزوج ليدا » .

فاستدار نوفيكوف وهو يرجف وقال : « لايسعني إلا أن أطلب إليك أن تكف عن هذا المزاح السخيف » .

قال ذلك بصوت عال شديد فرن صداه وتجاوبت به الحديقة الخالية فسأله سانين : « لماذا هذا الغضب ؟ » .

فأجابه نوفيكوف بصوت مخنوق : « اسمع ؟ » .

وكان في عينيه وعلى وجهه من الغضب ما جعل سانين ينكره ولا يعرفه على أنه مع ذلك سأله ضاحكاً :

« أتريد أن تقول إنه لايكون من حسن حظك أن تتزوج ليدا ؟ » .
فصاح به نوفيكوف « اخرس : » .

وتطرح إليه وفي يده حذاء قديم يلوح به فوق رأس سانين . فقال سانين بعنف وهو يتراجع : « تمهل ! لاتغضب أمجنون أنت ؟ » .
فرمى نوفيكوف الحذاء ساخطاً وأسرعت أنفاسه وعاد سانين يتكلم فقال :
« لقد هممت فعلا بهذا الحذاء أن .. »

وأمسك وهز رأسه ورثى لصديقي وإن كان قد استخف سلوكه هذا فقال نوفيكوف وهو مرتبك : « إن هذا خطأك »
ثم شاعت في نفسه الثقة بسانين والاطمئنان إلى قوته وسكونه وكان هو كالتلميذ الصغير يود لو قال بشجوه كل مواقف وجال الدمع في عينيه وقال وهو يغالب عواطفه : « أو أنك عرفت كيف ينفطر قلبي ؟ ... » . فقال سانين بعطف :

« ياصديقي العزيز إني أعرف كل شيء » فأجابه نوفيكوف وجلس إلى جانبه « كلا : إنك لاتستطيع أن تعرف كل شيء » .
وأحس أنه ما من أحد به مثل حزنه وكمده فقال سانين :
« نعم نعم أعرف . واقسم على ذلك . وإذا وعدت أن لاتحمل على مرة أخرى بحذائك القديم هذا أثبت لك ما أقول . فهل تعدني ؟ » . أجاب « نعم سامحني يافولودكا ! »
وسمى سانين أول أسمائه وهو مالم يفعله من قبل فتأثر سانين وزادت رغبته مساعدة صديقه فقال ووضع يده على ركبة نوفيكوف :

« إذن فاسمع ولنكن صريحين . إنك مسافر لأن ليدا رفضت أن تتزوجك ولأنك لما كنا عند سارودين ظننت أنها هي التي جاءت إليه سرآ » .

فأطرق نوفيكوف ولم يسمعه الكلام لفرط حزنه وكأنما نكأ سانين جرحا رجيعاً ولاحظ سانين اضطراب صاحبه فقال لنفسه « ياللك من أبله طيب القلب : » ثم استأنف الكلام :

« أما من حيث العلاقات بين ليدا وسارودين فلا أستطيع أن أجزم بشيء لأني لا أعرف شيئاً ولكني لا أعتقد .. » .

ولم يتم الجملة لما رآه من اسوداد وجه صاحبه ثم عاد فقال :

« إن علاقتهما من حداثة العهد بحيث لا يمكن أن يكون قد حدث شيء خطير لاسيما إذا اعتبرنا أخلاق ليدا . وأنت بالضرورة تعرف كيف أخلاق ليدا » .

فمثلت لعين نوفيكوف صورة ليدا كما عرفها وأحبها — ليدا المزهوة العالية الروح المؤتلقة العين وعليها من الجمال الناضج أكليل وضيء فأغمض عينيه واستراح إلى كلام سانين الذي عاد فقال :

« وهبهما تعابثاً قليلا فقد مضى هذا وانقضى الآن . وعلى أنه ماذا يهمك إذا كانت فتاة شابة مجنحة الخيال مثل ليدا قد تسلت قليلا ؟ أحسبك بلا جهد كبير تستطيع أن تذكر على الأقل اثنتي عشرة حادثة خلعت فيها العذار وفعلت ما هو أخطر من هذا » .

فنظر نوفيكوف إلى سانين نظرة الواثق وخاف أن يتكلم لئلا تخبو بارقة الأمل الواهية الباقية ثم تمتم :

« إنك تعرف أني إذاً .. » : ووقف وخانته الألفاظ وخنقته العبرات فسأله سانين بصوت عال والتمعت عينه :

« إذاً ماذا ؟ إني أستطيع أن أقول لك هذا . وهو أنه ليس بين ليدا وسارودين ولم يكن بينهما شيء » .

فنظر نوفيكوف إليه مذهولا وشرع يتكلم : « أنا ، لقد ظننت ... » ، وأحس أنه لا يسعه أن يصدق سانين . فقال سانين بحدة « لقد ظننت سخافات كثيرة ! وكان ينبغي أن تكون أعرف بليدا . أى حب هذا مع كل ذلك التردد ؟ » .

فطار نوفيكوف فرحاً ودفع يده إلى سانين . ولكن وجه سانين تصلب وهو يرصد تأثير كلماته فى نفس صديقه .

وبدا على نوفيكوف السرور الواضح والارتياح البين إلى كون المرأة التى يشتهيها نقية طاهرة ونطقت عيناه الحزينتان الصريحتان بالغيرة الحيوانية . فنهض سانين وقال بصوت مهدد :

«أو هو . إذن فإنى أقول لك : إن ليدا لم تحبب ساروديين فقط بل كانت لها به علاقات غير شرعية وهى الآن حبلى» .

فسكنت الغرفة سكون الموت وابتسم نوفيكوف ابتسامة مريضة غريبة وفرك كفيه وخرجت من شفتيه المرتجفتين صرخة ضعيفة . ودل تقبض ركنى فمه على الغضب المكتوم فسأله سانين :

« لماذا لا تتكلم ؟ » .

فرفع نوفيكوف عينيه ولكنه جانب عين صاحبه وكان وجهه لا يزال تشوهه هذه الابتسامة . فقال سانين بصوت منخفض كمن يحدث نفسه :

« لقد عانت ليدا تجربة هائلة . ولولا أنى أدركتها مصادفة لما كانت الساعة حية . ولعادت الفتاة الجميلة القوية جثة ممسوخة غارقة بين أوحال النهر تأكل منها الحشرات . وليس المهم مسألة موتها فإننا جميعاً سنموت يوماً ما ولكن ما أوجع أن يفكر المرء فى أن الغبطة والوضاءة التى تمنحهما شخصيتها للغير يذهبان بذهابها . نعم إن ليدا ليست منقطعة النظير فى الدنيا ولكن ويحنا لو خلت الدنيا من مثل هذا الجمال لعادات مظلمة كالقبر . أما أنا فإنى مستعد أن أرتكب جريمة القتل إذا رأيت فتاة مسكينة تتقوض حياتها بهذه الطريقة السخيفة . وليس يعنينى على الإطلاق أن تتزوج ليدا أو أن تذهب إلى

الشيطان ولكنه لايسعني إلا أن أقول لك أنك مغفل أبله ! ولو انه كانت في رأسك فكرة صحيحة واحدة أكنت تعني نفسك وسواك من أجل أن امرأة حرة في الاختيار قد أحبت رجلا ليس بأهل لها وأطاعت غريزتها الجنسية واستوفت تمام نضوجها ؟ ولست فاعلم بالأبله الوحيد . فإن في الدنيا ملايين مثلك يحيلون الحياة سجنا مزويا عن ضوء الشمس وحرارتها ! وكم من مرة أطلقت فيها العنان لشهوتك برفقة مومس تشاطرك تسوقك ؟ وأما ليدا فما دفعها إلا العاطفة وإلا شعر الشباب والقوة والجمال . فبأي حق تنفر منها أنت يامن تدعو نفسك رجلا رشيداً ذكيا ؟ ماشأنك عاضبها ؟ أهي أقل جمالا ؟ أم أقل صلاحا لأن تحب وأن تحب ؟ أم المسألة أنك كنت تريد أن تكون أول من ينالها ؟ تكلم ! » .

فقال نوفيكوف وشفتاه ترتجفان :

« إنك تعلم حق العلم أن هذا ليس كذلك » .

فصاح سانين : « نعم هو كذلك . وإلا فما السبب من فضلك ؟ » .

فصمت نوفيكوف واسود كل شيء في نفسه ولكن خاطر العفو والتضحية طاف برأسه كما يومض شعاع النور في الظلمة .

وكان سانين يرقبه وكأنما قرأ مايدور في ذهنه فقال بصوت مضبوط متزن : « أراك تفكر في التضحية بنفسك من أجلها . وكأني أسمعك تقول لنفسك « سأهبط إلى دركها وأحميها من الرعاع » هذا ماتقوله الآن لنفسك الفاضلة فيضخم شأنك في عينيك كما تضخم الدودة تغتذي بالجثة . ولكن هذا كله زور . وليس هو إلا أكذوبة ؟ إنك لست مطيقا لتضحية الذات . ولو أن ليدا مثلا شوهها الجدري لكان من المحتمل أن تستطيع أن ترفع نفسك إلى مستوى هذه البطولة ولكنك كنت خايفا بعد يومين اثنين أن تسقي حياتها العلقم وأن تنبذها أو تهملها أو تمطرها التأنيب كل ساعة . أما الآن فإنك تقتضب من نفسك موقف العبادة . نعم لقد استحال وجهك وصار من يرالخليقا أن يقول « انظروا ! هذا قديس ! » ولكنك لم تفقد شيئاً كنت

تبغيه . إن أعضاءليدا ما زالت كما كانت ولم تزايلها قوة العاطفة ولا أصابها جزر في حيويتها البديعة . ولكن من المرغوب فيه جدا أن يروح المرء يستمتع ويقطف أزاهير اللذات وهو يوهم نفسه أنه إنما يأتي عملا شريفا ! ! » .

فلما سمع نوفيكوف هذا الكلام فارقه عطفه على نفسه واستولى على روحه شعور أنبل وأشرف فقال معاتبا :

« إنك تجعلني أسوأ مما أنا في الواقع ، ليس ينقصني الشعور كما تظن . وما أنكر أن لي آراء معينة وأن بي بعض التحرج ولكني أحب ليدا بتروفنا ولو أني على يقين من أنها تحبني أكنت تظن أن يطول بي التردد من أجل أن ... » .

وخانه صوته . وهدأ سانين فجأة واجتاز الغرفة ووقف أمام النافذة المفتوحة غارقاً في بحر من الفكر وقال :

« إنها في هذه الساعة حزينة جداً لا يسعها أن تفكر في الحب. وكيف أعرف هل تحبك أم لا تحبك ؟ ولكن يخيل لي أنك إذا ذهبت إليها وكنت بذهابك ثاني رجل لم يضطهدها من أجل حبها القصير . . . على كل حال لا أستطيع أن أعلم ماذا عسى أن تقول ! » .

وكان نوفيكوف جالساً كأنه يحلم وأشعره الحزن والسرور نوعا من السعادة لطيفا كالضوء في السماء مساء .

وقال سانين : « لنذهب إليها . ومهما يكن ما يحدث فإنه سيسرها أن ترى وجه إنسان وسط هذه الوحوش المسيخة المتعبة. إن بك يا صديقي بعض الغباء ولكن في غبائك شيئا ينقص سواك . تالله ما أغرب أن الدنيا كانت وما تزال تبني آمالها وسعادتها على مثل هذا الغباء ! تعال نذهب . » .

فابتسم نوفيكوف وقال : « إني على أتم استعداد للذهاب إليها ، ولكن أتهتم بأن تراني ؟ » .

فقال سانين ووضع يده على كتفي نوفيكوف :

« لا تفكر فى هذا . إذا كنت تريد أن تفعل خيراً أو صوابا فافعله ودع المستقبل يعنى بنفسه » .

فقال توفيكوف بلهجة البت : « حسن فلنذهب » .

ولما صارا فى حرم الباب وقف وقال بلهجة التأكيد وعينه محملقة فى وجه سانين : « اسمع سأبذل أقصى وسعى لإسعادها . وقد يبدو لك هذا الكلام مبتذلا ولكنى لا أعرف كيف أعرب عما فى نفسى بما هو خير من هذا » .

فأجابه سانين بلهجة الودود : « لا يكربك هذا ياصديقى . فإنى فاهم ما تريد » .

(٢١)

كان الصيف وهاجا . والليل يسجو إذا طلع القمر المنير ويعود الجو مثقلا بشذى الرياض والحقول فتأنس النفوس وتجد الروح والغبطة :

وكان الناس يكدحون نهارهم أو يشتغلون بالسياسة أو بالفنون وبالأكل والشراب والاستحمام والحديث حتى إذا فتر الحر وخفت وقدته وسكنت الضوضاء وأخذ قرص القمر يطلع فى الأفق ويطل على المروج والحقول ويريق على سطوح المنازل والحدائق ضوءه البارد خلصت أنفاس الناس واستأنفوا الحياة كأنما نفضوا عنهم ثوبا ثقيلا وصارت الحياة فى حيث تكون للشباب الغلبة أوسع وأكثر حرية فتتجاوب الحدائق بأصوات البلابل وتعمق الظلال وتعود العيون أشد تلماعا والأصوات أعذب رقة ويبيت الجو مشربا أنفاس الحب وطيبه .

وكان يورى وشافاروف عظيمى الاهتمام بالسياسة وكانت قد تألفت جماعة التهذيب فطالع يورى كل الكتب الحديثة وراح يعتقد أنه وفق إلى العمل الصالح له . واهتدى إلى وسيلة يمحو بها كل شكوكه . ولكنه لم يكن يجد الحياة إلا عقيمة جافة لا فتنة فيها على كثرة ما كان يقرأ وعلى الرغم من مشاغله جميعها ولم تكن الحياة تعود مشتهاة إلا حين كانت الصحة والعافية يضفوان عليه ، وإلا حين ينبه حواسه الحب . وكانت كل الفتيات سواء فى

نظره من قبل فالتتي واحدة منهن رآها جمعت مفاتن اترابها واستبدت دونهن بحسنها ورونقها .

وكانت طويلة القامة بارعة التكوين يعتدل رأسها الجميل على كتفيها المصقولتين الناصعتين حديثها تغريد وغناؤها سحر . ولها في الشعر والموسيقى باع تستطيلها وتزهى بها ولكن حيويتها الدافقة لم يكن لها مظهر أقوى ولا صورة أتم من جهدها الجثماني فكان يلج بها الحنين إلى شيء تضمه إلى صدرها وإلى أن تضرب الأرض بقدمها وأن تضحك وتغنى وأن تتأمل ذوى الوجوه الصبيحة من الشبان وكانت ربما اشتاقت — في وقدة الظهيرة أو في الليلة القمراء — أن تخلع كل ماعليها من ثياب وأن تعدو على الحشائش وتقذف بنفسها في النهر بحثاً عمن تحن إلى اجتذابه واستهوائه إليها بأعذب نغمة وكان محضرها يحرك نفس يورى فيعود أفصح لساناً وأسرع نبضاً وأحضر خاطراً . وكان نهاره يفكر فيها ويحلم بها حتى إذا جاء الليل راح يبغيها وإن أبى أن يقر بذلك لنفسه . ولا ينفك يحلل إحساساته فتذوى على التعاقب كالنورة في الصقيع . وكلما سأل نفسه ماذا يجذبه إلى سينا كرسافينا أجاب « إنها الغريزة الجنسية لا شيء سواها » فيثير هذا التعليل أعمق الاحتقار لنفسه . على أنه كان بينهما تفاهم ضمني فكأنهما مرآتان تنعكس في صقال كل منهما عواطف الآخر .

ولم تكن سينا تعنى بأن تحلل خوالجها بل كانت تستلذها وإن أقلقتها وكانت تكتمها ولا يبيحها أحداً وكربها أنها لم تستطع أن تعلم ماينطوى عليه لها صاحبها وكانت ربما خيل إليها أنه ليس بينهما شيء فتأسى لذلك كأنما افتقدت ثميناً على أنها لم تكن تكره أن تكون موضع احتفال غيره من الرجال وأكسبها اعتقادها أن يورى يحبها دالة جعلتها أفتن لسواه من المعجبين بها . وكان يسحرها وجود سانين كل السحر ويسبيها منه كتفاه العريضتان وعيناه الساكنتان وشمائله الهادئة المستقرة . ولما تنبهت إلى عمق مايتركه سانين من الوقع في نفسها أحست بضعف الإرادة إن لم يكن بالخفة

وقلة الحشمة . ولكنها على هذا ظلت تمنحه أعظم الالتفات والرعاية .

وفي نفس الليلة التي كانت فيها ليدا تجوز ذلك الامتحان القاسي التقت سينا ويوري في المكتبة فاقتصرا على تبادل التحية وانصرف كل منهما إلى شأنه ومضت هي تنتقي الكتب واشتغل هو بمطالعة الصحف الواردة مع البريد الأخير من بطرسبرج . على أنه اتفق أن زايلا المكان في وقت واحد فترافقا في الطريق واجتازا معاً الشوارع الموحشة في ضوء القمر وكان كل شيء ساكنا سكون القبر ولم يكن السارى يسمع إلا صوت الحراس من حين إلى حين وإلا نباح الكلاب عن بعد .

ولما بلغا الميدان رأيا نفراً جلوسا يضحكون تحت الأشجار واستطاعا في ضوء سيجارة تشعل أن يلمحا شاربا جميلا وورد على سمعهما صوت يغني « إن قلب الحسناء قلب كالريح » ولما اقتربا من بيت سينا جلسا على مقعد وكان الظلام طاغيا وأمامهما الشارع العريض يضيئه القمر والكنيسة على قمتها صليب ملتمع كالنجم باديا من فوق قمم الصفصاف .

فقالت سينا وأشارت إلى الكنيسة : « أنظر ! ما أجمل هذا ! » .

فنظر يوري إلى كتفها البيضاء الحاسرة نظرة الإعجاب واشتاق أن يضمها بين ذراعيه وأن يقبل شفتيها الحمراوين الناضجتين وكأنما لم يكن له بد من ذلك وكأنما كانت هي تتوقع ذلك وتشتهيه ولكنه ترك الفرصة السانحة تمر وجعل يضحك من نفسه ساخراً في رفق فسألته ، « لماذا تضحك ؟ »

فقال يوري وهو مضطرب وحاول أن يخفي انفعاله :

« لست أدري ! لاشيء » .

وصمت كلاهما وأنصتا إلى أصوات ضعيفة يحملها النسيم إليهما في الظلام ثم باغتته سينا بهذا السؤال : « ألم تحبب قط ؟ » .

فأجابها يوري ببطء : « نعم » .

وقال لنفسه : « وهبني صارحتها فماذا يكون ؟ » .

ثم قال لها : « إنى الآن أحب » . فسألته : « وتحب من ! » .
وأشفقت أن تسمع الجواب وإن كانت على يقين منه .
فأجابها يورى « أحبك أنت » .

وحاول عبثا أن يقول ذلك بلهجة المازح وهو مائل إليها يحدق فى عينيها المؤتلقتين وكانتا ناطقتين بالدهشة والانتظار واشتاق يورى أن يعانقها ولكن شجاعته خانته مرة أخرى فتظاهر بأنه يعالج بأن يكتم الثؤباء .

فحدثت سينا نفسها « انه إنما يمزح » وخمدت فى نفسها الحرارة وآلمها هذا التردد من يورى وأرادت أن ترد الدموع فقرضت أسنانها ثم قالت بلهجة غريبة : « هذا كلام فارغ » .

ونهضت فقال يورى بجد غير طبيعى :

« إنى جاد جداً . فصدقينى فإنى أحبك حبا طاغيا » .

فتناولت كتبها ولم تنبث وسألت نفسها : « لماذا يتكلم على هذا النحو ؟ لقد أريته أنى أعنى به فلما بدا له هذا أخذ يحتقرنى » .

فانحنى يورى ليلتقط كتابا سقط وقالت له هى ببرود :

« لقد آن أن أذهب إلى البيت » .

فأحزن يورى أنها تريد العود إلى بيتها فى هذه اللحظة ولكن رأى أنه قام بدوره على أحسن وجه وأنجحه وأنه لم يصنع شيئا مبتذلا ثم قال بصوت مؤثر : « إلى الملتقى » .

فمدت إليه يدها فأسرع فانحنى ولثمها ففزعت سينا وانفرجت شفتاها عن صيحة خافتة وقالت : « ماذا تصنع ؟ » .

ولم تكد شفتاه تلمسان يدها الرخصة الصغيرة ولكن صدره جاش مع ذلك حتى لم يسعه أكثر من الابتسام الخفيف وهى تسرع نائية عنه ثم مالبث أن سمع صوت بابها ولم تفارقه هذه الابتسامة السخيفة وهو ماض إلى بيته وراح يحس القوة فى جسمه والغبطة فى قلبه .

(٢٢)

لما بلغ يورى غرفته الضيقة كالسجن وجد الحياة أبعث ما تكون على السآمة وخيل إليه أن حادثته الغرامية التى وقعت له مبتذلة أتم الابتذال .

« لقد سرقت منها قبلة ! فأى نعمة ! وما أعظم بطولتى ! إن البطل يستهوى فى ضوء القمر فتاته الحسانة بالألفاظ الملتهبة والقبل النارية ! ربا ه ! أى سخافة ! إن المرء ليعود مغفلا فارغا جدا فى هذا الجحر الصغير اللعين ! » .

وكان يورى وهو فى المدن يتصور أن الريف هو المكان الصالح له حيث يستطيع أن يعايش القرويين ويشاطرهم كدهم تحت الشمس المحرقة . فلما أتيحت له الفرصة بدا له أن حياة القرى لا تطاق وأحس الحاجة إلى منشط من المدن التى لايتسع سواها لقواه ومواهبه وكان لا يفتأ يقول «ماأحلى جلبة المدن وضوضاءها ! وهزة الفصاحة المنبعثة عن قوة العاطفة ! » بيد أنه لم يلبث ان كبح هذه الحماسة الصبيانية .

« وبعد فما معنى هذا ؟ أى شىء هذه السياسة والعلم ؟ أنها لكبيرة ما بقيت مُثلا عليا نائية ولكنها فى حياة كل فرد ليست إلا تجارة ككل شىء سواها ! النضال ؟ جهود تيتان ؟ إن ظروف الحياة الحديثة تجعل هذا مستحيلا . إنى أعانى وأجاهد وأتخطى رقاب الموانع ! حسن وماذا إذاً ؟ أين المنتهى؟ إنه ليس فى حياتى على كل حال ! لقد أراد بروميثيوس أن يهدى النار إلى الناس وأن يعلمهم قدحها ولقد فعل . وتلك أن تعد هذانصراً كبيرا وفتحا مبينا إذا شئت . ولكن ما الرأى فينا نحن ؟ إن أقصى مايسعنا هو أن نضيف عيدانا موقوصة إلى نار لم نوقدها ولن نكون نحن الحمدبها ؟» .

وخطر له أنه إذا كانت الأمور على غير ما ينبغى فذلك لأنه ليس من طراز برمثيوس ! وهو خاطر محزن فى ذاته كل ما أفاده هو أن أتاح له فرصة جديدة لتعذيب نفسه .

« أى برومثيوس أنا يا ترى ؟ إنى لاأزال أنظر إلى الأشياء من وجهة

شخصية أنانية . « أنا » دائما « وأنا » فى كل شىء . ألا أنى لضعيف مهين كغيرى من الناس الذين أحتقرهم من أعماق قلبى » .

وساءته هذه المقارنة حتى اختلطت خواطره فجلس برهة يفكر فى الموضوع ويعالج أن يلتمس مبرراً ما . فقال وارتاح قليلا إلى هذا الخاطر : « كلا لست مثل سواى لأنى على الأقل أفكر فى هذه الأمور وهو ما يحلم بأن يفعله أمثال ريازانتزيف ونوفيكوف وسانين . إنهم لا يجرى ببالهم قط أن ينقدوا أنفسهم إذ كانوا أتم ما يكونون سعادة ورضى عن نفوسهم كخنازير « زردشتر » . إن الحياة كلها تتلخص فى ذاتيتهم الذرية وتالله لقد أعدونى بهذه السطحية ! آه نعم ! إذ كان المرء بين الذئاب فليعو مثلها. إن هذا طبيعى » .

وجعل يورى يقطع الغرفة جيئة وذهوبا فحدث — وذلك مألوف — أن تغير اتجاه خواطره بتغير المكان .

« حسن جداً . هذا كذلك . وعلى كل حال فالواجب النظر فى أمور كثيرة . مثال ذلك ما هو موقفى حيال سينا كرسافينا ؟ وليس المهم هل أحبها حباً جما أم قليلا ، بل المسألة متعلقة بالنتيجة . ولنفرض أنى تزوجتها أو اتصلت بها أتصالا وثيقا . فهل ترانى أعود بذلك سعيداً ؟ إن الغدر بها جريمة وأنا أحبها . . . حسن إذاً فإنى استطيع . . . الأرجح فى الاحتمال أن ترزق منى أبناء . . . « وأخجله هذ الخاطر » وليس فى هذا عيب سوى أنه قيد يفقدنى حريتى . فأعود رب أسرة . تقول النعيم المنزلى ؟ كلا ليس هذا بسبيلى » .

« واحد . أثنان . ثلاثة . » — هكذا كان يعد وهو يحاول أن يتخطى مربعين ويضع قدمه على الثالث .

« لو استطعت أن أكون على يقين من أن لا نحمل أو من أن أحب أبناءنا إذا رزقناهم وأقف حيساتى لهم ! كلا ! ما ارذل هذا وأصغره !

وربازانتزيف سيكون له أبناء يحبهم فأى فرق يكون بيننا ؟ حياة تضحية بالذات ؟ ويزعم الزاعم أن هذه هي الحياة الحقيقية ؟ نعم هي كذلك ولكن تضحية لمن ؟ وبأية طريقة ؟ ودع عنك الطريق الذى اختاره والغاية التى أرمى إليها وأرنى المثل الأعلى الذى يستحق أن أموت فى سبيله . كلا ! إن السبب ليس راجعاً إلى ضعفى بل مرده إلى أن الحياة نفسها ليست بأهل للتضحية أو الحماسة . وعلى هذا فلا معنى البتة لأن يعيش المرء » .

ولم يتفق له من قبل أن اقتنع بصحة هذه النتيجة مثل هذا الاقتناع وكان على منضدته مسدس كلما مر به وهو سائر أخذت عينه حديده المصقول .

فتناوله وفحصه بعناية وكان محشواً وصوب فوهته إلى صدغه وقال لنفسه : « هكذا ! باتج — ثم ينقضى الأمر ! فهل من الحكمة أو الغباء أن يقتل المرء نفسه ؟ هل الانتحار جبن ؟ إذاً فاحسبنى جباناً ! .

وأحس لمس الحديد البارد لجبينه الملتهب لذة وفزعاً وسأل نفسه : « وماذا عن سينا ! دعنى من هذا فلن أفوز بها ولهذا فإنى أدع لغيرى هذه المتعة » .

وأيقظ خاطر سينا ذكريات سارة حاول أن ينفيها لأنها حمق وضعف وقال « لماذا لا أفعل ؟ » .

فكأنما كف قلبه عن الخفقان . ثم سدد المسدس إلى جبينه فى احتفال وإصرار ورفع الزناد فجمدت دماؤه فى عروقه وطن فى أذنه شيء ومادت به الغرفة .

ولكن الرصاصة لم تنطلق فلم يسمع سوى صوت الزناد فهوت يده إلى جانبه وهو يكاد يغشى عليه وكانت كل شعرة ترتجف ورأسه يدور وشفتاه معصوبتان ويده من الاضطراب بحيث سقط المسدس على المنضدة . فقال وعادت إليه نفسه :

« ما أغرب شأنى » .

ومضى إلى المرآة ليرى فيها وجهه وقال :

« أجبان أنا إذن ؟ كلا ! لست به . لقد فعلتها كما ينبغي وماذا أصنع إذا كانت الرصاصة لم تشأ أن تنطلق ؟ » .

ورامقه خياله في المرآة وكان فيما يرى بادي الجد . ثم أخذ يقنع نفسه بأنه لايعلق أية أهمية بما حدث ولأجل هذا أخرج لسانه لخياله ! ونأى عن المرآة وقال بصوت عال : « إن القدر لم يشأ أن يتم ما أردت » .

وكأنما أنعشه صوته . ثم سأل نفسه « ترى هل أبصرني أحد » وتلفت مذعوراً ولكن كل شيء كان ساكناً ولم يسمع حركة وراء الباب . فكأنما لاموجود سواه ولامعذب في هذه الوحدة غيره . وأطفأ المصباح فأذهله أن رأى أولا أشعة الفجر الحمراء ثم استلقى لينام وأحس في نومه شيئاً هائلا ينحني فوقه ويخرج أنفاساً من النار .

(٢٣)

زحف الأصيل في رفق ولين وقد ترقرق في حواشيه أريج الأزهار . وكان سانين جالساً إلى منضدة قريباً من النافذة يطالع — أو يحاول أن يطالع — في الضوء الكابي قصة يحبها وهي وصف لمصرع أسقف هرم قضى نحبه وهو لابس ثيابه اللاهوتية وفي يده صليب مرصع والبخور يعقد في الجو سحابات .

وكان الجو في الغرفة بارداً مثله خارجها ونسيم المساء العليل يمسح جسم سانين القوي ويملأ رئتيه ويعبث بشعره فمضى في قراءة القصة وكانت شفتاه تتحركان من حين إلى حين فلو رأيته لحسبته صبياً كبيراً يلتهم حكاية من حكايات المخاطرة بين الهنود على أنه كان كلما أوغل في الكتاب تسود خواطره ويعجب للدنيا كيف حشيت كل هذه السخافة وللناس وكثافتهم ووحشيتهم ! ولنفسه كيف يلدهم وسبقهم !

وفتح الباب ودخل منه زائر فرفع سانين طرفه وقال وهو يطوي الكتاب :

« آها . هاعندك من الأخبار ؟ » .

فافتر ثغر نوفيكوف عن ابتسامة حزينة وصافح سانين وقال وهو يدنو

من النافذة : « لاشيء ! إن كل شيء كما كان »

ولم يكن سانين يستطيع أن يرى من نوفيكوف إلاشخصه الطويل . فظل برهة طويلة ينظر إليه ولايتكلم

وكان سانين قد مضى قبل ذلك بصديقه إلى ليدا التي تغيرت وزايلها الزهو والشموخ فلم يقبثا يحرف عما هو أدنى الى قلبيهما وأعلق بهما وكان سانين يعلم أنهما سيشقيان بعد أن يتصارحا وأنهما خايفان أن يكونا أشقى وأتعس اذا ظلا صامتين وأن مايستسهله هو لايسعهما الا بجهد جاهد فقال لنفسه « ليكن الأمر كذلك فإن الألم ينقى الروح ويرفعها فأما الآن فقد سنحت الفرصة الملائمة لهما

وكان نوفيكوف واقفا قبل النافذة ينظر فى صمت إلى مغرب الشمس وكان ينازعه الأسى على مافقد والشوق الى اللذة المنتظرة فصور لنفسه ليدا حزينة مطوقة بالعار فلو آتته الشجاعة لركع أمامها الساعة ونفث بلثماته الحرارة فى يديها الباردتين ويحبه الضخم الغفور حياة جديدة فى عروقها ولكن أنى له بالقوة والقدرة على المضى إليها ؟

وكان سانين يدرك ذلك فنهض فى بطء وقال : « إن ليدا فى الحديقة فهل نذهب إليها ؟ »

فأسرعت دقات قلب نوفيكوف وامتزج فى نفسه الفرح والحزن أغرب امتزاج وتغير وجهه قليلا وجعلت إصابعه تعبث بشاربيه . فأعاد . سانين سؤاله فى هدوء كأنما آلى أن ينهض بأمر خطير ماقولك فى ؟ هلا أنذهب ؟ »

فأحس نوفيكوف إن سانين يعرف كل ما فى نفسه فاستحيا كالصبى وإن كان قد أراحه هذا الإحساس قليلا . فقال سانين فى رفق « هيا بنا ! »

وأمسك بكتف نوفيكوف ودفعه إلى الباب فتمتم « نعم . . أنا . . . »

وكاد يعانق سانين ولكنه لم يجترىء ولم يسعه إلا أن يرمقه بعين عبرى وكانت الحديقة الدافئة العطرة مظلمة وأغصان الأشجار فوق جذوعها تكون فيما بينها أقبية تحت السماء الخضراء وعلى سطح الأرض الظامئة ضباب

خفيف خافق فكأنما هناك شبح غير مرئي يجوب مسالك الحديقة الصامتة ويسري بين الأشجار الجامدة فترجف لطيفة الأوراق والأزهار الناعسة وكان الشفق لايزال وهاجا فيما وراء النهر المنحدر بين المروج الحالكة وعلى حرفه تجلس ليدا مكبة عليه مائلة اليه كأنه روح حزين ظفره الطفل فلما سمعت صوت أخيها ملأها يقينا لم يلبث أن ولى أسرع مما جاء واستحوذ عليها الخوف والخجل وأحست كأنما لاحق لها في السعادة لا ولا في الحياة وكانت لذلك تقضي النهار كله في الحديقة وفي يدها كتاب إذ كانت عينها لاتقوى على النظر إلى أمها . وتحدث نفسها مرة بعد أخرى ان ألم أمها لايكون شيئاً مذكورا بالقياس إلى ماتعانيه هي الآن ولكنها على هذا ما اقتربت من أمها الا تلعثم لسانها وارتسمت في عينها نظرة المذنب فأثارت خجلاتها واضطرابها العجيب ظنون أمها وحركت شكوكها ولحت ذلك ليدا فصارت تلوذ بالحديقة فراراً من نظراتها الفاحصة وأسئلتها القلقة . وهكذا كانت الليلة جالسة على حافة النهر تنظر إلى المغرب وتفكر في مصابها وكانت الحياة لاتزال في نظرها مستعجمة وكانما يحول بينها وبين استجلائها شبح بشع . فاستعانت بضعة كتب وسعت أفق فكرها وحررته فجنحت إلى الاعتقاد بأن سلوكها طبيعي بل حقيقي بالثناء ذلك إنها لم تسيء إلى أحد وما فعلت شيئاً سوى أن أمكنت نفسها وشخصا آخر مثلها من اللذة الجسمية التي لاشباب بغيرها والتي تعقم الحياة بدونها وتقفر وتعود كالشجرة العارية في الخريف .

واستسخفت أن علاقتها بذلك الرجل علاقة لم تمنحها الكنيسة موافقتها بعد . ذلك أن حرية التفكر قد نقضت هذه الضرورات من زمن بعيد وانها لحقيقة أن تغتبط بهذه الحياة الجديدة أغتباط الزهرة استيقظت صباحا على مس اللقاح يحمله إليها النسيم ولكنها مع هذا أحست أنها صارت أحط وأسفل من كل منحط وسافل .

وذابت كالشمع كل هذه الآراء النبيلة الجليلة والحقائق الأبدية لاقتراب

يوم الفضيحة وصارت تفكر فى أن تدوس بقدمها من ممتهنوها بل همها الوحيد وشغلها الشاغل هو كيف تجانبهم أو تخدعهم .

على انها مع رغبتها فى اخفاء حزنها عن غيرها أحست جاذبا الى نوفيكوف كما تجذب الشمس الزهرة . وخيل اليها ان من الحقارة بل من الاجرام أن يراد منه انقاذها . وحز فى ضلوعها أن يتوقف أمرها على حبه وصفحه ولكن الرغبة فى الحياة كانت أقوى من الكبر

وكان خوفها من غباء أعظم من احتقارها له فلم تكن تستطيع أن تنظر الى نوفيكوف بل كانت ترجف فى حضرته كالعبد أمام مالك رقه فما أشبهها بالطائر المهيض الجناح الذى لا يسعه أن يطير مرة أخرى

وكانت اذا جاوز الألم طاقتها ربما فكرت في أخيها بشيء من الدهشة . وكان لا يخفى عنها انه لا يقدس شيئا وانه ينظر اليها وهى أخته نظر الذكر الى الأنثى وانه أنانى لا يكترث للعرف والعادة ولكنه الرجل الوحيد الذى كانت تحس الحرية المطلقة فى محضره والذى تستطيع أن تصارحه بأخفى أسرار حياتها : لقد خطئت ... حسن . وماذا في هذا ؟ ولقد أمكنت رجلا من نفسها .. حسن جداً وهل كان هذا الا بمشيئتها ؟ وسيحتقرها الناس ويمتهنونها فاذا بهم ان أمامها الحياة وضوء الشمس والدنيا الطويلة العريضة وأما من حيث الرجال فهم كثر وستأسى أمها وتحزن . حسن . ان هذا شأنها هى اذا شاءت ذلك . وان ليدا لتجهل شباب أمها ولا تعرف عنه لا قليلا ولا كثيرا ومتى ماتت فلن يبقى مجال للبحث والتنقيب، ولقد التقيا مصادفة فى طريق الحياة وترافقا مسافة فهل هذا سبب يدعوهما الى تبادل المقاومة والمعارضة ؟

وتبينت ليدا أنها لن ترزق حرية أخيها وإنما خطرت لها هذه الآراء بتأثير هذا الرجل القوى الساكن الذى تعجب به وتحبه فطافت برأسها خواطر غريبة .. خواطر ليست مشروعة الصبغة وحدثت نفسها أن « آه لو كان غريبا ولم يكن أخى ! » .

وبادرت فعالجت أن تخنق هذا الخاطر الفاضح المغرى .

ثم ذكرت نوفيكوف فاشتاقت كالرفيق العزيز أن يمنحها عفوه ورضاه وسمعت وقع أقدام فتلفتت وجاء إليها سانين ونوفيكوف فى سكون ولم نستطع أن نتبين وجهيهما فى الظلام ولكنها أحست أن اللحظة المرهوبة قد دنت أصفر وجهها وكأنما أوشكت الحياة أن تنتهى .

وقال سانين : « هذا أنت ؟ لقد جئت إليك بنوفيكوف وسيقول لك كل ما عنده فامكثا هنا ريثما أذهب وأعود بشىء من الشاى » .

وإنقلب عنهما مسرعا فظلا هنية يرقبان قميصه الأبيض يغيب فى ظلمة الليل وكان السكون من العمق بحيث ظناه لم يجاوز ظلال الأشجار المحيطة بهما .

وقال نوفيكوف بصوت رقيق متهدج وقع من قلبها أعمق وقع : «ليدا بتروفنا ؟ » .

فقالت لنفسها مسكين ! ما أطيبه ! » .

ومضى هو فقال : « انى أعرف كل شىء ياليدا بتروفنا . ولكن حبى لك باق على عهده . وربما أحببتنى يوما ما فقولى لى هل تقبليننى زوجا ؟ » .

وقال لنفسه « خير لى أن لا أكثر من الكلام فى هذا إذ لاينبغى أن نعرف أى تضحية أبذلها من أجلها » .

فصمتت ليدا فكان المرء يسمع خرير الماء فى هذا السكون وعاد نوفيكوف إلى الكلام فقال : « إننا شقيان ياليدا . ولعل الحياة تعود أخف محملا إذا كنا معا » وكانت هذه الكلمات خارجة من أعماق قلبه ففاضت عينا ليدا بدموع الشكر وهى تميل إليه وتقول « لعل وعسى » .

على أن عينيها قالتا له : « ويعلم الله أنى سأكون زوجة صالحة وأنى سأحبك وأحترمك » .

فقهم نوفيكوف ما قالت العينان فهوى إلى ركبتيه وتناول يدها وأمطرها

قبلات حارة فأجاشت هذه العاطفة نفس ليدا فنسيت عارها وحدثت نفسها « أن قد انقضى ومضى ذلك الأمر وسأسعد مرة أخرى . فيالك من رجل طيب ! »

وأبكاها الفرح فدآنته كلتا يديها وانحنت على رأسه ولثمت شعره الناعم الحريرى الذى كانت تعجب به ومثلت لعينها صورة ساروديز ولكنها لم تظهر حتى غابت .

ولما عاد سانين بعد أن أفسح لها الوقت للتفاهم ألفاهما جالسين وأيديهما مشتبكة وهما يتحدثان بصوت خافت هادىء

فقال سانين بهيئة الجاد : « آها ! اشكرا الله واسعدا »

وكان يهم أن يقول شيئاً آخر ولكنه عطس بدل أن يتكلم ثم قال ومسح عينيه : « إن الجو هنا رطب فاحذر البرد »

فضحكت ليدا وتجاوبه ما وراء النهر بصدى صوتها الفاتن ثم قال سانين بعد فترة : « سأذهب عنكما »

فسأله نوفيكوف « إلى أين تذهب ؟ »

قال « إن سفاروجتش وذلك الضابط الذى يعجب بتولستوى — ما أسمه ؟ — قد دعوانى »

فقالت ليدا ضاحكة : « اتعنى فون دايتز ؟ »

— « هو بعينه . ولقد أرادا أن نكون جميعاً هناك ولكنى قلت لهما أنك لست فى البيت »

فسألته ليدا ضاحكة أيضاً : « لماذا قلت له ذلك ؟ ربما كنت أذهب »

فقال سانين : كلا . ابقيا هنا . ولو كان معى رفيق لبقيت مثلكما »

ثم تركهما

وزحف الليل وارتمت على الأرض غيابات الظلام وبدا أول نجم يرتعش فى مرآة النهر المتدفق .

كانت الليلة داجية والسحب يطارد بعضها بعضاً فوق الأشجار وكانت تمضي مسرعة كأنها مرسلة إلى غاية خفية والنجوم تتلامع لحظة وتختفي أخرى وكل شيء في السماء كأنه في هرج ومرج على حين كانت الأرض كمن ينتظر شيئاً وهو معلق الأنفاس فكانت الأصوات الآدمية المتنازعة وسط هذا السكون مستثقلة عالية .

قال فون دايتز وهو يتعثر تعثراً شديداً : « مهما يكن من الأمر فإن المسيحية نعمة باقية وبركة خالدة على الإنسانية إذ كانت هي النظام الوحيد التام المفهوم للأخلاق » .

فقال يوري وكان سائراً خلفه ورمى برأسه يمنة على سبيل التحدي وعينه إلى ظهر الضابط : « هذا صحيح . ولكن المسيحية في صراعها مع الغرائز الحيوانية في الإنسان ظهر أنها عاجزة كغيرها من الأديان »

فصاح فون دايتز مغضباً « ماذا تعني بقولك ظهر أنها كذلك ؟ إن للمسيحية المستقبل وفي الإشارة إلا أنها عتيقة . . . . »

فقاطعه يوري بحدة : « ليس للمسيحية مستقبل . وإذا كانت لم تنتصر وهي في أوج نشوئها بل صارت آلة في أيدي عصابة من الدجالين فمن السخافة المطبقة أن نتوقع منها معجزة في هذه الأيام التي عاد حتى اسم المسيحية فيها مضحكاً . إن التاريخ لا يرحم وكل ما يخرج من الميدان لا يسعه أن يكر إليه » .

فصرخ فيه فون دايتز : « هل تريد أن تقول أن المسيحية خرجت من الميدان ؟ »

فمضى يوري في كلامه معانداً : « أعني ذلك على التحقيق . وأراك تعجب لذلك كأن مثل هذه الفكرة مستحيلة . كما أن شريعة موسى قد بادت وكما أن بوذا وآلهة الاغريق قد غبروا كذلك ذهب المسيح . هذا قانون التشوء فماذا يدهشك ؟ أتؤمن بألوهيته ؟ »

فقال فون دايتز وقد ساءته لهجة يورى أكثر مما ساءه السؤال :

« كلا لا اؤمن بألوهيته »

فسأله يورى : « إذاً فكيف تقول أن إنساناً يستطيع أن يخلق سنناً أبدية ؟ »

وحدث نفسه إن فون دايتز « قدم غبي » وارتاح إلى الاقتناع بأنه دونه ذكاء بمراحل وأنه يعجز عن فهم ما هو واضح وضوح الشمس .

فقال فون دايتز وقد تحمس بدوره : « لنفرض أن هذا كذلك . فإن المستقبل على الرغم من هذا الفرض ستكون قاعدته المسيحية . ذلك لأنها لم تفن . ولكنها كالبذرة في التربة ... »

فقاطعه يورى وبه بعض الارتباك والغضب لارتباكه :

« لم أكن أتكلم عن هذا . وإنما أردت أن أقول ... »

فقال : « عفوا فإن هذا هو ما قلته »

فقاطعه يورى مرة ثانية وقد هاجه أن هذا الغبي يظن نفسه أذكى الاثنين « إذا كنت قد قلت كلا فإني أعني ما أقول . ما أسخفك ! أريد أن أقول .... »

فقال « قد يكون هذا كذلك . وأنا آسف إذا كنت قد أسأت الفهم »

وهز فون دايتز كتفيه الضيقتين هزة المتنازل إلى التسامح وكأنه يقول إنه فاز على مناظره .

ولم يفت يورى هذا المعنى فكاد يخنقه الغضب وقال :

« لست أنكر أن المسيحية قامت بدور عظيم ... »

فصاح فون دايتز : « آه ! إنك الآن تناقض نفسك » والتز هذا النصر وسره جداً أنه يفوق يورى ذكاء وفطنة .

فقال يورى بحرارة : « ربما خيل إلى مثلك أني أناقض نفسي ولكن الواقع أن فكرتي منطقية وليس ذنبي إنك لا تريد أن تفهم . ولقد قلت

وأقول الآن أن المسيحية قد غبر عهدها وإن من العبث أن نتطلع إليها لخلاصنا »

فسأله فون دايتز قائلا : « نعم نعم . ولكن هل تريد أن تنكر التأثير الحسن الذى أحدثته المسيحية باعتبارها قاعدة النظام الاجتماعى ؟ »

أجاب « كلا ! لا أنكر ذلك »

فقال سانين : « ولكنى أنكره » وكان يسير الى الآن صامتا وراءهما وكان صوته هادئا لذيذاً على العكس من المتناظرين ، فصمت يورى وغاظته هذه اللهجة الساخرة المضبوطة النبرات ولكنه لم يجد الرد حاضراً ولم يكن يحب أن يناظر سانين لان معجم ألفاظه المألوف لم يكن يجديه فى هذا النزال وكان يخيل له إذا قارعه كأنما هو واقف على الجليد يحاول أن يهدم حائطاً . غير أن فون دايتز صاح مغضباً : « أتسمح لى أن أسألك لماذا ؟ »

فقال سانين بلهجة جافية باردة : : « لأنى أنكر ذلك »

أجاب يورى : « لأنك تنكر ذلك ؟ إذا قرر المرء شيئاً فيجب عليه أن يثبته » .

أجاب : « لماذا يجب أن أثبته . إنه لا حاجة إلى إثبات أى شيء ! هذه عقيدتى وليس لى أقل رغبة فى إقناعك . وعلى أن هذا عبث » .

فقال يورى بحذر : « إذا سايرناك فى أسلوب تفكيرك كان الأولى أن نحرق كل كتب الأدب » .

فأجابه سانين : « لا لا ! لماذا تفعل هذا ؟ إن الأدب شىء جليل جداً وممتع جداً . والأدب الصحيح الذى أعنيه ليس جدلياً وليس صاحبه كذلك الدعى الذى لم يكن يجد مايصنع ذهب يعالج أن يقنع كل إنسان بأنه آية فى الذكاء وتوقد الذهن . إن الأدب يجدد الحياة ويعيد إنشاءها ويتغلغل وينفذ حتى إلى دم الإنسانية جيلا بعد جيل . فى القضاء عليه سلب لكل لون للحياة وكل طعم وروح لها » .

فوقف فون دايتز وترك يورى يمر به ثم قال لسانين :

« أرجوك أن تزيدنى ! إن ما قلته الآن ممتع لى جداً » .

فاستغرق سانين فى الضحك ثم قال : « إن ما قلته بسيط جداً وفى وسعى أن أفيض فى البيان إذا شئت .. وعندى أن المسيحية قامت بدور ضئيل فى حياة الإنسانية . ذلك أنها فى الوقت الذى أحس فيه الناس أن حالهم لا يطاق وصمم فيه المضطهدون والمستعبدون لما ثابت إليهم مداركهم على أن يقلبوا نظام الحياة الجائر وأن يعصفوا بالطفيليات الآدمية — أقول فى هذا الوقت ظهرت المسيحية وديعة متواضعة تعد الجزيل فانحت على النزاع واستنكرته وألاحت للناس بصورة النعيم المقيم وعلت الإنسانية بأنغامه حتى أنعستها وانطلقت تنشر دين الإذعان والتسليم لسوء المعاملة وقصارى القول أنها جاءت بمثابة « متنفس » للحنق المكتوم فعاد بها ذوو الشخصية القوية الذين درجوا ونشأوا وسط روح الثورة وكانوا يحنون إلى خلع نير القرون — أقول عادوا وقد فقدوا كل حرارة كانت تحفزهم فساروا كالحواريين إلى ميدان الفناء يطلبونه بشجاعة خليقة بغرض أسمى . ولم يكن خصومهم يبغون بالبداهة غير هذا . والآن فسيحتاج الأمر إلى قرون ظلم فاضيع قبل أن توقد نيران الثورة مرة أخرى . ولقد خلعت المسيحية على الشخصية الآدمية العنيدة التى لا تصبر على الرق ثوبا من التوبة والندم يخفى تحته كل ألوية الحرية . وخدعت الأقوياء الذين كان يسعهم الآن أن يستحوذوا على الثروة والسعادة بأن نقلت مركز ثقل الحياة إلى المستقبل — إلى عالم أحلام لا وجود له — عالم لن يراه أحد منهم . وهكذا اختفت روعة الحياة وفتنتها وماتت الشجاعة والعاطفة والجمال . ولم يبق إلا الواجب وحلم العصر الذهبى فى المستقبل — ذهبى للآتين — نعم لقد كان دور المسيحية صغيرا . واسم المسيح ... »

فقاطعه فون دايتز صارخا ووقف :

« أبداً ! إن هذا يتجاوز الحد ! »

وجعل يلوح بذراعيه الطويلتين فى الظلام

فسأله يوري مضطربا « ولكن ألم يخطر لك قط أي عصر فظاعة وإراقة دماء كان خليقا أن يكون لولا أن حالت المسيحية دون ذلك ؟ » .

فأجابه سانين بإعادة استخفاف : « ها ! ها ! حدث في بادىء الأمر أن « الميدان » — تحت ثوب المسيحية — تلطخ بدماء الشهداء ثم حدث بعد ذلك أن الناس كانوا يذبحون أو يلقون في السجون أو محابس المجانين . والآن يسفك كل يوم من الدم أكثر مما يمكن أن تريقه ثورة عامة . وشر ما في الأمر أن كل تحسين في حياة الإنسانية لا يتم إلا بسفك الدماء والفوضى والانتقاض وإن كان الناس لا يفتأون يدعون أن حب الإنسانية وإيثار الجار هما قاعدة حياتهم وأعمالهم . والأمر كله ينتهي بمأساة سخيفة كاذبة ليست من هذا ولا ذاك في شيء . أما أنا فإني أوثر أن تنزل بالعالم كارثة عامة وحية تقضي عليه — ذلك خير عندي من وجود نباتي فاتر يمتد على الأرجح ألفي عام أخرى » .

فصمت يوري ومن الغريب أن ذهنه لم يكن موجها إلى ما يقول سانين بل إلى شخصيته . وساءه من سانين يقينه المطلق ولم يطق أن يحتمل هذا منه ، فقال وهو مدفوع بعامل قوي إلى إيلام سانين : « هل لك أن تتفضل علي فتخبرني لماذا تتكلم دائماً كأنك تعلم أطفالا صغاراً ؟ »

فقلق فون دايتز لهذا السؤال وقال شيئاً على سبيل التوفيق .

وسأله سانين بحدة ، « ماذا تعني بقولك ؟ ولماذا تغضب ؟ »

فأحس يوري أن كلامه جارح وأنه لا ينبغي أن يتمادى ولكن كرامته المثلومة دفعته فقال : « أن هذه اللهجة ثقيلة الوقع جداً »

فأجابه سانين وبه بعض الغيظ إلا أن به رغبة في التسرية عن صاحبه « إنها لهجتي المألوفة »

فقال يورى ورفع صوته : إنها ليست موافقة دائما ولا أدرى ماذا يكسبك مثل هذا اليقين الجازم ! »

فأجابه سانين وقد عاد إلى سكينته : « لعل السبب شعورى أنى أذكى منك »

فوقف يورى وهو يرعد من فرعه إلى قدمه وصاح بصوت متهدج : فقال سانين « لاتغضب ! أنى لم أرد أن أسىء إليك وإنما أعربت عن رأيى الصريح . وليس رأيى فيك الا كرأيك فى وكرأى فون دايتز فينا وهكذا وذلك طبيعى »

وكان سانين يقول ذلك بلهجة ودية صريحة لاتدع محلا للغضب فصمت يورى ولكن فون دايتز ظل قلقاً عليه . فتمتم يورى « مهما يكن من الأمر فإنى لا أصارحك برأيى وأرميه لك فى وجهك »

فأجابه سانين « كلا ! إنك لاتفعل هذا وذلك حيث تخطىء ولقد كنت أصغى إليك وأنت تناظر صاحبك الآن فرأيت روح الغضب والإساءة يحفز كل كلمة يجرى بها لسانك . والمسألة مسألة شكل . أنا أقول ما أرتأى وليس فى هذا ذرة من الامتاع . ولو أننا كنا كلنا صرحاء مخلصين لكان هذا أمتع لنا جميعاً »

فضحك فون دايتز وقال « ياله من رأى مبتكر ! »

ولم يجبه يورى وكان غضبه قد سرى عنه بل لقد استشعر شيئا من السرور وإن كان قد آلمه أنه قد خرج من المعركة مهزوما وإن لم يشأ أن يعترف بذلك

فقال فون دايتز « إن مثل هذه الحالة تكر بنا إلى الحياة الساذجة »

فسأله سانين « وهل ترى الأفضل أن تكون الحياة مبهمة معقدة » فهز فون دايتز كتفيه واستغرقه التفكير

اجتاز ثلاثتهم الميدان ومن بعده السكك المقفرة خارج البلدة وهي أضوأ من الميدان وأكثر نوراً وكان الإفريز الخشبي واضحاً حيال الأرض السوداء . وفي السماء الصافية الزرقة تلتمع النجوم .

وقال فون دايتز « هانحن هؤلاء قد وصلنا » وفتح باباً قصيراً اختفى فيه ولم يكد يغيب حتى سمعا نباح كلب وصوتا يقول له « أرقد ياسلطان » وأبصر فناء واسعاً فارغاً وفي جانب منه كتلة سوداء هي طاحونة بخارية ذهبت مدخنتها الضيقة في الهواء وحولها خصاص ولم تكن ثم أشجار الا في رقعة ضيقة من الأرض أمام البيت الثاني وقد أضاء أوراقها الخضراء نور منبعث من نافذة مفتوحة فقال سانين « ماأظلمه من مكان ! » فسأله يوري « أحسب الطاحون قديمة » فأجابه فون دايتز « قديمة جدا » ولما جاوز النافذة المضيئة أطل منها ثم قال بلهجة المرتاح « لقد حضر خلق كثير » فأطل سانين و يوري مثله ورأيا رؤوسا تتحرك في سحابة من الدخان . فمال إلى النافذة رجل عريض الألواح جعد الشعر وسأل « من هنا ؟ » فقال يوري « أصدقاء ! » .

ولما صعدوا السلم اصطدموا برجل صافحهم مصافحة الاوداء وقال بنبرة يهودية بارزة « لقد خشيت أن لاتحضروا » وقام فون دايتز بواجب التعريف قائلا « سولوفتشك — سانين » فضحك سولوفتشك ضحكة المضطرب وقال « يسرني أن ألقاك لقد سمعت عنك كثيراً وأنت تعرف . . . » وتطوح الى الوراء دون أن يخلي كف سانين فاصطدم بيوري وداس على قدم فون دايتز فقال « عفواً ياجاكوف ادولفوفتش (دايتز) » وأخذ يهز كفه بقوة . وهكذا طال الامر قبل أن يبلغوا الباب وكان في الردهة صفوف من المسامير دقها سولوفتشك لاجتماع الليلة وبها القبعات معلقة وبجانب النافذة زجاجات خضراء ملأى بالجعة . وسحب الدخان معقودة حتى في حر الردهة .

وبدا سولوفتشك في الضوء يهوديا شابا أسود العينين مجعد الشعر صغير القسمات قبيح الاسنان باديها إذ كان لايزايله الابتسام .

فاستقبلهم القوم بضجة عالية وأبصر يورى سينا جالسة على حافة النافذة فعاد كل شيء في عينه وضاحاً ساراً كأن الاجتماع لم يكن في حجرة مرذولة غاصة بالدخان بل حفلة بين المروج الخضراء في الربيع .

فابتسمت له سينا وهي مرتبكة . وقال سولوفتشك وهو يحاول أن يرفع صوته الضعيف الخوار ويداه تتحركان على نحو زرى مضحك :

« أيها السادة : أحسبنا جميعاً قد حضرنا — أرجوك العفو يا يورى ! إني دائما اصطدم بك » وضحك وهو يدفع نفسه إلى الأمام محاولا أن يتوخى الأدب فضغط يورى على ذراعه وقال له « لاشيء ! » .

وصاح طالب حسن الوجه « لسنا جميعاً هنا لعنة الله على الباقين » وكان صوته العالي يشعرك أنه ألف أن يأمرسواه فوثب سولوفتشك إلى المنضدة ودق جرسا صغيراً وابتسم مرتاحاً إلى أنه فكر في استعمال الجرس .

فصاح به الطالب « آوه ! لا تفعل هذا ! إنك مولع بكل أنواع السخافات ! ليس بنا أدنى حاجة إلى هذا » .

فتمتم سولوفتشك « لقد . . ظننت . . أن . . . » وارتبك ووضع الجرس في جيبه فقال الطالب :

ينبغي أن تكون المنضدة في وسط الحجرة » .

فأجاب سولوفتشك « نعم نعم سأجرها حالا » وأسرع فأمسك بطرف منها فصاحت ديبوفا قائلة : « حاذر أن تكسر المصباح » .

وقال الطالب ودق ركبته : « إنها لا تنقل بهذه الطريقة » .

فقال سانين : « دعني أساعدك » .

— « اشكرك » .

فوضع سانين المنضدة فى وسط الحجرة ، وكانت كل عين تنظر إلى ظهره القوى وعضلات كتفيه التى كان قميصه الرقيق يشف عنها .

وقالت ديبوفا : « والآن ياجوشنكو من حيث أنك مقترح هذا الاجتماع فإن عليك أن تلقى الخطاب الافتتاحى » وكان من الصعب أن تعرف من عينيها أجادة هى أم ضاحكة بالطالب .

فقال جوشنكو ورفع صوته :

« أيتها السيدات . أيها السادة . إنكم جميعا تعرفون لماذا اجتمعنا الليلة هنا وعلى ذلك نستطيع أن نستغنى عن خطاب تمهيدى » .

فقال سانين : « الواقع أنى لا أعرف لماذا جئت ، ولكن ربما كان السبب أنهم قالوا لى إن هنا جمعة ! » وضحك .

فنظر إليه الطالب باحتقار ومضى فى كلامه :

« إن جماعتنا مؤلفة لتهذيب النفس بواسطة المطالعة المتبادلة والمحاضرات والمناقشات المستقلة . . . » .

فقاطعته ديبوفا : « المطالعة المتبادلة ؟؟ لست بفاهمة ! » قالت ذلك بلهجة قد تعد ساخرة . فاحمر وجه الطالب وقال :

« أردت أن أقول مطالعة تشترك فيها جميعا ، فالغرض من جماعتنا هو تربية الرأى الفردى تربية تفضى الى أن يتألف فى هذه البلدة اتحاد يعطف على الحزب الديمقراطى الاشتراكى » .

فقال إيفانوف : « آها ! ! » وحك رأسه .

« ولكنا سنتناول هذا الموضوع فيما بعد . أما فى مبتدأ الأمر فلن نتولى حل شىء من هذه المسائل الكبيرة . . » .

فلقنته ديبوفا : « أو الصغيرة » .

فتظاهر جوشنكو بعدم الالتفات إليها وقال : « وسنبدأ بوضع برنامج يتضمن بيانا بالكتب التي ننوى أن نطالعها واقترح أن نقصر اجتماع الليلة على هذا العمل » .

فسألت ديبوفا : «سولوفتشك . هل سيحضر عمالك؟» .

فوثب سولوفتش كأنما كان لدغ وقال : « نعم سيحضرون ولقد أرسلت في طلبهم » .

فصاح الطالب : « لا ترفع عقيرتك هكذا ! » .

وقال شافروف وكان يصغي إلى خطاب جوشنكو باحترام :

« ها هم أولاء قد حضروا » .

وصر الباب وسمع نباح الكلب وانطلق سولوفتشك من الغرفة وهو يقول : « لقد حضروا » وصاح بالكلب أن « أرقد ياسلطان » وسمعوا وقع أقدام ثقيلة وسعالا وأصوات رجال ثم دخل طالب هندسة شبيه بجوشنكو لولا أنه أسمر وأقل وسامة ودخل معه الحجرة عاملان مستحييان مرتبكان أكفهم خشنة وعلى كل منهما جاكتة قصيرة تحتها قميص أحمر قذر وكان أحدهما طويلا عريضا تقرأ في وجهه الحليق النحيل آيات الجوع سنين والكمد الباطن المخامر والبغض والسخط المكتومين . أما الثاني فله هيئة الرياضي وهو عريض الكتفين حسن الوجه جعد الشعر وكان يتلفت حوله كالفلاح إذ يرى مدينة لأول مرة . فتقدمهما سولوفتشك وقال بجد ووقار : « أيها السادة هؤلاء . . . » .

فقاطعه جوشنكو كعادته : « كفى كفى ! عموا مساء أيها الرفاق » .

فقال طالب الهندسة مقدما رفيقيه : « بتسوف وكودريانجي » .

فدخل العاملان بحذر وصافحا الأيدي الممتدة للترحيب بهما وابتسم بتسوف وهو مرتبك أما زميله فكان يلوى عنقه الطويل كأنما كان الزيق « الياقة » يخنقه . ثم جلسا إلى النافذة قرب سينا .

فسأله جوشنكو : « لماذا لم يحضر نيقو لايف؟ » .

فأجاب بتسوف : « لم يستطع الحضور » .

وزاد كودريافجي : « لقد شرب حتى عمي » .

فقال جوشنكو وهز رأسه : « آه ! فهمت » .

فأثارت هذه الحركة التي أراد بها جوشنكو أن يعرب عن عطفه حنق يوري ووجد في الطالب خصما شخصياً له .

وعاد الكلب إلى النباح فقالت ديبوفا « لقد حضر آخرون » .

فقال جوشنكو وتكلف الاستخفاف : « لعلهم الشرطة » .

فصاحت ديبوفا : « إني على يقين من أنك لاتكترث إذا كان الطارقون هم الشرطة ! » .

فنظر سانين إلى عينيها الذكيتين وإلى جدائل شعرها الجميلة المرسلة على كتفيها وقال لنفسه : « إنها فتاة ذكية الفؤاد » .

ووثب سولوفتشك كأنما يهم بالخروج ولكنه استعاد صوابه فتظاهر بأنه يتناول سيجارة على المنضدة . ولم تفت جوشنكو هذه الحركة فقال ولم يجب ديبوفا : « ما أكثر قلقك وحركاتك ياسولوفتشك » .

فاحمر وجه سولوفتشك وتجهم وخالجه الأسف على حماسته التي لاتستحق أن يكون جزاؤها هذا التعنيف . . ثم دخل نوفيكوف وهو باش مبتسم : « هذا أنا » . فقال سانين : « وكذلك نراك » وتصافحا . وهمس نوفيكوف في أذن سانين على سبيل الاعتذار : « إن ليدا تستقبل زوار اليوم » .

وعاد طالب الهندسة إلى موضوعه فسأل : « هل جئنا لنتكلم ؟ ألا دعونا نبدأ ! » .

فقال نوفيكوف والسرور باد عليه : « إذاً فأنتم لم تبدأوا بعد ؟ » وصافح العاملين اللذين وثبا إلى اقدامهما وارتبكا لمقابلته هنا مقابلة الند والزميل وهو لا يعاملهما في المستشفى إلا معاملة من هم دونه .

ثم أخذ جوشنكو يتكلم وبه بعض الغيظ وقال :

« أيتها السيدات ، ويا أيها السادة . إننا كلنا نريد بطبيعة الحال أن نوسع آفاقنا ونعمق نظرتنا إلى الحياة ولما كنا نعتقد أن خير وسيلة لتهذيب النفس أن نضع طريقة منتظمة للمطالعة وتبادل الآراء في ما نقرأ فقد رأينا أن ننشيء هذا النادى . والمسألة الآن هي : أى كتب نقرأ ؟ ربما استطاع بعضكم هنا أن يقترح شيئاً .

فوضع شافروف نظارته على عينيه ونهض في بطء وفي إحدى يديه مذكرة صغيرة وقال بصوته الجاف المنفرد : « أرى أن نقسم برنامجنا قسمين . ولا بد في تهذيب عقولنا وصقلها من أمرين دراسة تبدأ بأول أطوارها ودراسة الحياة كما هي في الواقع » .

فقالت ديبوفا : « إن شافروف قد بدأ ينفصح » .

واستمر شافروف : « فأما الأول فيتم بقراءة الكتب العلمية والتاريخية القيمة والثاني طريقه كتب الأدب ومنها نواجه الحياة » .

ولم يسع ديبوفا إلا أن تقول وفي عينيها لمعة خبيثة : « إذا مضيت في كلامك على هذا النحو فسيأخذنا النوم » .

فقال شافروف بلطف : « إني أجتهد أن يكون كلامي مفهوماً من الجميع » .

فقالت ديبوفا وأومأت إيماءة التسليم بقضاء الله : « حسن جداً قل مابدالك » .

وضحكت سينا أيضاً من شافروف ودفعت رأسها إلى الوراء فبدا للعين جيدها الاتلع الناصع وكانت ضحكتها موسيقية منغمة .

فقال شافروف وعينه إلى ديبوفا : « لقد وضعت برنامجاً — ولكني أخشى أن تملكم قراءته وأرى أن نبدأ بكتاب « أصل الأسرة » مع مؤلفات داروين . أما من حيث الأدب فلنبدأ بتولستوى » .

فصاح فون دايتز وهو راض عن نفسه وفى يده سيجارة يشعلها : «تولستوى بكل تأكيد !» .

وانتظر شافرون حتى أشعل صاحبه السيجارة ثم قال : «ثم بتشيكوف وابسن وكنوت همسون» .

فصاحت سينا : «ولكنا قرأنا كل هؤلاء !» .

فاهتز يورى لصوتها وقال : «بالطبع ! إن شافروف ينسى أننا لسنا فى مدرسة فى وما أعجب هذا الخلط ! تولستوى وكنوت همسون !» .

فساق شافروف بعض الحجج تعزيزا لرأيه ولكنه بعثرها فلم يفهمه أحد فقال يورى وسره أن سينا تنظر إليه : «كلا ! لا أوافقك» وراح يشرح رأيه فى الموضوع وأكثر ما يعنيه من الكلام أن يفوز بموافقة سينا فحمل على مشروع شافروف حملة شعواء وأتى حتى على ما يوافق عليه منه وتلاه جوشنكو فأدلى برأيه وكان يعد نفسه أذكاهم وأفصحهم وأعظمهم تهذيباً وكان يتوقع أن يفوز بالمحل الأول فغاظه ما وفق إليه يورى من النجاح فعارضه فى رأيه وتلت ذلك مناقشة طويلة لاآخر لها وشرع نوفيكوف وجوتشكو وإيفانوف يتكلمون جميعاً فى وقت واحد واختلطت الأصوات اختلاطا لم يعد معه مجال للفهم . ولزم سولوفتشك الصمت فى هذه الحرب وجلس فى زاوية يصغى وكان فى أول الأمر عظيم الاهتمام ثم لم يلبث الشك والأسى أن غضنا وجهه ورسما خطوطا حول فمه وعينيه .

وكان سانين يشرب ويدخن ولا يقول شيئا وعلى وجهه دلائل الملل ولما علت الضجة ولم تعد محتملة وقف وأطفأ سيجارته وقال : «ألا تشعرون أن هذه حالة لاتطاق ؟» .

فقالت ديوبوفا : «إنها لكذلك حقا !» .

وسأله جوتشنكو : «كيف ذلك ؟» .

فلم يلتفت إليه سانين وقال ليورى : «هل تعتقد أنك تستطيع أن

أتستخلص فكرة الحياة عن الحياة الكتب ؟ » .

فأجابه يوري بدهشة : « أعتقد ذلك بلاشك » .

فقال سانين : « إذاً فأنت مخطىء ! إذا كان هذا صحيحاً فإن المرء يستطيع أن يصب الإنسانية كلها في قلب واحد بأن يجعل الناس يقرأون كتبا تنزع إلى منحى واحد . إن فهم الحياة لا يتأتى إلا من ملابسة الحياة نفسها في جملتها وليس الأدب أو مظاهر العقل الإنساني إلا ذرة ضئيلة فيها . وليس في وسع أي نظرية عن الحياة أن تعينك عن تكوين فكرة عنها . لأن هذا رهن بمزاج كل فرد وخليق أن يختلف ذلك مادام الإنسان حيا . وعلى هذا فمن المحال عليك أن تكون فكرة محدودة مضبوطة عن الحياة كما تريد أن ... » .

فصاح يوري مغضبا : « ماذا تعني بقولك (من المحال) ؟ » .

فقال سانين : « محال ولاشك ! لو أن تكوين فكرة عن الحياة نتيجة نظرية محدودة تامة لوقف تقدم الفكر الإنساني . بل لا نقطع . وهذا كلام لا يقبل . إن كل لحظة تنطق بكلمة جديدة وواجبنا أن نصغي إليها وأن نفهمها دون أن نضع لأنفسنا قيودا وحدوداً سابقة . وعلى أنه ما خير الجدل في هذا ؟ رأيك ماتشاء . إنما أسألك يامن قرأت مئات من الكتب لماذا عجزت إلى الآن عن تكوين فكرة محددة عن الحياة » .

فسأله يوري وبدا الغضب في عينيه : « لماذا تفرض أني لم أفعل ذلك ؟ ربما كانت فكرتي عن الحياة كلها خطأ ولكن لي فكرة » .

فقال سانين « حسن جدا . إذا كانت لك فكرة فلماذا تبغي غيرها ؟ » .

وقالت سينا لنفسها : « ما أذكاه ! » وأعجبت به أيما إعجاب ، وجعلت تلحظه هو ويوري وأحست شيئاً من الخجل ولكنها كانت على هذا فرحة مسرورة فكأنما كان الاثنان يتجادلان في أيهما يفوز بها .

ومضى سانين فى كلامه فقال : « فأنت لاحاجة بك إلى ما تطلبه عبثاً . وأرى كل امرىء هنا يحاول أن يكره غيره على الاقتناع برأيه ويخشى أن يقنعه الآخرون بآرائهم . الحقيقة بصراحة أن هذا ممل جداً » .

فقال جوتشنكو : « لحظة واحدة ! اسمح لى ! » .

فأجابه سانين بضجر : « كفى كفى ! لابد أن لك فكرة رائعة عن الحياة وأن تكون قد قرأت أكواما من الكتب ! هذا واضح لا خفاء به ! ومع ذلك فإنك تغضب لأن غيرك لا يوافقك على رأى لك ! وشر من ذلك أنك تسيء معاملة سولوفتشاك وهو لم يسيء إليك فى حياتك ! » .

فذهل جوتشنكو ولزم الصمت . وقال سانين : « يا يورى لايغضبك أنى صارحتك الآن . إنه لا يخفى عنى أن فى صدرك عراكا ! » .

فصاح يورى : « عراك ؟ » واحمر وجهه ولم يدر أيغضب أم يحتمل هذا القول ووقع فى نفسه صوت سانين الساكن وقعاً عميقاً كما حدث وهما آتيان إلى هذا الاجتماع .

فأجابه سانين : « إنك تعلم أن الأمر كذلك . ولكنه لا ينفع المرء أن يعنى بهذا الهذر الصبيانى . الحياة أقصر من ذلك » .

فصاح به جوتشنكو مغضباً : « اسمع . انك تدعى لنفسك أكثر مما يجب ! » .

فقال سانين : « ليس أكثر مما تدعى أنت » .

أجاب « كيف ذلك ؟ »

فقال سانين « فكر فى الأمر وحدك . إن ما تقوله وتفعله أخشن وأسوأ أدبا من كل ما أقول ! » .

أجاب : « لست بفاهم » .

فقال سانين : « ليس هذا بذنبى » .

أجاب : « ماذا » .

فلم يجبه سانين وتناول قبعته وقال : « سأخرج فقد ضجرت » .

فقال إيفانوف : « هذا حق . وقد فرغت الجعة» .

فقالت ديبوفا : « لن نتقدم خطوة إذا سرنا على هذا النحو ، هذا واضح » .

وقالت سينا : « رافقني فى الطريق يا يورى » ، ثم التفتت إلى سانين وقالت : « إلى الملتقى » .

والتقت عيناها وعيناه فسرت فى جسمها هزة سرور وقالت ديبوفا فى الطريق : « واأسفاه ! لقد تداعى نادينا قبل أن يقوم » .

فقال صوت حزين : « ولكن لماذا ؟ » وكان صاحبه سولوفتشك يتطرح ويصطدم بكل واحد وكانوا قد نسوا وجوده فراعتهم كآبته .

فقال سانين وكأنه يفكر : « اسمع يا سولوفتشك سأزورك يوماً لنتحادث » .

فانحنى سولوفتشك وقال : «بكل تأكيد . أرجوك أن تتفضل» .

ولما خرجوا من الحجرة المضاءة كان الظلام على أشده فكانوا يتعارفون بالأصوات دون الشخوص وسار العاملان على مسافة من الباقين ولما ابتعدا قال أحدهما : « هذه حالهم أبدا . يجتمعون ويتحدثون عن عجائب ومعجزات ينوون إتيانها ثم يأبى كل منهم إلا أن يكون الأمر على هواه ومشيئته . إلا أنه لم يعجبنى غير هذا الرجل الضخم (سانين) » .

فقال صاحبه « ما أكثر ما نفهم حين يتجادل أمثالهم ! » ولوى عنقه كأنما يخنقه شيء فصفر رفيقه ساخراً بدل أن يجيبه .

— ٢٦ —

وقف سولوفتشك عند الباب برهة ينظر إلى السماء الغائمة ويفرك أصابعه النحيلة . وكانت الريح تزمجر حول الأبنية الخشبية وتحنى رءوس الأشجار المتقاربة كأنها جند من الأشباح . وكانت السحب فى سباق دائم كأنما تدفعها قوة قاهـرة إلى الأمام . أو كأنما تنتظرها جيوش يخطئها الحصر رفعت رايتها السوداء وخرجت فى كل قوتها الرائعة إلى ميدان تتصارع فيه العناصر . وكانت الريح كأنما تحمل من حين إلى حين ضجة المعركة النائية .

وقف سولوفتشك ينظر إلى السماء وقد ملأت روعة المنظر نفسه ، فلج به الإحساس بضآلته وأنه لا شيء إزاء هذه الهيولى الهائلة . فتنهد وقال : « يا آلهي ! يا آلهي ! » . وكان إذا أضواه الليل يعود شخصاً آخر غير الذي يعرفه الناس . وكذلك زايله القلق والارتباك الآن . واختفت أسنانه الدميمة وراء شفتيه الحساستين وارتسمت في عينيه السوداوين نظرة الجد والشجن .

ودخل البيت في بطء وأطفأ مصباحا لا ضرورة إليـــه ورد المنضدة والكراسي إلى مواضعها وكانت الغرفة لا تزال ملأى بدخان الطباق والأرض مبعثرة عليها أعقاب السجائر والكبريت . فتناول مكنسة وشرع ينظف الغرف وكان يحب أن يرى مأواه نظيفا مرتبا . ثم جاء بدلو ووضع في مائه كسراً من الخبز وحمل هذا في يمينه ومد يسراه ليحفظ توازنه واجتاز الفناء بخطى قصيرة وكان قد وضع مصباحا صغيرا قرب النافذة لتضيء له طريقه ولكن الظلام مع ذلك كان طاغيا فلما وصل إلى مبيت الكلب تنفس الصعداء وتقدم كلبه « سلطان » ليقابله .

« آه . سلطان ! كوش كوش ! » أخرج هذه الأصوات ليشجع ودفع الكلب أنفه البارد البليل في كف سيده فوضع له الدلو وقال له : « هذا أنت » فشم الكلب الدلو ثم انطلق يأكل بنهم وسيده واقف بجانبه يتأمل الظلام المحيط ويقول لنفسه :

« ماذا أصنع ؟ كيف أستطيع أن أحمل الناس على تغيير آرائهم ؟ لقد كنت أنا نفسي أتوقع أن يعلمني الناس كيف أعيش وكيف أفكر . ولقد ضن عليّ الله بصوت النبي فكيف أساعد الخلق ؟ » .

وزام الكلب راضياً . فقال سيده : « كل واشبع . لقد كنت أود أن أطلقك لتعدو قليلا ولكن المفتاح ليس معي وأنا متعب مجهود . . . إيه مأذكى من كانوا هنا الليلة وأعلمهم وأمهرهم ! إنهم يعرفون شيئاً كثيراً . .

نصارى طيبون على الأرجح ! وهذا أنا ... من يدرى ؟ لعل هذا خطأى وحدى . لقد كنت أحب أن أقول لهم كلمة . ولكنى حرت كيف أقولها » .

وحملت الريح من وراء المدينة صفيرا طويلا هافيا فرفع الكلب رأسه وأصغى وسقطت قطرات كبيرة من كمامته فى الدلو . فقال صاحبه : « كل واشبع إن هذا صوت المطر » .

فتنهد الكلب وقال سيده : « ترى هل يعيش الناس أبدا على هذا النحو؟ ربما أعياهم ذلك » وهز كتفيه يائساً . وبدت له فى الظلام صورة حشد هائل من الخلق لا آخر له كالأبد يغيب ويختفى فى الظلام — سلسلة قرون لا مبدأ لها ولا منتهى — سلسلة متصلة الحلقات من آلام وأوجاع لا دواء لها ولا شفاء منها وفوقها حيث عرش الله سكون أبدى !

واصطدم الكلب بالدلو فقلبه وأخذ يبصبص بذنبه وسمع صوت سلسلته فمسح سولوفتشك ظهره وربته وأحس هزة السرور تسرى فى كيان الكلب ثم انقلب إلى البيت وكان يسمع منه صوت سلسلته وبدا الفناء أقل ظلمة والطاحون أشد جهامة بمدخنتها الطويلة والتمع فى السماء خط عريض من النور أضاء المدينة هنية فبدت للعين أزهارها الصغيرة الضعيفة مطرقة تحت السماء الثائرة وأعلامها السوداء المتلدرة التى نشرها الليل .

وغلب الحزن سولوفتشك وراحت أعصابه الشعور بالوحدة وبخسارة لا عوض عنها فدخل غرفته وجلس إلى المنضدة وبكى .

— ٢٧ —

كتب ساروديين رسالة إلى ليدا وقعت فى يد أمها ماريا إيفانوفنا ، وفيها يطلب إليها أن تأذن له فى الحضور ليراها ، ويشير إلى أن هناك أموراً يمكن أن تسوى على نحو مرضى ، فرأت ماريا إيفانوفنا أن هذه الصفحات تلقى ظلا مخجلا على ابنتها الطاهرة ، فارتبكت وذكرت معاشقها فى صدر أيامها وما كان فيها من خدع ، وزواجها وما تخلله من آلام ، وكانت حياتها سلسلة

طويلة من الأوجاع صاغتها قوانين الأخلاق الحرجة ومدتها إلى حدود الشيخوخة .

وهاجت لما خطر لها أن ابنتها كسرت الحائط الذى يدور بهذه الحياة القذرة وانغمست فى الدوامة التى تختلط فيها اللذات والأحزان والموت . وقالت لنفسها : « يا لها من فتاة خسيسة خبيثة ! » وهوى ذراعاها إلى جانبيها . ثم خطر لها فجأة أن الأمور ربما كانت لم تبلغ هذا المدى فعزاها ذلك وتلت الرسالة ثم تلتها غير أنها لم تستخلص شيئاً من أسلوبها الخاف المتكلف ولما أعياها الأمر بكت بكاء مرا ثم سوت قبعتها وسألت الخادمة : « دونيكا ! هل فلاديمير سانين هنا ؟ » فصاحت دونيكا : « ماذا ؟ » أجابت :

« أيتها الحمقاء إنى أسألك هل فلاديمير سانين هنا ؟ » .

قالت : « لقد ذهب إلى المكتبة ! وهو يكتب رسالة ! » .

وانبسطت أسارير الخادمة كأنما كانت كتابة الرسالة مبعث سرور غير عادى فحملقت ماريا فى الفتاة والتمع فى عينيها الذابلتين نور الشر وقالت : « أيتها الورهاء ! لئن اجترأت أن تحملى رسائل مرة أخرى لألقننك درساً لن تنسيه عمرك ! » .

وكان سانين جالساً إلى مكتب ولم تألف أمه أن تراه يكتب فارتاحت إلى هذا المنظر على الرغم من حزنها وسألته : « ماذا تكتب ؟ » . فقال سانين ورفع رأسه إليها باسماً : « رسالة » .

قالت : « لمن الرسالة ؟ » .

أجاب : « لصحفى أعرفه . فإنى أفكر فى الالتحاق بجريدته » .

قالت : « وهل تكتب مقالات للصحف ؟ » .

فابتسم سانين وقال : « إنى أصنع كل شىء » .

فقالت أمه : « ولكن لماذا تريد أن تذهب إلى هناك ؟ » .

فقال سانين بصراحة : « لقد مللت العيش معك يا أماه » .

فتألمت أمه لذلك وقالت : « أشكرك » فراعقها سانين ونازعته نفسه أن يقول لها لا ينبغي لك أن يبلغ من حمقك أن تتصوري أن رجلا ليس له عمل يمكن أن يرتاح إلى البقاء أبداً في مكان واحد ولكنه لم يكن يحب أن يقول شيئاً من هذا فسكت .

فأخرجت أمه منديلها وفركته بين أصابعها ولولا رسالة ساروداين وحزنها وقلقها من جرائها لساءتها خشونة ابنها ولكنها لم تزد على أن قالت : « نعم ! واحد يتسلل من البيت كالذئب والأخرى » .

وأتمت الجملة إيماءة التسليم بالقضاء .

فرفع سانين رأسه إليها بسرعة وألقى القلم وسألها : « ماذا تعرفين عن هذا » .

فخجلت ماريا إيفانوفنا من أنها قرأت رسالة ليدا واحمر وجهها وأجابته بصوت المتردد يشوبه شيء من الغيظ :

« الحمد لله . لست بالعمياء ! وإني لأستطيع أن أرى » .

فقال سانين بعد أن فكر هنيهة : « ترين ! إنك لا تستطيعين أن ترى شيئاً . ولكني أثبت لك ذلك دعيني أهنئك بخطبة ابنتك ! وكانت ستخبرك بهذا بنفسها » .

فصاحت ماريا إيفانوفنا واعتدلت قامتها : « ماذا ؟ ليدا ستتزوج ؟ تتزوج من ؟ » أجاب : « نوفيكوف بالبداهة » .

قالت : « نعم ولكن ما القول في ساروداين ؟ » .

فقال سانين بغضب : « آوه ! إنه يستطيع أن يذهب إلى الشيطان وماشأنك بهذا ؟ لماذا تتدخلين في شئون غيرك ؟ » .

فقالت أمه وبها بعض الدهشة إلا أنها أحست هزة الفرح :

« نعم ولكني لم أفهم تماماً يا فولوديا . أن ليدا ستتزوج ؟ » .

فهز سانين كتفيه وقال : « ماهذا الذي لا تفهمينه ؟ لقد كانت تحب رجلا وهي الآن تحب غيره ، وغداً تحب ثالثاً . حسن . بارك الله في معاشقها ! » .

فصاحت ماريا إيفانوفنا مغضبة : « ماهذا الذى تقوله ؟ » .

قال سانين إلى المكتب وطوى ذراعيه وسألها بغضب :

« هل لم تحبى فى حياتك إلا رجلا واحدا ؟ » .

فنهضت ماريا إيفانوفنا وارتسمت على وجهها المغضن أمارات الشموخ والتعالى وقالت بحدة :

« لا ينبغى للمرء أن يخاطب أمه بهذا اللسان » .

فسألها : « لا ينبغى لمن ؟ » فقالت « ماذا تعنى بمن ؟ » .

فقال وصعد نظره فيها وصوبه : « من الذى لاينبغى أن يتكلم » ولحظ لأول مرة فراغ نظرة عينيها وسخافة هيئة القبعة على رأسها ، فقالت بصوت مخنوق : « لا ينبغى لأحد أن يوجه إلى مثل هذا الكلام » .

فقال سانين واستعاد سكينته وأمسك القلم : « مهما يكن من ذلك فقد فعلته وانقضى الأمر . لقد فزت بنصيبك من الحياة ولا حق لك فى منع ليدا من طلب نصيبها » .

فلم تجبه بشىء وراحت تحدجه بنظرات الدهشة وأسرعت فنفت ذكريات شبابها وكل ما كان فى ليالى حبه الفرحة وعلقت بذهنها هذا السؤال وحده : «كيف يجرؤ أن يخاطبنى بهذا اللسان ؟ » وقبل أن تهتدى إلى جواب مالتفت إليها سانين وتناول يدها فى رفق وقال : « لا يؤلمك هذا أو يزعجك وإنما يجب عليك أن تمنعى سارودين من دخول البيت لأنه يستطيع أن يلعب معنا دوراً قذراً » .

فهدأت ماريا إيفانوفنا وقالت : « بارك الله فيك يا بنى . وإنى لمسرورة جداً فقد كنت دائما أحب ساكا نوفيكوف ، نعم لانستطيع أن نستقبل سارودين . هذا لا يمكن من أجل ساكا » .

فقال سانين وفى عينيه نظرة فكهة .

كلا ! هو كما تقولين ! من أجل ساكا » .

وسألته أمه « وأين ليدا ؟ » فأجاب سانين : « فى غرفتها » .

فقالت : « وساكا ؟ » ونطقت مختصر اسمه هذا بعطف فقال سانين : « لا أدرى ، لقد ذهب إلى ... » .

وفى هذه اللحظة دخلت دونيكا الخادمة وقالت :

« فيكتور سارودين وسيد آخر معه » .

فقال سانين : « أطرديهما من البيت » .

فابتسمت دونيكا ابتسامة صبيانية وقالت :

« سيدى كيف أستطيع ذلك ؟ » .

فقال سانين : « تستطيعين بالطبع ! ما شأنهما هنا ؟ » .

فأخفت دونيكا وجهها وخرجت . ومدت ماريا إيفانوفنا قامتها حتى صارت فى رأى العين أصبى وأصغر لولا أن فى عينيها نظرة شر . وكانت قد غيرت وجهة نظرها إلى الموضوع بسرعة مدهشة وسهولة عجيبة فبعد أن كانت تحس لساروديين رقة فى قلبها لما كانت ترجو أن يتزوج من ابنتها عادت فأحست له شنآنا لما أدركت أن غيره سيتزوج منها وأن ساروديين لم يكن إلا طالب حب .

واستدارت لتخرج ولحظ سانين تحجر وجهها وصلابة نظرتها فقال لنفسه : « هاهنا دجاجة عتيقة لك يا ساروديين ! » وطوى الرسالة التى كان يكتب وتبعها ليرى على أى حال ينتهى الأمر .

وبالغ ساروديين وفلوتشين فى تحيتها ولكن ساروديين فقد سلاسة شمائله وقلق فلوتشين قليلا إذ كان قد جاء لغرض واحد هو أن يرى ليدا فاضطر أن يكتم غايته .

وبدا الاضطراب على ساروديين على رغم تكلفه وأحس أنه لم يكن يجمل به أن يأتى وأشفق من لقاء ليدا ولكنه لم يكن يحب أن يطلع فلوتشين على هذا السر إذ كان يريد أن يظهر أمامه فى مظهر الفاتك اللهيج فقال وتصنع الابتسام :

«عزيزتى ماريا إيفانوفنا . أسمحى لى أن أقدم إليك صديقى بول فلوتشين».

فقالت ماريا بأدب جاف : « مسرورة » ولمح ساروديين جفوة النظرة التى فى عينيها فاضطرب وأدرك أنه لم يكن ينبغى له أن يحضر بعد أن كان قد غفل

عن هذا فى حضرة صديقه . وقد تدخل ليدا فى أى لحظة — ليدا أم طفله — فماذا يقول لها ! كيف يواجهها ؟ وربما كانت أمها على علم بما وقع بينهما ! فاضطرب فى كرسيه وأشعل سيجارة وهز كتفيه وحرك رجليه وتلفت يمناً وشمالا .

فقالت ماريا لصاحبه بصوت بارد متكلف : « هل تطول إقامتك هنا؟» .

فقال . « كلا ! » وجعل ينظر إلى هذه السيدة الريفية نظرة الارتياح والرضى عن النفس وزج سيجارته فى زاوية فمه فكان الدخان يصعد إلى وجهها مباشرة فقالت : « لا شك أن الحياة هنا مملة بعد بطرسبرج » .

قال : « إنها على العكس لذيذة فى هذه البلدة الصغيرة » .

قالت : « يحسن أن تزور الجهات المجاورة فإنها متنزهات بهيجة وفيها أماكن للسياحة والتجديف » .

فقال فلوتشين وبدأ يسأم : « بالطبع يا سيدتى بالطبع » .

وتعثر الحديث وصاروا جميعاً كأنما على وجوههم صور مستعارة باسمة تخفى تحتها عيوناً متعادية . ونظر فلوتشين عن عرض إلى سارودين نظرة لا سبيل إلى الخطأ فى فهم مدلولها ولم تفت سانين دلالتها وكان يرقب كل شىء من الركن الذى وقف فيه .

ولكن خوف سارودين أن يستصغر أمره صاحبه ولا يرى فيه ما زعمه من اللباقة والجرأة والفتك رد إليه شيئاً من عازب ثقته بنفسه وجرأته فسأل ماريا : « وأين ليدا بتروفنا » .

فنظرت إليه ماريا غاضبة مذهولة وقالت له عيناها : « ما أنت وهذا إذا كنت لن تتزوجها » ثم قالت بجفاء :

« لا أدرى ! لعلها فى غرفتها » .

فرمى فلوتشين نظرة أخرى إلى زميله معناها : « ألا تستطيع أن تستنزل ليدا بسرعة ؟ إن هذه العجوز مملة » .

ففتح سارودين فمه ولوى شاربيه . وقال فلوتشين باسما وفرك كفيه ومال إلى ماريا إيفانوفنا .

« لقد سمعت ثناء طيبا على ابنتك فطمعت أن أتشرف بمعرفتها » .

فعجبت ماريا إيفانوفنا لهذا الوقيع ماذا سمع عن ابنتها وقام في نفسها أن ابنتها زلت وهوت . فاضطربت ولانت نظرتها . فقال سانين لنفسه : «إذا لم يطردا الآن فسيسببان متاعب لليدا ونوفيكوف » ثم قال فجأة لسارودين وهو ينظر إلى الأرض مفكراً :

« سمعت أنك مسافر » .

فعجب سارودين كيف لم يخطر له هو هذا العذر واستحسن الفكرة وقال لنفسه : « لقد وجدت تكأة ! إجازة شهرين » قبل أن يجيب بسرعة : « نعم لقد كنت أفكر في السفر لأن الإنسان محتاج إلى الانتقال وطول مقام المرء في مكان واحد خليق أن يكسوه طبقة من الصدأ » .

فضحك سانين ضحكاً عالياً وسره هذا الحديث الذي ليس فيه كلمة واحدة صادقة معبرة عن حقيقة ما في النفوس — وهذا الخداع الذي لم يخدع أحدا .

ووجد ارتياحاً وحرية فنهض وقال :

« إذاً فكلما كان ذلك أسرع كان خيراً » .

فتمزق الحجاب في لحظة واحدة وتغير الثلاثة الآخرون واصفرت ماريا إيفانوفنا ونطقت عين فلوتشين بالخوف الحيواني ونهض سارودين في بطء وتردد وسأل بصوت مبحوح :

« ماذا تعني ؟ » .

وتطوح فلوتشين وجعل يتلفت باحثاً عن قبعته .

ولم يجب سانين على سؤال سارودين بل ناول فلوتشين قبعته بخبث وكان هذا مفتوح الفم فخرج منه صوت مخنوق وصاح سارودين مغضباً :

« ماذا تعني بهذا ؟ » وقال لنفسه : « فضيحة ! » .

فأجاب سانين : « أعنى أن وجودك هنا لا ضرورة له على الإطلاق ، وأنه يسرنا أعظم السرور أن لا نراك » .

فتقدم ساروديين خطوة وهو مضطرب وأسنانه تلمع مهددة كأسنان الوحش وتمتم وأنفاسه مسرعة : « آه ! أهذا كذلك ؟ » ...

فقال سانين باحتقار : « اخرج » ولكن لهجته بلغ در... وها أن حملق ساروديين وتراجع .

وقال فلوتشين بأخفت صوت . « لا يدرى إلا الشيطان معنى هـذا » ورفع كتفيه ومضى إلى الباب .

ولكن ليدا كانت واقفة فى حرم الباب وفى ثياب غير المألوفة وكان شعرها مضفراً والضفيرة مدلاة على ظهرها وثوبها واسع مرسل فزادت بساطته فى جمال شكلها .

وابتسمت فظهر الشبه بينها وبين أخيها وقالت بصوتها الرخيم الغض : « هذا أنا . لماذا تسرعان ؟ فيكتور ساروديين ضع قبعتك » . فصمت سانين ونظر إلى أخته مذهولا وقال لنفسه : « ماذا ترى تعنى ؟ » .

وما كادت تظهر حتى وجدوا لها تأثيراً خفياً رقيقاً لا سبيل إلى مقاومته فكأنها وهى واقفة هناك مروضة أمام قفص عاص بالوحوش الضارية فهدأ الرجال وأذعنوا .

وتمتم ساروديين : « هل تعلمين أننا .. » .

فلما سمعت صوته ارتسم على وجهها الألم فنظرت إليه وخامرها الأسى والرقة والأمل ولكن هذه الإحساسات لم تلبث أن عفت عليها الرغبة الوحشية فى أن ترى ساروديين مبلغ خسارته وأنها مازالت جميلة وضاءة على الرغم من كل أساها وعارها اللذين كلفها إياهما .

فأجابته بصوت الآمر : « لا أريد أن أعرف شيئاً » وأغمضت عينيها فأحدث وجودها تأثيراً غريباً فى نفس فلوتشين فبرز لسانه الصغير الحاد من بين شفتيه الجافتين وصغرت عيناه واهتز كيانه . وقالت ليدا لساروديين . « لقد نسيت أن تعرف بعضنا ببعض » .

فتمتم : « فلوتشين . . يافلى لفوفنش . وقال لنفسه : « وهذه الجميلة كانت عشيقتى » .

والتذ هذا الخاطر وأراد أن يتظاهر أمام فلوتشين بغير الواقع وإن كان قد امضه الشعور بخسارته التى لا تعوض .

فقالت ليدا ... مها فى فتور : « إن أناساً يريدون أن يقابلوك » .

فأجابت ماريا إيفانوفنا : « لا أستطيع الذهاب إليهم الآن » .

فألحت ليدا : « ولكنهم ينتظرون » .

فنهضت ماريا إيفانوفنا مسرعة وراقبه سانين أخته وقالت هذه : « ألا تذهبون إلى الحديقة ؟ إن الجو هنا حار لا يطاق » ومضت الحديقة دون أن تلتفت وراءها .

وكأنما سحرتهم فتبعوها وكأنما كانوا مقيدين إليها بخصل شعرها فلو شاءت لجرتهم إلى حيث راقها وكان أسبقهم فلوتشين الذى سباه حسنها ونسى كل ما عداه .

وجلست ليدا على كرسى هزاز تحت شجرة الزيزفون ومدت قدميها الصغيرتين الجميلتين فى جوربيها الشفافين الأسودين وحذاءيها القصيرين وكأنما كانت لها طبيعتان إحداهما كلها أدب وخجل ، والثانية كلها إحساس بنفسها وحسن دلالها . وكانت الأولى تغريها باستفظاع الرجال والحياة ونفسها .

ثم قالت وهى مطرقة : « والآن يافلوتشين أى أثر كان لبلدتنا الصغيرة القذرة الذاتية فى نفسك ؟ » .

فأجابها فلوتشين وهو يفرك كفيه : « تأثير الزهرة المونقة تصادفها عين المتوغل فى قلب الغابة المظلمة » .

ثم بدأ حديث فارغ متكلف . كل ما يجرى به اللسان منه كاذب زائف وكل ما يطوونه هو الصادق . وجلس سانين فى صمت يصغى إلى أحاديث النفوس الصامتة المخلصة التى كانت تنطق بها الوجوه والأيدى والأقدام

واضطراب نبرات الصوت . وكانت ليدا شقية وفلوتشين يشتاق جمالها وساروديين عقلها و يمقت سانين وفلوتشين والدنيا جميعها وكان يحب أن يفارقهم ولكنه لم يستطع أن يتحرك ونازعته نفسه أن يأتى أمراً فاضحاً غير أنه لم يسعه إلا أن يدخن سيجارة بعد أخرى وهو أشد ما يكون رغبة أن يعلن إلى الحضور أن ليدا عشيقته .

وعادت ليدا فسألت فلوتشين « وكيف تحب المقام هنا ؟ ألا تأسف لتركك بطرسبرج وراءك » ونفسها تتقطع حسرات وهى تعجب لأمرها لماذا لا تنهض وتدعهم .

فقال فلوتشين بالفرنسية ولوح بيده وحدق فى ليدا : « على العكس ! » .

فقالت ليدا بدلال « اسمع ! أسمع ! دعنا من الخطب الجميلة » وكان جسمها يقول لساروديين « إنك تظنني شقية أليس كذلك ؟ وأنى سحقت ؟ ولكنك يا صاحبى مخطىء ! أنظر إلى ! » .

فقال ساروديين : « ياليدا بتروفنا ! كيف تسمين هذا خطبة جميلة » .

فسألته ليدا بجهورة : « عفواً ياسيدى ماذا تقول ؟ » كأنما لم تكن سمعته ثم عادت إلى كلام فلوتشين بلهجة أخرى :

« حدثنا عن الحياة فى بطرسبرج . إننا هنا نعيش كالنبات » .

ورأى ساروديين أن فلوتشين يبتسم لنفسه ابتسامة من لا يصدق أن ساروديين كانت له بها علاقة متينة فعض شمتيه وتوجع .

فتعلقت عين فلوتشين بجمال ليدا وانطلق يهضب وكأنه القرد الصغير يهذى بما لا يفهم وقال : « حياة بطرسبرج الشهيرة ؟ إنى أؤكد لك بشرفى أن حياتنا مملة لا لون لها . ولقد كانت هذه الحياة إلى ما قبل اليوم كذلك فى بطرسبرج وفى غيرها » .

فقالت ليدا وأطبقت جفونها : « أكذلك تقول ؟ » .

وأتم فلوتشين كلامه فقال : « إن الذى يجعل للحياة قيمة ... هو المرأة الجميلة . وما ظنك بالنساء فى المدن الكبرى ؟ آه لو تريتهن ! وصدقينى إنى مقتنع بأنه لن ينقذ الدنيا ويخلصها — إذا كان شيء من ذلك مقدوراً لها سوى الجمال » ولم يكن يريد أن يقول هذا ولكنه نطق به فجأة لظنه أنه أليق ما يكون وكانت لحة وجهه ناطقة بالغباء والشره وهو يكر فى حديثه إلى موضوع المرأة الذى لم يكن أشهى منه عنده . وكان سارودين يحمر تارة ويصفر أخرى من الغيرة فلم يطق الجلوس فى مكان واحد فنهض وجعل يتمشى وقال فلوتشين :

« إن نساءنا كلهن سواء كل واحدة منهن صورة طبق الأصل من الأخرى . فمن طلب امرأة يستحق جمالها العبادة فليذهب إلى الأقاليم حيث الأرض بكر تخرج آنق الأزهار » .

فحك سانين قفاه ووضع إحدى رجليه فوق الأخرى .

فقالت ليدا : « وما خير ان تنفتح هذه الأزهار هنا إذا لم يكن ثم من هو أهل لقطفها ؟ » .

فاهتم سانين فجأة وقال لنفسه : « آها ! أهذا ما تقصد إليه » والتذ هذا التلاعب بالألفاظ .

فسألها فلوتشين : « أهذا ممكن ؟ » .

فأجابته ليدا بحرارة : « نعم هو كذلك ! وإنى لأعنى ما أقول من الذى يقطف أزهارنا السيئة الحظ ؟ ما هؤلاء الرجال الذين نحسبهم أبطالا ؟ » .

فسألها سارودين : « ألا تظنين أنك قاسية علينا فى هذا الحكم ؟ » .

فقال فلوتشين : « كلا ! إن ليدا بتروفنا مصيبة ! » ونظر إلى سارودين فانقطع تيسار فصاحته . فضحكت ليدا ضحكا عاليا وأثارت نظرها إلى سارودين وقد امتزجت فى نفسها عواطف الخجل والأسى والانتقام وعاد فلوتشين إلى الكلام وجعلت ليدا تقاطعه بالضحك لتخفى دموعها .

فقال ساروديِن : « أظن أن الوقت قد أزف فلنقم » وأحس أن الموقف لايحتمل ولم يكن يدرى لماذا . ولكن كل شيء — ضحك ليدا ونظراتها الساحرة واضطراب يديها — كان له وقع السكم على الأذن وأضناه بغضه المتزايد لها وغيرته من فلوتشين وشعوره بما فقد . فسألته ليدا : « بهذه السرعة ؟ » .

فافترّ ثغر فلوتشين ولحس شفتيه بطرف لسانه وقال بلهجة المتهكم وقد زهاه انتصاره : « لاحياة لنا . إن فيكتور ساروديِن على ما يظهر متغير » .

وودعوا ولما انحنى ساروديِن على يد ليدا همس : « إن هذا فراق بيني وبينك » ولم يشعر لليدا بتلك هذا المقت .

ونازعت ليدا نفسها هنيهة أن تودع تلك الساعات الخالية ساعات الحب التي نعما بها ولكنها خنقت هذه الرغبة وقالت بصوت خشن عال : « الوداع سفر سعيد ! لا تنسنا ياباغل لفوفتش ! » .

ولما انصرفا كانت ليدا وأخوها يسمعان فلوتشين وهو يقول :

« ما أفتنها : أنها تسكرنى مثل الشمبانيا ! » .

وجلست ليدا على الكرسي الهزاز وتغيرت هيئتها ومالت إلى الأمام وأطرقت وجعلت ترتجف ودموعها تتساقط .

فقال سانين وتناول يدها : « تعالى ! تعالى ما الخبر ؟ » .

فقالت ليدا : « آه ؟ دعنى ! ما أفظع الحياة » وتدلى رأسها وغطت وجهها براحتيها وكانت ضفيرتها الناعمة المصقولة قد زلت عن كتفها إلى صدرها .

فقال سانين : « ما خير أن تبكي لمثل هذه التوافه ؟ » .

فتمتمت ليدا : « أو ليس فى الدنيا إذاً من هم خير من هؤلاء الرجال ؟ » .

فابتسم سانين وقال : « كلا ! على التحقيق . إن الإنسان سافل بطبيعته .

فلا تتوقعي منه شيئاً من الخير وإذا وطنت نفسك على هذا لم يحزنك ما يصيبك من شره » .

فرفعت ليدا إليه عينيها الجميلتين المغرورقتين وسألته :

« أو لا تنتظر أنت كذلك شيئا من الخير من أبناء جنسك؟ » .

فأجابها سانين : «كلا ! بالبداهة . إنى أعيش فى هذه الدنيا وحدى» .

— ٢٨ —

فى اليوم التالى ذهبت دونيكا تعدو إلى سانين ورأسها عار وكذلك قدماها وكان فى الحديقة وصاحت به وفى عينيها آيات الفزع :

« فلاديمير بتروفتش ! قد جاء الضباط وهم يطلبون أن يحادثوك ! » ورددت هذه الكلمات كأنما كانت درسا حفظته عن ظهر قلب .

فلم يعجب سانين إذ كان يتوقع ذلك من سارودين وسألها بلهجة المغتبط المازح : « هل يشتاقون جداً أن يقابلونى ؟ » .

ولا بد أن تكون دونيكا توقعت شيئا مزعجا ذلك أنها لم تخف وجهها بل طفقت تحدق فى وجه سانين وترنو إليه رنو العطف والذهول .

فأسند سانين فأسه إلى شجرة وشد حزامه ومضى إلى البيت فى تؤدة على عادته وكان يقول لنفسه : « ما أسخفهم وأشد غباءهم ! » وهو يفكر فى سارودين ورسوليه ولم يكن يقصد بهذا إلى الطعن فيهن بل إلى مجرد الإعراب عن رأيه الصريح المخلص فى سلوكهم .

ولقى فى طريقه ليدا خارجة من غرفتها فوقفت على العتبة ووجهها باهت ممتقع وعيناها قلقتان محزونتان وشفتاها تختلجان دون أن ينبثا وكانت فى هذه اللحظة تحس أنها أشقى النساء فى العالم وأعظمهن جرماً .

ورأى ماريا إيفانوفنا جالسة على كرسى ذى ذراعين أشد ما تكون فزعا ويأسا وعلى رأسها قبعتها مائلة إلى أحد خديها فألقت إلى سانين نظرة فزعة وخانها الكلام فابتسم لها وهم بأن يقف معها هنيهة ولكنه آثر أن يمضى لشأنه .

وكان تاناروف وفون دايتز جالسين فى غرفة الانتظار جلسة صلبة ورأس كل منهما إلى زميله كأنما كانت تضايقهما ثيابهما المشدودة فلما دخل سانين وقفا فى بطء وتردد كأنهما فى شك مما يجب عليهما نحوه . فقال سانين بصوت عال : « عما صباحاً » . ومد إليهما كفه فتردد فون دايتز وانحنى تاناروف وبالغ فى الانحناء حتى لا ستطاع سانين أن يرى قفاه وعاد سانين فقال :

« أى خدمة أستطيع أن أقدمها لكما ؟ » ولم تفته مبالغة تاناروف فى التأديب وعجب له كيف وسعه أن يقوم بدوره السخيف بهذا الاطمئنان .

فاعتدل فون دايتز وأراد أن يكسب وجهه الممطوط كوجه الحصان هيئة الجد والوقار إلا أنه لم يفلح فى هذا الذى عالجه لفرط اضطرابه . ومن الغريب أن تاناروف — وهو فى العادة سخيف حيى — هو الذى خاطب سانين بلهجة حاسمة متزنة فقال :

« إن صديقنا فيكتور سارودين قد أولانا شرفاً بأن طلب إلينا أن نمثله فى أمر معين بعينكما » — ألقى هذه الجملة بإحكام الآلة وضبطها .

فقال سانين : « أهو ! » بوقار مضحك وفتح فمه على آخره ومضى تاناروف فى كلامه معبساً قليلا :

« نعم ياسيدى . أنه يرى إن سلوكك نحوه لم يكن .. أحسن .. أ ..... » .

فقاطعه سانين وقد بدأ صبره ينفذ : « نعم نعم . فهمت . لقد كدت أطرده من البيت لكنزا برجلى فقولك لم يكن « أحسن .. » أقل العبارات صلاحاً للعبارة عما حدث » .

فلم يلتفت تاناروف إلى هذا الكلام وقال :

« حسن ياسيدى . إنه يصر على أن تسحب ألفاظك » .

وأيده فون دايتز بنعم نعم وكان ينقل رجليه كالجواد فابتسم سانين وقال : « أسحب ألفاظى ؟ كيف أستطيع أن أفعل ذلك ؟ إن الكلمة كالطائر خرج من قفصه ! » .

فحار تاناروف وارتبك وحدق فى وجه سانين بدل أن يرد عليه وقال سانين لنفسه « واسوأتا لعينيه ! » ثم استأنف تاناروف الكلام وهو مغضب : « إن هذه ليست بالمسألة التى يجوز فيها المزاح فهل أنت مستعد لسحب كلامك أم غير مستعد ؟ » .

فصمت سانين برهة وجيزة وقال لنفسه « ما أغباه » وهو يتناول كرسياً ثم جلس وقال بلهجة الجد : « ربما كنت مستعدا أن أسحب كلامى لأرضى سارودين وأسكن نفسه لاسيما وأنا لا أعلق أضأل أهمية بما قلت له . ولكن سارودين أولا لغبائه أبى أن يفهم الباعث لى على كلامى ثم هو يأبى الآن إلا أن يلغط بالأمر بدل أن يضبط لسانه ثم أنى ثانياً أمقت سارودين كل المقت ولست أرى فى هذه الظروف أى مبرر لسحب كلامى » .

فقال تاناروف بصوت أشبه بالصفير : « حسن جدا . وإذا ... » .

وحملق فون دايتز مذهولا واصفر وجهه الطويل .

وعاد تاناروف فقال بصوت عال أراد به الوعيد : « فى هذه الحالة » .

فزاد كره سانين لهذا المخلوق وهو ينظر إلى جبهته الضيقة وثيابه المشدودة وقاطعه قائلا : « نعم نعم . إنى أعرف كل ذلك . ودعانى أقل لكما شيئاً واحدا وهو أنى أنوى أن لا أبارز سارودين » .

فاستدار فون دايتز بحدة ومط تاناروف جسمه وسأله بلهجة المحتقر : « ولماذا من فضلك ؟ » .

فانفجر سانين ضحكاً وزال كرهه له بأسرع مما جاء وقال :

« حسن . أذكر لك السبب . إنى أولا لا أريد أن أقتل سارودين وأنا — ثانيا — أقل رغبة فى أن يقتلنى أحد » .

فقال تاناروف باحتقار : « ولكن ... » .

فقاطعه سانين ووقف : « لن أبارزه والسلام . لماذا ؟ إنى لا أميل إلى تعليل شىء أو تفسيره لكما ، وإن ماتطلبان لأكثر مما لكما الحق فيه » .

وكان احتقار تاناروف لهذا الرجل الذى يأبى أن يبارز ممتزجاً باعتقاده

أن الضابط وحده هو الذى رزق الشجاعة والإحساس بالشرف اللازمين لهذا العمل . ومن أجل ذلك لم يدهشه أن يرفض سانين بل لعل الرفض سره . فقال بلهجة زارية :

« هذا شأنك ولكنى لاأرى بدا من تحذيرك ... »

فضحك سانين وقال : « نعم نعم ولكنى أنصح لساروردين أن لا ... ».

فقاطعه تاناروف وهو يتناول قبعته سائلا : « أن لا يفعل ماذا ؟ »

فقال سانين : « أنصح له أن لايلمسنى وإلا جلدته حتى .. » .

فصاح فون دايتز هائجاً : « اسمع ! إنى لا أستطيع أن أحتمل هذا . . إنك .. إنك إنما تضحك منا . ألا تعلم أنك برفضك أن تبارز .... ».

وكان وجهه أحمر وعيناه جاحظتين . والزبد على فمه فنظر سانين إلى فمه مستغربا وقال : « وهذا هو الرجل الذى يعدنفسه من تلاميذ تولستوى ! ! ».

فقلق فون دايتز وطوح رأسه وتمتم وهو مستحى من أن يخاطب بهذه اللهجة من كان صديقا له إلى آخر لحظة : « إنى مضطر أن أرجوك أن لاتذكر هذا . فإنه لاشأن له بموضوعنا » .

فأجابه سانين : « أوليس لهذا شأن بما أذكرتك ؟ حقيقة ؟ إن له لمدخلا كبيرا ».

فنعق فون دايتز : « ولكنى مضطر أن أرجوك .. » .

وقال تاناروف : « إن هذا كثير حقيقة .. » .

فقال سانين وتراجع مشمئزا من فون دايتز وكانت شفتاه تنثران ريقه : « آوه . كفى كفى ! هذا ماشئتما فما يعنينى ظنكما وقولا لساروردين إنه حمار » .

فصاح فون دايتز « ليس لك حق ياسيدى . أقول ليس لك حق » .

وقال تاناروف مقتنعا : « حسن جدا . دعنا نذهب » .

فصاح فون دايتز ولوح بذراعيه : « كلا ! كيف يجرؤ ؟ ... أى حق .. إن هذا .. » .

فنظر إليه سانين هنيهة وأومأ محتقرا وخرج من الغرفة . فصاح به تاناروف : « سنبلغ رسالتك إلى زميلنا الضابط » .

فقال سانين : « افعل ماشئت » ولم يلتفت وراءه وكان يسمع تاناروف يعالج أن يهدىء روع فون دايتز فقال لنفسه « ان هذا الفتى سخيف فى العادة ولكنه بصير عاقل إذا كانت المسألة من اختصاصه » .

وصاح فون دايتز وهما خارجان « ان المسألة لايمكن أن يسمح لها بالانتهاء عند هذا الحد » .

ونادت ليدا أخاها من غرفتها « فولودحا » .

فوقف سانين وسألها : « ماذا ؟ » .

أجابت : « تعال . فإنى أريد أن أحادثك » .

فدخل سانين غرفة ليدا وكان العطر يفعم الأنف فيها فقال سانين : « ما أحلى أن يكون المرء هنا » وكانت ليدا تواجه النافذة والأضــواء المعكوسة عن الحديقة تضطرب على خديها وكتفيها .

فسألها سانين برفق : « ماذا تريدين منى ؟ » .

فصمتت ليدا وأسرعت أنفاسها .

فسألها ثانية : «ما الخبر ؟» .

فقالت بصوت أجش ولم تلتفت إليه : « ألا تنوى أن تبارزه ؟ » .

أجابها : « كلا » . فصمتت ليدا وقال سانين : « وماذا إذا ؟ » .

فاضطربت ذقن ليدا والتفتت اليه بسرعة وقالت : « إنى لا أفهم هذا . . لاأستطيع أن . . » .

فقاطعها سانين متجهما وقال : « إذا فإن أسفى عليك عظيم » .

وأحس أن الغباء والشر يحيطان به من كل جانب وغاظه أن يجد هذه الصفات فى الأشرار والأخيار والقباح والحسان على السواء فاستدار وخرج .

وراقبته ليدا وهو يخرج ورأسها بين يديها ثم ألقت بنفسها على السرير

وامتدت ضفيرتها السوداء الطويلة على الغطاء الأبيض فبدت في هذه اللحظة على الرغم من يأسها أصبى وأينع .

وكانت النافذة ترسل النور والحرارة والعطر : ولكن ليدا لم تلتفت إلى شيء من هذا .

كان الوقت أصيلا بارع الجمال ومساء من تلك الممى التي تفيضها على الأرض في أخريات الصيف قبة السماء اللازوردية وكانت الشمس قد مالت صوب المغرب ولكن الضوء كان وضاحا والجو صافياً رائقا والندى كثيراً والتراب الذي ثار في بطء يعقد شفوفا دون السماء . والأصوات تسبح هنا وههنا كأنما تحملها أجنحة سريعة .

وكان سانين يسير في الطريق المغبر ورأسه عار وعلى جسمه قميصه الأزرق حائل اللون قليلا عند الكتفين ثم مال إلى درب كثير النجائل تيمما بيت إيفانوف .

وكان إيفانوف جالسا عند النافذة عريض الكتفين بادي الجد وشعره الطويل مرسل عن جبهته إلى يافوخه وأمامه الطباق يصنع منه لفائف والحديقة ترسل إليه النسيم رطباً بليلا وأوراق الأشجار أمامه يومض فيها الطل . ورائحة الطباق القوية تغريه بالعطاس . فقال سانين ومال على حافة النافذة : « عم مساء لقد طلب إلى اليوم أن أبارز » .

فأجابه إيفانوف غير محتفل : « أي فكاهة هذه ؟ تبارز من ؟ ولماذا ؟ فقال سانين : « ساروديين . فقد طردته من البيت بعد هذا إهانة » . فقال إيفانوف : « إذا فسيكون عليك أن تلاقيه . دعني أكون شاهدك وطير له أنفه »

فقال سانين وهو يضحك : « لماذا إن الأنف عضو جميل من وجه الإنسان . . كلا . لن أبارزه » .

فهز إيفانوف رأسه موافقاً وقال : هذا شيء حسن . والمبارزة بعد لا ضرورة إليها أبداً .

فقال سانين : ولكن أختي ليدا لاترى هذا الرأي » .

فأجابه إيفانوف : ذلك لأنها أوزة ورهاء . ما أكثر السخافات التي يؤمن بها الناس . ! » .

وفرغ من آخر لفافة وأشعلها ووضع الباقية في علبة ونفخ بقايا الطباق عن النافذه ووثب منها وانضم إلى سانين وسأله :

« ماذا نصنع هذا المساء ؟ » فقال سانين مقترحاً :

« لنذهب إلى سلوفتشك » . فقال ايفانوف : « لا لا ! » .

فقال سانين : « لماذا ! ؟ » . فقال إيفانوف : « لا أحبه : إنه كالدودة ». فهز سانين كتفيه وقال : « ليس شراً من غيره . هيا بنا » . فقال إيفانوف « حسن . هيا بنا » وكان لايمتنع عن شيء يقترحه سانين فمضيا معاً . ولكن سلوفتشك لم يكن في البيت وكان الباب موصداً والفناء موحشاً وليس به إلا « سلطان » يجرجر سلسلة طوقه فنبحهما فقال إيفانوف :

« يا له من مكان موحش . دعنا نذهب إلى الميدان » .

فعادا ونبحهما الكلب مرتين أو ثلاثاً ثم أقعى أمام مبيته .

وراح ينظر إلى الفناء المهجور الموحش وإلى الطاحون الصامتة وإلى آثار الأقدام على الحشائش المعفرة .

وكانت فرقة الموسيقى تعزف في الميدان على عادتها والنسيم يهب عليلا والمتنزهون كثر تسير جموعهم إلى الحدائق الظليلة تارة وإلى المدخل الحجري الضخم أخرى .

وما كاد سانين وإيفانوف يدخلان وذراعاهما مشتبكتان حتى لقيا سلوفتشك وكان يسير وهو مطرق ويداه وراء ظهره فقال سانين : « لقد مررنا الساعة بدارك » .

فاحمر وجه سافوتشك وابتسم وقال مجيباً :

« أسألك العفو . وإنى لعظيم الأسف ولكنه لم يخطر لى قط أنك ستزورنى اليوم وإلا لزمت البيت . لقد خرجت طالباً للرياضة قليلا » والتمعت عيناه .

فقال له سانين بلهجة العطف وأمسك بذراعه : « تعال معنا » وكأنما ابتهج سافوتشك فأطبق على ذراعه ودفع قبعته إلى قفاه وسار معهما وكأنه ممسك بشيء ثمين لا بذراع سانين وكان يخيل إليك أن فمه يصل من أذن إلى أذن .

وكان رجال الفرقة حمر الوجوه منتفخي الخدود يرسلون أصوات آلاتهم النحاسية المصمة ويحثهم رئيسهم ملوحاً بعصاه بحماسة . وحول الفرقة طوائف من الكتبة وعمال الحوانيت والصبيان والبنات وعلى أجيادهم مناديل زاهية الألوان . وفى طرقات الحديقة وممراتها طائفة مرحة من الضباط والطلبة والسيدات .

وما لبث أصحابنا الثلاثة أن قابلوا ديبوفا وشافروف ويورى فتبادلوا معهم البسمات . وبعد أن طافوا بأرجاء الحديقة كلها قابلوا سينا كرسافينا فانضمت إليهم وسألتها ديبوفا :

« لماذا تسيرين وحدك » وقال بعضهم : « تعالى معنا » .

واقترح شافروف : « ميلوا بنا إلى ناحية منعزلة فإن الزحام هنا شديد » . فالوا إلى مكان أهدأ وأكثر ظلا وهم يضحكون ويتحدثون . ولما بلغوا آخره وهموا أن يعرجوا على سواه التقوا بساروديين وتاناروف وفلوتشين وأدرك سانين أن ساروديين لم يكن يتوقع أن يلتقى به هنا وأنه اضطرب اضطراباً شديداً فقد تجهم وجهه ومط جسمه . وضحك تاناروف ساخراً .

وقال إيفانوف لسانين : « إن هذا القرد الصغير لا يزال هنا » ونظر إلى فلوتشين وكان هذا لم يرهم إذ كان فى شاغل من سينا وكانت سائرة فى طليعتهم حتى لقد التفت وراءه لينظر إليها .

فقال سانين : « نعم لا يزال هنا » .

وظن سارودين أن تاناروف إنما يقصده هو بضحكه فناوى كأنما كان جلد وثارت ثائرة غضبه وترك زميليه واندفع إلى سانين .

فقال سانين « ماذا ؟ » وجد بجده وعينه إلى سوط صغير فى يد سارودين المرتجفة وقال لنفسه : « ما أحمقك ! » . وخامره العطف عليه والغضب منه . فقال سارودين بصوت مبحوح :

« أريد أن أقول لك كلمة . هل تلقيت دعوتى ؟ » .

فقال سانين وعينه ترصد كل حركة ليد الضابط : « نعم » .

فسأله سارودين : « وهل استقر رأيك على أن ترفض .. . أن تعمل ما ينبغى لكل رجل محترم أن يعمله فى مثل هذه الظروف ؟ » .

وكان صوته متهدجا مخنوقاً وإن كان عالياً حتى لأنكره هو نفسه ولم تؤاته الشجاعة على التحول عن الطريق الذى أمامه .

فسكتت الحديقة فجأة كأنما لم يعد بها هواء ووقف الباقون من الناحيتين سكوتاً مرتبكين منتظرين .

وحاول إيفانوف أن يتدخل فقال : « آوه ! أى شيطان .. » .

فقاطعه سانين موجهاً كلامه إلى سارودين وقال بصوت غريب فى هدوئه واتزانه وهو يحدق فى عينه : « أرفض بالطبع » .

فأسرعت أنفاس سارودين كأنه يرفع ثقلا جسيما :

وسأله مرة أخرى بصوت رنان : « أسألك مرة أخرى — هل ترفض ؟ » .

فاصفر سلوفتشك وقال لنفسه : وا أسفاه إنه سيضربه »

ثم تمتم وهو يحاول أن يحمى سانين « ماذا ؟ ماذا جرى ؟ »

فلم يلتفت إليه سارودين ودفعه عنه بخشونة ولم ير أمامه إلا عينى سانين الهادئتين الباردتين .

وقال سانين بنفس هذه اللهجة : « لقد قلت لك هذا مرة » .

فماج كل شىء فى نظر سارودين وسمع خلفه أقداماً سريعة الخطى

وصرخة امرأة وأحس من اليأس ما يحسه من يسقط في هاوية فلوح في الهواء بسوطه .

وفي هذه اللحظة نفسها جمع سانين كل قوته ولكمه في وجهه بجمع يده فصاح إيفانوف ولم يملك نفسه : « حسن ! » .

فتمايل رأس ساروديين على كتفه وفاض على أنفه وفمه شيء حار أحس له وخزاً في دماغه وعينيه وتوجع وسقط على يديه وأفلت السوط من كفه وزلت قبعته عن رأسه ولم ير شيئاً ولا سمع شيئاً . ولا شعر إلا بالفضيحة الشنيعة وبالألم الكاوي في عينيه . وصرخت سينا . « يا آلهي ! » وأمسكت رأسها بكلتا يديها وأغمضت عينيها . واستفظع يوري منظر ساروديين وهو راقد على يديه ورجليه . فاندفع إلى سانين ووراءه شافروف . أما فلوتشين فزلت نظارته عن أنفه لما تعثر وعدا بأسرع ما يستطيع على النبات البليل حتى أسودت سراويله البيضاء الناصعة إلى الركبتين .

وقرض تاناروف أضراسه هائجاً وتقدم مثل يوري ولكن إيفانوف أمسك بكتفه ورده . فقال سانين باحتقار :

« هذا حسن . دعه يقبل » وكان واقفاً ورجلاه منفرجتان وأنفاسه بطيئة والعرق يتصبب عن جبينه .

ونهض ساروديين بطيئاً وندت عن شفتيه الوارمتين المرتجفتين ألفاظ وعيد خافتة غير مفهومة رآها سانين غاية السخافة والبله :

وكان الجانب الأيسر كله من وجه ساروديين قد انتفخ وورم ولم تعد عينه ترى والدم يسيل من فمه وأنفه وجسمه كله يرعد كأنما ترعشه الحمى . ولم يبق شيء من ذلك الضابط الرشيق الوسيم .

فقد سلبته هذه اللكمة الفظيعة كل مظاهر إنساني ولم تدع إلا كتلة مشوهة مستبشعة تبعث على العطف والمرثية ولم يحاول أن يمضي أو أن يدفع عن نفسه وجعلت أسنانه تصطك وهو يبصق الدم وتفض الرمل عن ركبتيه ثم دار رأسه فمال إلى الأمام وسقط على الأرض مرة أخرى .

فصاحت سينا : « ما أفظع هذا ! ما أشنعه ! » وأسرعت فغادرت المكان . وقال سانين لإيفانوف : « هيا بنا » ونظر إلى السماء حتى لا تقع عينه على هذا المنظر البشع .

فقال إيفانوف : « تعالى معنا يا سلوفتشك » .

ولكن سولوفتشك لم يتحرك بل ظل يحدق فى سارودين وفى الدم والرمل القذر على ثيابه البيضاء وهو يرجف وشفتاه تختلجان .

فجره إيفانوف بعنف ولكن سلوفتشك دفعه بحدة عجيبة ثم التصق بجذع شجرة كأنما يريد أن يقاوم من يجره بالقوة .

وقال : « لماذا ؟ لماذا فعلت هذه الفعلة ؟ » .

وصاح يورى فى وجه سانين « ما أنذل هذا العمل ! »

فأجابه سانين وعلى فمه ابتسامة ساخرة : « نعم نذالة ! هل كان يكون خيراً فى رأيك لو تركته يضربنى ؟ » ثم أشار بيده وحث خطاه ورمى إيفانوف إلى يورى نظرة ازدراء وأشعل سيجارة وتبع سانين على مهل وقال له ظهره العريض وشعره المصقول « ما أقل ما أثر فيك هذا المشهد ! » وقال هو لنفسه « ما أقدر الإنسان على أن يصير وحشاً ! » .

ونظر سانين وراءه مرة ثم مضى مسرعاً .

وقال يورى وهو يمضى « مثل الوحوش تماماً » .

وتلفت وراءه فإذا الحديقة التى كانت جميلة لطيفة قد صارت بعد الذى وقع مكاناً موحشاً جهما معزولا عن سائر العالم .

وتنفس شافروف الصعداء وتلفت من وراء نظارته فى كل جهة كأنما يتوقع أن تتكرر هذه القطيعة فى أية لحظة .

(٣٠)

تغيرت حياة ساروردين كل التغير فى لحظة . كانت رحبة سلسلة كلها مرح فعادت الآن مشروهة لا تحتمل وسقط القناع الضاحك وبدا وجه الوحش الدميم

وكان تاناروف قد حمله إلى مسكنه فى مركبة فجعل فى الطريق يبالغ فى التألم والتظاهر بالضعف حتى لا يفتح عينيه وبذلك ظن أن يجتنب تعبير آلاف العيون له كلما وقعت عليه وكان يخيل إليه أن ظهر السائق والمارة والوجوه المتطلعة من النوافذ وذراع تاناروف حول خصره . كل ذلك ليس إلا عبارات صامتة عن الاحتقار . ولج به هذا الشعور المؤلم حتى كاد يغشى عليه فأحس أن رشده يكاد يعزب وتمنى الموت وأبى أن يعترف بالواقع وظل يعالج أن يتصور أن هنالك خطأ أو سوء تفاهم وأن خطبه ليس من الهول بحيث يتصور . ولكن الحقيقة الواقعة بقيت كما كانت فصار يأسه أعظم .

وشعر ساروديين بأن أيديا تساعده وأنه يتألم وأن يديه ملوثتان بالدم والأقذار وعجب لنفسه كيف لا يزال يشعر بهذا وكانت المركبة ربما مالت إلى طريق آخر عند ركن حاد فيفتح عينيه ويرى ما ألف من الشوارع والمنازل والناس والكنيسة — كل شيء كما كان لم يلحقه تغيير ولكن كل شيء كان يبدو له غريبا مناصبا . وكان المارة يقفون ويحملقون فيغمض ساروديين عينيه خجلا ويأسا . وكأن الطريق لا آخر له ثم تصور وجوه خادمه وربة البيت والجيران فود لو يطول الطريق إلى غير نهاية وأن يظل ماضيا هكذا إلى غير غاية وعيناه مغمضتان

وكان تاناروف أعظم ما يكون استنضاحا لهذا الموكب . فجعل ينظر أمامه وهو مضطرب أحمر الوجه وحاول أن يوقع فى روع النظارة أنه لا شأن له على الإطلاق بهذه المسألة . وكان فى أول الأمر يدعى العطف على ساروديين ثم لم يلبث أن لزم الصمت وربما استحث السائق من حين إلى حين وأسنانه مطبقة فأدرك ساروديين من هذا ومن تراخى ذراعه حوله بل من دفعه به أحيانا — ما يحسه تاناروف وجاء إدراكه هذا أن رجلا كتاناروف دونه بمراحل صار يخجل منه مغريا له بالاعتقاد أن كل شيء قد انقضى . ولم يستطع ساروديين أن يجتاز فناء الــدار بغير معين فــكان على

تاناروف والخادم المذهول أن يحملاه ولم ير سارودين غيرهما ثم وضعاه على الفراش ووقفا أمامه مترددين لايعلمان ماذا يصنعان فهاج ذلك ساررودين ولما عادت إليه نفسه جاء الخادم بماء ساخن ومنشفة وغسل له وجهه ويديه وكان ساررودين يتجنب عينه ولكن وجه الخادم لم يكن فيه شيء من دلائل الشر أو الزراية ولم يكن المرء يقرأ فيه سوى آيات العطف والقلق . وهو يتمتم :

« كيف حدث ذلك ياسيدى ؟ وا أسفاه ! وا أسفاه ؟ ماذا فعلوا به ؟ » . فصاح تاناروف مغضبا : « هذا ليس شأنك » وتلفت حوله مضطربا ثم مضى إلى النافذة وأخرج سيجارة ولكنه تردد ولم يدر أيليق به وساررودين ملقى هنالك أن يشعلها فردها إلى موضعها من العلبة ودفعها فى جيبه .

وقال الخادم ولم يصدمه ما أصابه من سوء الرد :

« هل أدعو الطبيب » . فمد تاناروف أصابعه متردداً وقال :

«لا أدرى» بصوت آخر غير الاول وأدار وجهه وسمع ساررودين هذه الكلمات واستهول أن يرى الطبيب وجهه المحطم فتمتم بضعف : « لا أريد أحداً » كأنما يعالج أن يقنع نفسه وغيره أنه سيموت . ولما طهر وجهه من الدم والأقذار لم يعد بشعاً بل لعله صار أبعث على العطف . فنظر تاناروف مسرعا ثم صرف عنه عينه ولمح ساررودين هذه الحركة على خفائها وناله منها ألم ويأس لا سبيل إلى العبارة عنهما فأطبق جفونه وصاح بصوت متقطع تخنقه العبرات : « اتركانى آوه ! آوه ! »

فرماه تاناروف بنظرة أخرى وتملكه السخط عليه والاحتقار له وقال لنفسه بارتياح خبيث : « إنه يهم فعلا بالبكاء » .

وكان ساررودين مغمضاً عينيه هادئاً فنقر تاناروف بأصابعه على حافة النافذة ولوى شاربيه وتلفت حوله ثم أطل من النافذة واشتاق أن يخرج ولكنه قال لنفسه : «لا أستطيع ذلك الآن . ما أمله ! الأوفق أن أبقى حتى ينام » .

ومضى ربع ساعة أخرى وساروديين لا يهدأ وتاناروف على أحر من الجمر قلقا . وأخيراً هدأ ولم يعد يتحرك فسر تاناروف وقال : « آها ! لقد نام . نعم وأنا واثق من ذلك » .

ومشى بحذر وخفة حتى لم يسمع صوت مهمازه : ولكن ساروديين فتح عينيه فجأة . فوقف تاناروف . وأدرك ساروديين ما انتواه صاحبه وعرف تاناروف أنه افتضح . ثم حدث أمر غريب : أغمض ساروديين عينيه وادعى النوم وحاول تاناروف أن يقنع نفسه بأن صاحبه نائم وإن كان على يقين جازم بأنه يراقبه ويرصد حركاته . وهكذا زحف من الغرفة وهو منحن يحس كأنه خائن محكوم عليه .

وأغلق الباب وراءه فى رفق . وهكذا انبتت روابط الصداقة التى كانت بينهما إلى الأبد . وأحس كلاهما أن هاوية لا سبيل إلى تخطيها قد احتفرت بينهما . وأنهما صارا غريبين .

ولما صار تاناروف فى الغرفة الخارجية خلاصة أنفاسه ولم يأسف على انقطاع الصلة بينه وبين من قضى كثيرا من سنى حياته معه . وقال للخادم على سبيل المداراة .

« اسمع . سأذهب الآن . وإذا جد شىء .. إنك تفهم .. » .

أجاب : « حسن جدا ياسيدى » .

— « أنت الآن تعرف . غير الشهادات كثيرا » .

وأسرع إلى السلم ومنه إلى بوابة الحديقة ثم أخرج نفساً عميقاً طويلا لما رأى الشارع الساكن العريض وكان الظلام قد زحف فسره أن يستطيع أحد أن يرى احتقان وجهه

وقال لنفسه : « من يدرى ؟ قد يزجون بى فى هذه المسألة الفاضحة ؟ ولكن ما شأنى بها ؟ » .

وهبط قلبه فى صدره لما بلغ الميدان وحاول ، أن يهدىء روعه وأن ينسى أن تاناروف دفعه بقوة حتى كاد يسقط إلى الأرض .

« إلى الشيطان بها ! ما أشأمها حادثة ! إن سببها كلها ساروديبن لماذا راح يصاحب مثل هذا الوحش ؟ » .

وكان مستعدا أن يلمح فى وجوه المارة امارات السخرية والتهكم فلو تعرض له أحد لاستل سيفه . ولكنه لم يلق الا قليلين كأنهم الظلال المتنقلة يمضون مسرعين . ولما بلغ البيت صار أهدأ وكر ذهنه إلى صدمة تاناروف فقال : « لماذا لم أضربه ؟ لقد كان يجب على أن ألكمه على فكه . وكنت أستطيع أن استعمل سيفى . وكان فى جيبى مسدسى أيضا . ولقد كان يجب ان أقتله به كالكلب . ألا كيف نسيت المسدس ؟ من يدرى عسى أن يكون هذا خيرا . ولنفرض أنى قتلته ؟ إذا كانت المسألة تصبح فى أيدى البوليس ولعل بعض الموجودين كان معه مسدس أيضا . حالة لطيفة أليس كذلك ؟ وعلى كل حال فلا يعلم أحد أنه كان معى سلاح . وستنسى المسألة تدريجيا »

وتلفت تاناروف بحذر وهو يخرج مسدسه ويضعه على المنضدة وقال : « يجب أن أذهب إلى الكولونل حالا وأن أفهمه أن لاشأن لى بهذا الموضوع ولا دخل لى فيه » وأغلق الدرج على المسدس ثم نازعته نفسه أن يذهب إلى نادى الضباط وأن يصف الحادثة وصف شاهد عيان وكان الضباط قد سمعوا بها فى الحدائق العامة فارتدوا مسرعين إلى ناديهم ليطلقوا العنان لسخطهم . وكانوا فى الحقيقة قد سرهم ماأصاب ساروديبن لأن رشاقته وأناقته فى ملبسه وهيئته كثيرا ما ضيعتاهم .

فاستقبلوا تاناروف بالترحيب وبالرغبة الصريحة فى الاستطلاع واحس هو أنه بطل الساعة وهو يفصل الحكاية لهم وكان المرء يلمح فى عينه نظرة مقت لصديقه الذى كان دائما يفوقه . وذكر حادثة القرض ووقوف ساروديبن منه موقف المتنازل فاتتقم لنفسه منه بأن أفاض فى وصف ما أصابه من الهزيمة .

* * *

وفى خلال ذلك كان ساروديين وحده على فراشه . وعلم خادمه بمسا أصابه من الناس فجعل يتنقل فى سكون ورفق وهو قلق حزين . وأعد أدوات الشاى وجاء بقليل من النبيذ وطرد الكلب الذى جعل يثب فرحا بعودة سيده ثم قال بعد برهة : « سيدى يحسن بك أن تتناول قليلا من النبيـــذ » .

ففتح ساروديين عينه وقال: « ماذا ؟ » وأغمضها وجهد ما استطاع أن يحرك شفتيه وأن يطلب المرآة .

فتنهد الخادم وجاءه بها ورفع له شمعة أمامها . وقال لنفسه: « ترى لماذا يريد أن ينظر إلى وجهه ؟ » .

فنظر ساروديين فى المرآة ثم صرخ مكرها فقد رأى أمامه وجها مشوها مسيخا أحد جانبيه أسود أزرق وعينه منتفخة وشاربه كالأشواك على خده الوارم .

« خذها عنى ! خذها ! » وبكى « إلى بشىء من الماء » .

فقال الخادم وهو يقدم إليه الماء فى كوب من زجاج تفوح منه رائحة الشاى: « سيدى ، لا تأس على ما نزل ، كل شىء سيعود كما كان » .

ولم يستطع ساروديين أن يشرب وجعلت أسنانه تصطك بزجاج الكوب وأريق الماء على ثيابه .

فتوجع وقال بضعف : « اذهب » . وخطر له أنه ما من أحد فى الدنيا يعطف عليه غير هذا الخادم ولكن الرقة التى أحسها قلبه نحو خادمه عفى عنها الشعور بأنه محل للمرثية حتى من الخادم .

فخرج الخادم وعيناه مغرورقتان وجلس على السلم المؤدى إلى الحديقة . وتمسح به الكلب وحك أذنه بركبته ورفع إليه وجهه مستفسرا فمسح الخادم شعره فى رفق وكانت النجوم مضيئة فى السماء فتوجست نفسه خيفة وأحس أن كارثة ستقع . وذكر قريته وأهله فقال . « إن الحياة كلها أسى وكرب » .

وانقلب ساروديين في فراشه ولم ينتبه إلى أن الضمادة زلت عن وجهه لما دفئت وتمتم : « قد انقضى كل شيء ! حياتي كلها — ذهبت . لماذا ؟ لأني أهنت — ضربت كالكلب — ضرب وجهي بلكمة ! ألا لن أستطيع البقاء في فرقتي . أبداً . أبداً » .

ومثلت لعينه صورته كأوضح ما تكون وهو يحبو على يديه ورجليه ، ذليلا مهيناً مضحك الهيئة . يخرج وعيدا سخيفاً . وظل مرة بعد أخرى يحضر إلى ذهنه تفاصيل ما جرى له وكلما تمثله طغى به الألم ولكن أوجع ما آلمه أدكار ثوب سينا كرسافينا وكان قد لمحه في اللحظة التي كان يقسم فيها أن ينتقم .

ثم حاول أن يدفع خواطره في مجرى آخر فقال :

« من الذي رفعني ؟ أهو تاناروف ؟ أم ذلك اليهودي الذي كان واقفا معه ؟ لابد أن يكون تاناروف . على أن هذا لا يهم . إنما المهم أن حياتي انهارت وأن على أن أترك فرقتي . والمبارزة ؟ ما القول في هذا ؟ لقد انتصر على . فلابد من تركي الفرقة » .

وذكر ساروديين أن لجنة إحدى الفرق أكرهت ضابطين متزوجين على الاستقالة لأنهما رفضا المبارزة .

« وسيطلب إلى أن أستقيل كذلك بكل أدب .. بدون مصافحة .. لن يباهي أحد الآن بأن يرى معي في الميدان . أو يحسدني أحد أو يحاكيني . ولكن هذا لا شيء . إنما المهم هو العار . لماذا ؟ ألأني لكمت على وجهي ؟ لقد جربت ذلك من قبل لما كنت تلميذا في المدرسة الحربية فضربني ذلك الرجل الضخم — شفارتز — وأطار أحد أسناني . ولم ير أحد في هذا عاراً . ولكننا تصافحنا بعد ذلك وصرنا خير الأصدقاء . ولم يحتقرني أحد يومئذ . فلماذا يكون الأمر الآن غير ذلك ؟ إن الحادثتين سواء على التحقيق . ولقد سال دمي يومئذ وسقطت على الأرض . وعلى هذا . . . »

ولم يجد ساروديين جوابا مريحاً على هذه الأسئلة التي يبعثها اليأس :
« لو أنه كان قبل دعوتي وضرب وجهي بالرصاص لكان هذا شراً وأوجع، ولكنه لم يكن يحتقرني أحد حينئذ بل على العكس كنت أفوز بالعطف والإعجاب . فهناك فرق بين الرصاصة واللكمة . أي فرق ؟ ولماذا يكون هناك فرق ؟ » .

وتتابعت خواطره سريعة غير منتظمة ولكن آلامه ومصيبته حركت على ما يظهر شيئاً جديداً كامنا في نفسه لم يكن يشعر به في أيام هنائه ومرحه .

« إن فون دايتز مثلا كان دائما يقول إذا ضربك أحد على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر » ولكن على أي حال من الهياج عاد من بيت سانين اليوم ؟ عاد يصيح مغضباً ويلوح بذراعيه لأن سانين أبى أن يبارزني ! إن الحقيقة أن غيري ملوم على تقصيري في جلده وقد أخطأت في أني لم أجلده في الوقت المناسب . إن الأمر كله ظلم . على أن هذا هو الواقع والفضيحة باقية . وسيكون واجبي أن أترك الفرقة » .

وضغط ساروديين بكلتا يديه على جبينه المتصدع وجعل يتقلب ويتلوى لأن ألم عينه كان مما يطير له العقل ثم تمتم وهو هائج :

« أتناول مسدسا وأهجم عليه وأطلق على رأسه رصاصتين . . وهناك وهو ملقى على الأرض أدوس بقدمي على وجهه وعينيه وأسنانه ... » .

وسقطت الضمادة إلى الأرض وسمع ساروديين صوتها ففزع متراجعاً وفتح عينيه فأبصر حوض ماء ومنشفة ورأى النافذة المظلمة كأنها العين المرعبة تحدق فيه . فقال :

« لا لا ! لم تعد في الأمر حياة الآن . لقد رأى الناس جميعاً ما حدث وأبصروني وأنا أزحف على يدي ورجلي آه ! يالفضيحة والعار ! ضربت على وجهي ! كلا ! إن هذا أكثر مما يحتمل . ولن أكون حراً أو سعيداً مرة أخرى » .

ثم أضاء فى ذهنه خاطر جديد حاد .

« ومع ذلك فهل كنت حراً فى يوم من أيام حياتى ؟ كلا ! هذا هو السبب فيما يكربنى ويحزننى الآن — لأن حياتى لم تكن حرة — لأنى لم أعش على النحو الذى يروقنى . ولو أن ارادتى كانت حرة طليقة أكنت أطالب أن أبارز رجلا أو كانت نفسى تنازعنى أن أجلده بالسوط ؟ لو كنت حراً لما لكمنى أحد . من أول من تخيل ومتى تخيل أن الإهانة لا يغسلها إلا الدم المراق ؟ لست أنا على التحقيق . ولقد ضللتها أو هى ضللت فى الحقيقة بدمى أليس كذلك ؟ ولست أدرى ما معنى هذا كله ولكن الذى أدريه أنى مضطر أن أترك فرقتى » .

وكان يود لو اتجهت خواطره إلى ناحية أخرى ولكنها كانت كالطيور المهيضة المقصوصة الأجنحة لا تزال ترجع وتكر إلى حقيقة واحدة مركزية هى أنه أهين وأنه مضطر أن يغادر الفرقة .

وذكر أنه رأى مرة ذبابة سقطت فى شراب مراق فجعلت تزحف على الأرض وتجر أرجلها اللزجة واجنحتها بأقصى صعوبة وكان من الواضح أن الذبابة المسكينة لا مفر لها من الموت وإن كانت لا تزال تجاهد وتبذل جهوداً عنيفة لاسترداد حرية أرجلها . ولقد أشاح يومئذ عنها بوجهه مشمئزا فالآن مثلت لعينيه كأنه محموم يحلم . ثم ذكر قتالا دار بين فلاحين أهوى إحدهما على وجه صاحبه بضربة مرعبة طرحته على الأرض وكان شيخاً أبيض الشعر .

فنهض ومسح أنفه الدامى بكمه وصاح : « يا لها من حماقة » .

ثم قال « نعم أذكر أنى رأيت هذا . وأنهما شربا معاً فى حان « الكرون » .

ومضى الليل إلا قليلا فكأن سارودين فى سكونه الثقيل الوطأة الحى الشقى الوحيد فوق ظهر الأرض وكانت الشمعة لا تزال موقدة على المنضدة . ولكنه كان غارقا فى ظلام خواطره المضطربة فكان يرمقها بعين محمومة .

وكان فى هذه الفوضى — فوضى الذكريات والخواطر — يرى شيئاً واضحاً هو الإحساس بوحدته إحساسا له وقع الخنجر فى قلبه . وكان يحدث

نفسه أن ملايين من الناس فى هذه اللحظة يقطفون أزهار الحياة ويضحكون ويمزحون ولعل بعضهم يتحدثون عنه وليس وحيداً سواه . وحاول عبثا أن يذكر الوجوه التى ألفها فلم تبد له إلا صفراء باردة منكرة وفى عيونها نظرة استطلاع وشماتة . ثم ذكر ليدا فمثلت لخياله كما رآها آخر مرة . عينها الواسعة الحزينة . والصدرية الرقيقة التى تشف عن ثدييها الناعمين وشعرها ضفيرة واحدة . ولم ير ساروديين فى وجهها لا مقتا ولا احتقارا . بل كانت عيناها تنظران إليه نظرات العطف والأسى . وذكر كيف ردها فى أظلم ساعات حزنها فأحس لفقدها وقع السكين واتجهت إليها روحه كأنها آخر ملجأ ومعاذ واشتاق عطفها وحنانها وخيل إليه هنيهة أن آلامه ستعفى على الماضى وتمحوه ولكنه لم يكن يخفى عنه أن ليدا لن تعود إليه وأن ما بينهما قد مضى وانقضى وأنه لم يبق أمامه سوى فراغ هائل .

فرفع ذراعه وضغط بكفه على جبينه وظل كذلك لا يتحرك وعيناه مغمضتان وفمه مطبق وراح يعالج أن لا يرى شيئا وأن لا يسمع شيئا وأن لا يحس شيئا ولكن يده انحدرت عن جبينه بعد قليل فجلس واشتد الصداع وعاد لسانه وكأن فيه ناراً وارتجف من فرعه إلى قدمه ثم نهض ومشى إلى المنضدة وهو يقول :

« لقد فقدت كل شىء : حياتى وليدا — كل شىء » .

وخطر له أن هذه الحياة التى قضاها لم تكن لا صالحة ولا سعيدة ولا رشيدة بل حياة نزق وسفالة وشر . وأن ساروديين — الوسيم الخليق بخير متع الدنيا وأحلامها لم يعد له وجود وأنه لم يبق منه إلا جسم ضعيف يحمل كل هذا العار والألم .

« إن البقاء مستحيل لأن معناه إمحاء الماضى ولا بد لى من حياة جديدة ومن أن أصبح رجلا آخر وهذا مالا طاقة لى عليه » .

وسقط رأسه على المنضدة وظل كذلك فى ضوء الشمعة الضعيف المضطرب — لا يتحرك .

— ٣١ —

ذهب سانين إلى سلوفنشك فى نفس هذه الليلة وكان هذا اليهودى جالسا وحده على سلم بيته ينظر إلى المكان الموحش العارى الذى أمامه . وما كان أشجى منظر الخصاص الفارغة الصدئة الأقفال ونوافذ الطاحون السوداء ! لقد كان المنظر كله ناطقا بنضوب الحياة والجزر فى مدها الأول .

ولم يفت سانين هذا التغير فى ملامح سلوفنشك فقد كان لا يبتسم وكانت نظرته قلقة مضطربة وعيناه تتساءلان وقال : « آه ! عم مساء وتناول يد سانين ثم استأنف التحديق فى السماء الساكنة . وجلس سانين إلى جانبه على السلم وأشعل سيجارة وجعل يراقب سلوفنشك فى صمت ويجد لذة فى درس هذه الحالة الغريبة ثم قال بعد برهة : « ماذا تصنع بنفسك هنا ؟ » .

فأدار سلوفنشك عينيه الحزينتين الواسعتين إليه فى فتور وقال : « إنى أعيش هنا . وكانت عادتى أن أكون فى المكتب أيام كانت الطاحون دائرة . ولكنها الآن مغلقة وقد ذهب كل امرىء سواى » . فسأله سانين : « ألا تحس وحشة الوحدة هنا ؟ » .

فصمت سلوفنشك ثم هز كتفيه وقال : « سواء عندى كل شىء » . وسكتا برهة فلم يكن يسمع إلا صوت سلسلة الكلب ثم قال سلوفنشك بحدة مفاجئة : « إن المكان ليس موحشا بل الموحش هو هذا وهذا » وأشار إلى رأسه وصدره .

فسأله سانين فى هدوء « ما خطبك ؟ » .

فقال سلوفنشك وزاد حماسة : « اسمع . لقد ضربت اليوم رجلا وحطمت له وجهه . وربما كنت قد قضيت على حياته . ولا يسوءك

كالأبي هذا . لقد فكرت كثيراً في هذا كله وأنا جالس هنا كما ترى أعجب وأعجب والآن هل إذا سألتك عن شيء تجيبني ؟ » . فقال ساتين بعطف : « سلني ما بدا لك . أتخشى أن تسيء إلي ؟ إني أؤكد لك أن هذا لا يسيئني . إن ما وقع وقع . ولو كنت أعتقد أني أسأت لكنت أول من يقر ويعترف » .

فقال سلوفتشك وهو يرتعش : « أريد أن أسألك هل تدرك أنك ربما كنت قد قتلت هذا الرجل ؟ » .

فأجابه ساتين : « لا يكاد يكون هناك شك كبير في هذا . فإن من الصعب على رجل مثل ساروديين أن يتخلص من هذه الورطة دون أن يقتلني أو أن أقتله . أما حيث قتله لي فقد أفلتت منه اللحظة المناسبة وهو الآن في حالة لا تسمح له بإيذائي ولن تواتيه الشجاعة فيما بعد . لقد انتهى دوره » .

— « وتقول لي هذا بكل هدوء ؟؟ » .

فسأله ساتين : « ماذا تعني بالهدوء ؟ إني لا أستطيع أن أنظر في هدوء إلى فرخ يقتل فضلا عن إنسان . ولقد آلمني أن أضربه نعم إن شعور الإنسان بقوته لذيذ ولكنها على هذا تجربة فظيعة — فظيعة لأن مثل هذا العمل في ذاته وحشي . غير أن ضميري هادىء . لأني لم أكن إلا أداة القدر وإنما حاق بساروديين ما حاق به لأن تيار حياته كلها كان لا بد أن ينتهي إلى كارثة . والعجيب أن غيره من أمثاله لا يصيرون إلى مثل مصيره . إنهم قوم يتعلمون أن يقتلوا أبناء جنسهم ولا يعرفون لماذا . إنهم مجانين بله ! إذا خليت حبالهم على غواربهم قطعوا رقاب الناس ورقابهم كذلك فهل ألام على أن حميت نفسي من مجنون من هذا النوع ؟ » .

فأجابه سلوفتشك بعناد : « نعم ولكنك قتلته » .

فقال ساتين : « إذن فتوجه إلى الله الذي قدر لنا اللقاء » .

« كان بسعك أن تمنعه بأن تمسك كلتا يديه » .

فرفع سانين رأسه وقال : «إن المرء فى هذه اللحظة لا ينكر . وكيف كان ذلك خليقا أن يمنع وقوع الشر ؟ إن قانون الشرف عنده يطلب الانتقام بأى ثمن . ولم يكن يسعنى أن أظل قابضا على يديه إلى الأبد . وما كان ذلك ليكون إلا إهانة جديدة » .

فلوح سلوفتشك بيديه ولم يجب وأطبق الظلام عليه وزال الشفق وعمقت الظلال وصار المكان كأنما يتأهب لاستقبال كائنات مرعبة خفية ؛ ولعل خطاهم الصامتة أقلقت الكلب فقد خرج من مبيته فجأة ورقد أمامه .

وقال سلوفتشك : « ربما كنت مصيبا . ولكن ألم يكن من ذلك مفر ؟ ألم يكن خيراً أن تحتمل أنت اللطمة ؟ » .

فقال سانين : « خيراً ! إن الضرب شىء مؤلم فلماذا أحتمله ؟ فى أى سبيل ؟ » .

فقاطعه سلوفتشك : «استمع إلى من فضلك . كان هذا يكون خيراً .. » .

فقال سانين : « لساروديين على التحقيق » .

فقال سلوفتشك : « لا بل لك . لك أنت » .

فأجابه سانين : «إيه ياسلوفتشك . دعك من سخافة القول بالانتصار الأدبى . إنها فكرة غير صحيحة . ليس النصر الأدبى فى أن تقدم خدك للضارب بل فى أن تكون على حق أمام ضميرك . فأما كيف يتأتى ذلك فمسألة مرجعها إلى المصادفة والظروف . إنه ليس أفظع من الاستعباد . وهو أفظع ما يكون حين تثور الروح على الإرغام والقوة ولكنها تذعن على رغم ذلك باسم قوة أعظم منها وأعلى » .

فأمسك سلوفتشك برأسه كأنما يهم أن يطير عن جسمه وقال بلهجة شاكية : « ليس لى العقل الذى أفهم به هذا . ولست أدرى كيف ينبغى لى أن أعيش » .

فقال سانين : « وما حاجتك أن تدرى ؟ عش كما تعيش الطيور إذا أرادت أن تحرك جناحها الأيمن فعلت وإذا شاءت أن تطير حول شجرة طارت وحومت » .

فأجابه سلوفتشك : « قد يستطيع الطائر ذلك ولكنى لست بطائر بل إنسان » . فضحك سانين ورنت ضحكته فى الفناء الموحش وهز سلوفتشك رأسه وقال : «كلا ! هذا ليس إلا كلاماً . وأنت أعجز من أن تبين لى كيف أعيش والناس مثلك عجزاً وقصوراً » . فقال سانين : « هذا صحيح وما يستطيع ذلك أحد . إن فن الحياة يتطلب الموهبة اللازمة له . وأحر بمن حرمته الطبيعة هذه الموهبة أن يفنى أو أن تعود حياته كالسفينة المحطمة » . فقال سلوفتشك : « ما أعظم هدوءك وأنت تقول هذا كأنك تعرف كل شيء ! لايسوءك قولى هذا ــ ولكن هل كنت دائماً هكذا ــ هادئا دائماً » .

فقال سانين : «كلا ! وإن كان مزاجى هادئا فى العادة ولقد مر بى وقت تتنازعنى فيه الشكوك من كل نوع . ولقد كنت أحلم فى بعض أيامى بأن الحياة المسيحية هى المثل الأعلى » .

وأمسك سانين ومال إليه سلوفتشك كأنما يتوقع أن يسمع شيئا على أعظم جانب من الأهمية فقال سانين :

« وكان لى فى ذلك الوقت زميل ــ طالب رياضة ــ اسمه إيفان لانده وكان رجلا عجيبا نصيبه من قوة الروح عظيم وكان مسيحيا بفطرته لا عن اقتناع فكانت حياته مرآة للمسيحية وصورة مجسدة لتعاليمها . إذا لطمه أحد لم ينكر عليه باللطم ولم يجاره فى التعدى وكان يعد كل رجل أخاً له ولا تثير المرأة فى نفسه الإحساس الجنسى ــ هل تذكر سميتوف ؟ » .

فهز سلوفتشك رأسه أن نعم وبه مثل اغتباط الطفل ومضى سانين فى كلامه فقال : «كان سميتوف فى ذلك الوقت مريضاً جدا وكان يعيش فى القرم حيث يشتغل بالتدريس فرمت به الوحدة وتوقع الموت فسمع « لانده » بخبره فآلى أن يذهب إليه وأن ينقذ روحه ، ولم يكن معه مال ولم يكن ثم من

يرضى أن يقرض مجنوناً مشهوراً شيئاً من المال . ولكنه ذهب إليه مع ذلك مشياً على رجليه وبعد أن قطع أكثر من ألف فرسخ قضى نحبه فى الطريق وهكذا ضحى بحياته فى سبيل الناس » .

فصاح سلوفتشك وعيناه تلتمعان : « قل لى هل تقدر عظمة هذا الرجل ؟ » .

فأجابه سانين وعلى وجهه هيئة المفكر : « لقد تحدث الناس عنه كثيراً فى ذلك الوقت . وكان البعض لا يعدونه مسيحياً وينحون عليه لهذا السبب . وقال غيرهم بل هو مجنون لا يخلو من الزهو وأنكر آخرون أن له نصيباً من قوة الروح ولما رأوه يأبى أن يقاتل فقد أنكروا أنه نبى أو فاتح ! أما أنا فرأيى فيه غير ذلك . كان له فى ذلك الوقت أعظم تأثير فى نفسى . حتى لقد لكمنى طالب على أذنى فثار ثائرى وكدت أجن . ولكن لاند كان واقفاً أمامى فنظرت إليه و — لا أدرى كيف حدث هذا ولكنى نهضت دون أن أتكلم وخرجت من الغرفة وأحسست فى أول الأمر شيئاً من الزهو والمباهاة بما فعلت ثم انقلبت أمقت هذا الطالب من أعمق أعماق نفسى لا لأنه لكمنى بل لأن سلوكى معه لابد أن يكون أرضاه كل الرضى ثم اتضح لى شيئاً فشيئاً كذب موقفى وزوره فشرعت أفكر وقضيت أسبوعين وأنا كالذى ضاع عقله وبعد ذلك زايلنى الإحساس بالزهو والمباهاة بهذا النصر الأدبى الكاذب وحدث أن هذا الطالب تهكم على فجلدته حتى غاب عن رشده فأفضى هذا إلى وقوع الجفوة بينى وبين لاند ولقد فكرت فى حياته تفكيراً نزيهاً فألفيتها فقيرة شقية إلى أقصى حد » .

فقال سلوفتشك : « كيف تقول هذا ؟ كيف استطعت أن تقدر ثروة عواطفه الروحية ؟ » .

فأجابه سانين : « إن عواطفه هذه واحدة مملة ولقد كانت سعادته فى حياته فى تقبل كل مصيبة بدون تململ . وأما ثروته كلها فكان قوامها رفض لذات الحياة والمنافع المادية . لقد كان متسولا باختياره وكان شخصاً مضحكاً ذهبت حياته فى سبيل فكرة لم يكن يدركها على صورة واضحة » .

فضرب سلوفتشك كفاً بكف وقال : « إنك لاتستطيع أن تقدر ألمي لسماع هذا الكلام » .

فقال سانين بلهجة المستغرب : « إنك ياصاحبي مضطرب الأعصاب جداً . لم أقل لك شيئاً غريباً فلعل الموضوع مؤلم لك » .

أجاب : « مؤلم جداً . إني دائم التفكير حتى ليخيل إلى أحياناً أن رأسي سينفجر . فهل كان كل هذا خطأ لا أكثر ؟ إني أتلمس طريقي كأني في غرفة مظلمة ولا أجد من يقول لي ماذا أصنع . لماذا نعيش ؟ أجبني » .

فقال سانين : « لماذا ؟ هذا مالا يعرفه أحد » .

أجاب : « ألا نحيا للمستقبل ليفوز الناس في الأجيال الآتية بعصر ذهبي ؟ »

فقال سانين « لن يتأتى هذا العصر الذهبي أبداً . ولو أن الدنيا صلحت والناس صلحوا في لحظة واحدة لكان من المحتمل أن يطلع فجر عصر ذهبي . ولكن هذا مستحيل أن السير في طريق التحسن بطئ . والإنسان لايستطيع أن يرى إلا الخطوة التي أمامه والخطوة التي وراءه مباشرة . ونحن لم نجرب حياة الرقيق الروماني ولا حياة المتوحشين في العصر الحجري ولذلك لانستطيع أن نقدر نعمة مدنيتنا فإذا حدث أن عصراً ذهبياً مر بالعالم فإن أهله لن يجدوا أي فرق بين حياتهم وحياة أجدادهم . إن الإنسان يسير في طريق لاآخر له يعرف وليس من يريد أن يمهد الطريق ويسويها للسعادة إلا كمن يريد أن يضيف أرقاماً إلى اللانهاية » . فسأله سلوفيشك : « إذاً فأنت تعتقد أن كل هذا لامعنى له . وأن كل شيء عبث ؟ »

أجاب سانين : « نعم هذا ما أرى » . فقال سلوفتشك :

« ولكن ماقولك في صديقك لاند ؟ لقد قلت إنك ... » .

فقال سانين بلهجة الجد : « لقد كنت أحب لاند لأنه كان مسيحياً بل لأنه كان مخلصاً ولم يحد قط عن طريقه ولا أرهبته العقبات الكأداء أو السخيفة فأنا كنت أقدره باعتباره شخصية فلما مات لم يعد لقيمته وجود » .

فسأله سلوفتشك: «وهل تظن أن لمثل هؤلاء الناس تأثير فى الحياة يجعلها أنبل ؟ ألا يكون لأمثالهم أتباع أو تلاميذ » .

فقال سانين : « ولماذا تريدون أن تجعلوا الحياة أنبل ؟ قل لى ما الداعى إلى ذلك أولا . واعلم ثانياً — أن المرء لا يحتاج إلى التلاميذ وإنما يكونون كذلك بفطرتهم مثل « لا تد » . لقد كان المسيح رجلا رائعا ولكن المسيحيين نوتية مساكين . وما أجمل فكرته غير أنهم أحالوها شيئاً جامداً لاحياة فيه » .

وتعب سانين من الكلام فسكت ولزم زميله الصمت كذلك وكان السكون عميقاً حولهما والنجوم فوقهما كأنما تديران حديثاً صامتاً لاآخر له . ثم همس سلوفتشك بشيء فزع له سانين وسأله : « ما هذا الذى تقوله ؟ » .

فتمتم سلوفتشك : « قل لى رأيك . لنفرض أن رجلا لم يعد يرى الطريق واضحا وأنه لا يكف عن التفكير وتقطيع قلبه به وأن كل شيء يحيره ويفزعه — فقل لى ألا يكون خيراً له أن يموت؟ » .

فأجاب سانين وقد استشف ما فى ذهن صاحبه: « ربما كان الموت فى هذه الحالة خيرا فإن التفكير وكد الذهن لا طائل تحتهما ولا ينبغى أن يعيش سوى من يجد لذة فى الحياة . أما الشقى فالموت خير له وأرفق به » .

فصاح سلوفتشك : « هذا رأيى أيضاً » ودفع يده إلى سانين وكانت عيناه فى الظلام أشبه شيء بثقبين مظلمين . فقال سانين وهو ينهض : « إنك رجل ميت . وخير مكان للميت هو القبر . الوداع ! » .

وكأنما لم يسمعه سلوفتشك فظل لا يتحرك وتربث سانين قليلا ثم مضى فى بطء . ولما بلغ البوابة وقف وأصغى ولكنه لم يسمع شيئا وقال لنفسه وكأنما يرد على شعور باطن : سواء أن يعيش هذا الرجل أو يموت . وسيموت غدا إذا لم يمت اليوم » .

وأغلق الباب خلفه ومضى هو إلى الميدان فأخذت عينه شخصاً يعدو

وهو يبكى فوقف سانين وبرز من الظلام رجل دنا منه فصاح به : «ما الخبر ؟».

فوقف الرجل هنيهة فرأى سانين جنديا كئيباً فسأله : «ماذا حدث ؟ »
فتمتم شيئاً ثم عدا وهو يعول وغاب فى الظلام كالأشباح فقال سانين :
« هذا خادم سارودين » ثم طاف بذهنه مثل البرق « إن سارودين قد
انتحر » .

فحدق فى الظلام برهة وابترد جبينه ودار عراك وجيز إلا أنه هائل
فى صدر هذا الرجل القوى .

وكانت البلدة نائمة والطرقات عارية والنوافذ كالعيون الفاترة محملقة
فى الظلام فهز سانين رأسه وابتسم وقال بصوت عال : « لا ذنب لى ! » .
ونصب قامته واستجمع قوته وسار — شبحاً رائعاً فى الليل الساكن .

(٣٢)

استفاض فى البلدة الخبر بأن اثنين انتحرا فى ليلة واحدة وكان إيفانوف
هو الذى أبلغ يورى ذلك وكان يورى قد عاد من المدرسة وجلس يصور
أخته لياليا فقال إيفانوف ووضع قبعته على كرسى : « عم صباحا » .

فسأله يورى باسما « أهذا أنت ؟ ما عندك من الأخبار ؟ » .

وكان مزاجه معتدلا ووجهه باشاً ذلك أنه صار مدرساً فقلت حاجته
إلى أبيه وتكفلت اخته المليحة الفتانة بشرح صدره .

فقال إيفانوف وفى عينه نظرة غامضة : «أخبار كثيرة . واحد شنق نفسه
وثان نسف دماغه وثالث استحوذ عليه الشيطان ! »

فصاح يورى : « من تعنى ؟ » .

فأجابه إيفانوف : «إن الكارثة الثالثة مما اخترع خيالى لزيادة التأثير وأما
من حيث الأولى والثانية فالخبر صحيح فقد انتحر سارودين البارحة وسمعت
الساعة أن سلوفتشك شنق نفسه » .

فصاحت ليابيا ونهضت : «مستحيل» ودنا يورى من إيفانوف وقال :
« أهذا مزاح ؟ »

فقال إيفانوف : « كلا ! » وأظهر عدم الاكتراث وإن كان على هذا قد راعه ما حصل . وسأله يورى :

« لماذا انتحر ؟ ألآن سانين لكمه ؟» .

وسألت ليااليا : « هل اتصل الخبر بسانين ؟ » .

فأجابها إيفانوف : «نعم لقد علم سانين البارحة » .

فقال يورى : «وماذا يقول ؟ » .

فهز إيفانوف كتفيه ولم يشأ أن يتحدث مع يورى عن سانين وقال بشيء من الضجر : «لا شيء ! ما شأنه بهذا ؟ » .

فقالت ليااليا : «إنه السبب».

فرد عليها إيفانوف : «ولكن لماذا اعتدى عليه ذلك الأحمق ؟ إن هذا ليس خطأ سانين . والمسألة كلها مما يؤسف له ولكن مرجعها إلى سخافة ساروديين »

فقال يورى : « إنى أظن أن السبب أعمق من ذلك . لقد عاش ساروديين بين زمرة .... » .

فهز إيفانوف كتفيه وقال مقاطعاً : « نعم . وحياته بين هذه الزمرة السخيفة وتأثره بها — دليل قاطع على أنه كان سخيفاً » .

ففرك يورى كفيه ولم يغبث وآلمه أن يبسط إيفانوف لسانه فى رجل مات وقالت ليااليا : « قد أفهم لماذا قتل ساروديين نفسه . فأما سلوفتشك ! لم يخطر لى قط أن هذا محتمل ! هل تعرف السبب ؟ » . فأجابها إيفانوف : « الله أعلم ! لقد كان دائماً شاذاً » . وجاء فى هذه اللحظة ريازانتزيف فى مركبته والتقى بسينا كرسافينا على السلم فصعدا معاً ودخلت سينا أمامه وقالت : « لقد جاء أناتول بافلوفتش من هناك » .

وتبعها ريازانتزيف ضاحكا كعادته وفى يده سيجارة كان يشعلها وهو داخل وقال : « شيء حسن جداً . إذا استمر هذا لم يبق فى المدينة شبان على الإطلاق » .

وجلست سينادون أن تتكلم وكان وجهها الجميل مكتئباً فقال إيفانوف: « قص علينا ما تعرفه » .

فقال ريازانتزيف : «كنت خارجاً البارحة من النادي فاندفع إلى جندي وقال : « قد انتحر سعادته » فوثبت إلى مركبة وذهبت إلى هنالك بأسرع ما أستطيع فألفيت الفرقة كلها تقريباً في المنزل وكان ساروديين على الفراش وعرى ثوبه محلولة » .

فسألته ليالبا وتعلقت بذراعه : « وفي أي موضع أطلق الرصاص على نفسه ؟ » . فقال ريازانتزيف : « في رأسه اخترقت الرصاصة دماغه ونفذت إلى السقف» .

فسأله يوري : «هل كان المسدس من طراز براونج ؟ » .

فقال ريازانتزيف : « نعم . وما أفظع المنظر ! لقد كان الحائط ملوثا بالدم وعليه بعض عظام رأسه وكان وجهه ممسوخا . لقد فعلها سانين ! تالله ما أقوى هذا الشاب ! » .

فهز إيفانوف رأسه موافقاً وقال : « أؤكد لك أنه قوي جداً » .

فقال يوري : « وحش خشن ! » .

فالتفتت إليه سينا وقالت : « رأيي أن هذا ليس بخطأه . ولم يكن من المستطاع أن ينتظر حتى ... » .

فقاطعها ريازانتزيف : « نعم نعم . ولكنه لكمه لكمة فظيعة . لقد تحداه ساروديين ودعاه إلى المبارزة » .

فصاح ايفانوف ضجرا وهز كتفيه : « هذا أنت تهذي » .

وقال يوري : «الحقيقة أن المبارزة لا معنى لها» .

فوافقت سينا « لا شك في ذلك »

ولاحظ يوري أن سينا يسرها أن تنتصر لسانين فقال : « على كل حال هذا ... » وخانته الألفاظ .

فاقترح ريازانتزيف : « عمل وحشي» .

ومع أن يورى لم يكن يعد ريازانتزيف إلا وحشاً آخر فقد سره أن يقدح في سانين أمام سينا . ولكن هــذه لاحظت غيظ يورى فكفت عن الكلام وكانت في الواقع معجبة بقوة سانين وشجاعته ولم تكن مستعدة أن توافق ريازانتزيف على اعتبار المبارزة عملا عادلا . وقال إيفانوف متهكما :

« إن من التمدين ولا شك أن ينسف المرء أنف صاحبه أو أن يبقر بطنه» .

فقال ريازانتزيف : « وهل لكم الوجه خير ؟» .

فقال ايفانوف : « لا شك أنه خير ، أى أذى تستطيع القبضة أن تلحقه بالرجل ؟ إن الجرح يشفى بسرعة . وما من لكمة آذت أحداً أذى بليغاً » .

فقال ريازانتزيف : « ليس هذا في الموضوع ! » .

فقال إيفانوف : « إذاً ماذا فيه من فضلك ! » وزم إيفانوف شفتيه ازدراء . فقال ريازانتزيف : « لقد كاد يفقأ له عينه . وأحسبك لا ترى هذا ضرراً بليغاً ! »

فأجابه إيفانوف : « لا شك أن فقد العين خسارة ولكنه ليس كدخول رصاصة في جسمك . إن فقد العين ليس قاتلا » .

فقال ريازانتزيف شـ « ولكن ساروديين مات ! » .

فقال إيفانوف : « آه ! ذلك إنما كان لأنه أراد أن يموت ! » .

فقال يورى وسرته صراحته : «يجب أن أعترف أنى لم أنته إلى رأى فى هذا الموضوع . ولا أعلم ماذا كنت أصنع لو أنى كنت فى موقف سانين. ولاشك أن المبارزة سخيفة ولكن التلاكم ليس خيراً» .

فقالت سينا : ولكن ماذا يصنع المرء إذا اضطر أن يقاتل ؟ » .

فقال ريازانتزيف : « إن أسفنا يجب أن يكون على سلوفتشك» .

فقالت : «أين شنق نفسه ؟ هل تدرى ؟» .

فقال ريازانتزيف : « فى الخص المجاور لجحر الكلب . أطلقه ثم شنق نفسه » . فخيل ليورى وسينا أنهما يسمعان صوتا عاليا يقول : « ارقد ياسلطان ! » .

ومضى ريازانتزيف فى قصته فقال : «وقد كتب ورقة قبل موته نسختها ، إنها وثيقة إنسانية» . وأخرج من جيبه مذكرته وقرأ : « لماذا أعيش إذا كنت لا أدرى كيف ينبغى أن أعيش ؟ إن أمثالى لا يستطيعون أن يجعلوا أخوانهم سعداء ! » .

فساد سكون رائع وترقرقت عينا سينا واحمر وجه ليالبا وجاشت نفسها وابتسم يورى ابتسامة حزينة والتفت إلى النافذة وقال ريازانتزيف : « هـذا كل مافيها !» .

فقالت سينا وشفتاها ترجفان : «ماذا تريد أكثر من ذلك ؟ » .

ونهض إيفانوف واجتاز الغرفة إلى المنضدة طلباً للكبريت وقال : « إن هذا ليس إلا سخافة » .

فاحتجت سينا وقالت : « ياللعار ! » .

والتفت يورى إليه مشمئزا وقال ريازانتزيف : «لقد كنت دائما أعتقد أن سلوفتشك صبى يهودى سخيف فانظروا الآن ماذا فعل ؟ إنه ليس أجل من الحب الذى يدفع المرء إلى التضحية بنفسه فى سبيل الإنسانية .

فأجابه إيفانوف « ولكنه لم يضح بنفسه فى سبيل الإنسانية .

قال : « نعم . ولكنه يستوى أن ... » .

فقاطعه إيفانوف وفى عينيه لمعة الغضب : « إن الأمرين لايستويان . إنه عمل أبله لاأكثر ولا أقل » فكان لبغضه الغريب لسلوفتشك أسوأ وقع فى نفوسهم . ونهضت سينا وهمست فى أذن يورى « سأذهب أنه لايطاق » .

فزاقق يورى وقال بصوت خافت : «وحش» .

وخرج فى أثر سينا — لياليا وريازانتزيف وجلس إيفانوف برهة يدخن ثم خرج أيضاً . وقال لنفسه وهو سائر فى الطريق يطوح ذراعيه على عادته : « إن هؤلاء السخفاء يظنون أنى عاجز عن فهم مايفهمون ويلذ لى ظنهم هذا ! ألا أنى لأدرى بخواطرهم وإحساساتهم منهم أنفسهم : وأعلم كذلك أنه ليس أجل من الحب الذى يأمر المرء أن يبذل حياته للناس . فإما أن يشنق رجل نفسه لالسبب سوى أنه لا خير فيه لأحد — فكلام فارغ ! .

(٣٣)

كان يورى مطلا من نافذته يشهد جنازة ساروديين وهم سائرون به إلى المقبرة على ألحان الموسيقى الحربية . فرأى الخيل مجللة بالسواد وقبعة الفقيد على غطاء النعش وكانت الأزهار كثيرة وبين المشيعين عدد كبير من السيدات . فأحزنه هذا المنظر .

وفى مساء ذلك اليوم سار مسافة طويلة مع سينا كرسافينا : غير أن جمال عينيها وفتنة محضرها لم ينفضا عنه الكآبة وقال وعيناه إلى الأرض « ماأهول أن يتصور المرء أن ساروديين لم يعد موجوداً ! ضابط وسيم مرح مثله يصبح لاشيء ! لقد كان المرء يخيل إليه أنه سيعيش أبداً وأنه لا يعرف متاعب الحياة وآلامها وشكوكها وأن هذه لن تمسه . فانظرى ! فى صبيحة يوم رائق ذهب كأنه التراب المكنوس بعد أن عانى تجربة عظيمة لايدرى بها سواه . والآن قد مضى ولن يعود أبداً . أبداً . ولم يبق منه غير القبعة على النعش ! » .

وسكتت وكانت سينا تصغى إليه ويداها تعبثان بمطلتها ولم تكن تفكر فى ساروديين بل كان قربها من يورى مثار لذة حادة لها غير أنها مع ذلك شاطرته كآبته وقالت : « نعم أن الأمر محزن وهذه الموسيقى أيضاً ! » .

فقال يورى بلهجة التأكيد : « لست ألوم سانين . فما كان يسعه أن يفعل غير مافعل . وأقطع ما فى الأمر أن طريقى هذين الرجلين تعارضا وصار لابد لأحدهما من أن يخلى الطريق للثانى . ومما هو فظيع أيضاً أن المنتصر لايدرك أن نصره مروع : « يزيل رجلا من فوق ظهر الارض فى مكون ويكون مع ذلك على حق» .

فقال : « نعم إنه على حق . . . . . » ولم تكن قد سمعت كل ماقاله يورى وجعل صدرها يعلو ويهبط فصاح يورى ،قاطعاً وهو ينظر إلى جمال جسمها ووجهها : « ولكنى أقول إن هذا فظيع ! » . فسألته سينا بصوت رقيق واحمر وجهها فجأة وفقدت عينها لمعتها : « لكن لماذا ؟ » .

فأجابها يورى : « غير سانين كان حقيقا أن يندم أو أن يعانى شيئاً من ألم الروح ولكنه لم يظهر أى دليل على ذلك وكل ما قاله هو أنى أسف جداً ولكن هذا ليس خطأى . خطأ حقا ! كأنما كانت المسألة مسألة خطأ أو ملامة ! » .

فسألته سينا : « إذن ماذا هى ؟ » وارتجف صوتها واطرقت مخافة أن تؤلم رفيقها فقال « هذا مالا أعرفه . ولكن الإنسان لاحق له فى أن يكون مثل الوحش فى اخلاقه » .

وسارا مدة فى صمت وآلم سينا مابينهما من الجفوة الوقتية وأسفت لانقطاع هذه الصلة الروحية التى لم يكن أعذب منها ولا أحلى وراح يورى يظن أنه قصر فى أيضاح خواطره فجرح هذا الظن إحساسه بكرامته .

ثم افترقا وكانت سينا مكتئبة متألمة ولاحظ يورى اكتئابها فسره كأنما انتقم لنفسه من إهانة شخصية . وزاد سوء خلقه لما صار فى البيت . وقصت ليالبا على المائدة ماقاله لها ريازانتزيف عن سلوفتشاك. وخلا يورى بنفسه فى غرفته وشرع يصحح كراسات تلاميذه ويحدث نفسه : « ماأعظم نصيب الانسان من

الوحشية ! وهل مثل هذه الوحوش البليدة تستحق أن يموت في سبيلها المرء ؟»
ثم خجل من عدم تسامحه وقال إنهم غير ملومين ! ولا يعرفون ما يفعلون .
وسواء عرفوا أم لم يعرفوا فهم وحوش ولا شيء غير ذلك ! »

ثم كرت خواطره إلى سلوفتشك فقال « ماأشد وحدتنا في هذه الدنيا !
هذا سلوفتشك كان بين ظهرانينا ، عظيم القلب مستعداً أن يبذل كل تضحية
في سبيل غيره . ومع ذلك لم يحسه أحد ولاقدره أحد . بل الواقع أننا كنا
نحتقره . وذلك لأنه لم يكن يحسن العبارة عن نفسه ولم يكن لرغبته في ارضاء
الناس من أثر سوى إسخاطهم وإن كان في الحقيقة قد حاول أن يوثق صلاته
بنا وأن يساعدنا . ألا لقد كان قديساً نظنه قدماً غبيا ! »

واشتد ندمه حتى لترك عمله وجعل يقطع الغرفة ثم جلس إلى المنضدة
وفتح الانجيل وقرأ فيه « كما تنفد السحابة وتغيب كذلك من يهبط إلى الأرض
لايصعد أبدا . ولا يعود إلى بيته لا ولا يعرفه مكانه بعد ذلك » .

ثم قال : « ماأصدق هذا وأحكمه ! حتم قاطع ! هذا أنا أعيش ويلج بي
الظمأ إلى الحياة واللذات . ثم أقرأ هذا القضاء المبرم ولا يسعني حتى أن أحتج
عليه ! »

ثم ثار يأسه فأمسك بجبينه وناشد القوة الخفية « ماذا جنى الانسان عليك
حتى تسخرين منه هذا السخر ؟ إذا كنت موجودة فلماذا تخفين نفسك عن
عينه ؟ لماذا تجعلينني إذا آمنت بك لا أؤمن بإيماني ؟ وإذا أجبتني كيف أعرف
أأنت المجيبة أم نفسي ؟ وإذا كنت على حق في رغبتي في الحياة وطلبي لها فلماذا
تسلبينني هذا الحق الذي منحتني إياه ؟ إذا كانت بك حاجة إلى آلامنا فدعينا
نحبها من أجل حبنا لك . ولكنا لا نعرف أيهما أعظم قيمة الشجرة أم
الانسان » .

« ان الشجرة دائمة الامل . اذا قطعت استطاعت أن تقوم مرة أخرى وان تسترد الخضرة وتفوز بحياة جديدة أما الانسان فيموت ويزول . يرقد فلا ينهض كرة أخرى ولو أنى كنت على يقين من أنى سأحيا مرة ثانية بعد ملايين السنين لرضيت أن أنتظر فى صبر كل هذه القرون فى الظلام »

ثم قرأ :

أى ربح يجنيه الانسان من كل تعبه تحت الشمس ؟ جيل » « يمضى وجيل غيره يأتى ولكن الارض تبقى الى الابد . » « والشمس أيضاً تطلع وتنحدر وتسرع الى مكانها الذى طلعت » « منه والريح تهب صوب الجنوب ثم تكر الى الشمال وتدور أبدا » « ماراًيناه أمس نراه اليوم وسنراه غدا . لا جديد تحت الشمس » « ليس ثم ذكرى لما مضى . ولن تكون ثم أى ذكرى لما سيأتى » « فى نفوس من سيتلوننا » « أنا الواعظ كنت ملكا على بنى اسرائيل فى أورشليم »

ولما وصل الى هذه الجملة رفع بها صوته مغضباً يائساً ثم تلفت حوله مخافة أن يكون قد سمعه أحد ثم تناول ورقة وشرع يكتب : « ابدأ هذه الوصية التى تنتهى حياتى بانتهائها . . . »

ثم قال : « رباه ! ماأسخف هذا ! » ودفع الورقة بعنف فسقطت على الارض ثم عاد فقال : « ولكن ذلك المسكين الشقى سلوفنشك لم ير من السخافة أنه يعجز عن فهم معنى الحياة ! »

ولم يفطن يورى الى انه يتمثل برجل يصفه بأنه مسكين شقى . « وعلى كل حال فهذا مصيرى عاجلا أو آجلا لامفر من ذلك ! ولكن لماذا ؟الآن ..»

ووقف . وخيل اليه ان الجواب الدقيق المضبوط حاضر ولكن الالفاظ تنقصه . وكان ذهنه قد تعب واضطربت خواطره وقال : « لماذا لم أمت وأنا طفل لما مرضت بالتهاب الرئتين ؟ اذا لاوتحت ! » . وارتعد لهذا الخاطر « ولو حدث هذا لما رأيت ولاعرفت ما أعرف الآن . وهذا فظيع أيضا»

ورد رأسه الى الوراء ونهض « ان هذا كفيل بأن يجن المرء »

ومضى إلى النافذة وحاول أن يفتحها ولكن مصراعيها كانا مقفلين من الخارج فاستخدم قلما وفتحهما ودخل الهواء البارد فنظر إلى السماء ورأى ضوء الفجر فى الأفق . وكان الفجر وضيئا ونجوم الدب الأكبر السبعة بادية وفى الشرق المتوهج يومض كوكب الصباح . وهب نسيم عليل فحرك أوراق الشجر ومزق الضباب الذى كان يحجب صفحة الغدير حيث الأزاهر يانعة . وكانت السماء موشاة بالسحب والنجوم هنا وههنا تتلامح . وكل شىء جميل رائع كأنما كانت الأرض تتأهب لاستقبال الفجر .

ثم انقلب إلى فراشه ولكن الضوء حال بينه وبين النوم فظل مستلقياً ورأسه موجع وعيناه مفتوحتان كمغمضتين .

— ٣٤ —

خرج إيفانوف وسانين فى صباح ذلك اليوم مبكرين وكان الطل يومض فى أشعة الشمس والدجاج يدلفون إلى الدير وكانت نواقيسه تدق وتجلجل والريح تحمل أصواتها على السهوب إلى الغابات الحالمة فقال إيفانوف « لقد بكرنا » فتلفت سانين حوله مغتبطاً مسروراً وقال : « إذا فلنجلس قليلا » فجلسا على الرمل وأشعلا سيجارتين وكان الفلاحون السائرون وراء مركباتهم يتلفتون لينظروا إليهما والنساء والبنات يشرن ويتضاحكن ولم يلتفت إيفانوف إلى شىء من هذا ولكن سانين كان يبتسم ويهز رأسه لحن .

ثم بدا على سلم بيت صغير أبيض سقفه أخضر لامع صاحب خمارة « الكرون » وهو رجل طويل قصير كمى القميص وفتح الباب وهو لا يكف عن التثاؤب ودخلت فى أثره امرأة على رأسها منديل أحمر فقال إيفانوف : « دعنا ندخل » ففعلا واشتريا قليلا من الفودكا وبعض النقل والخضر والخبز . فقال إيفانوف لما رأى سانين يخرج حربانه « كيسه »

« آها ! ان مالك كثير على ما يظهر ياصديقى »

فقال سانين ضاحكا : « لقد أخذت دفعة مقدما . وذلك أنى على

تقيض رغبة أبى قبلت أن أكون سكرتيراً لشركة تأمين وبهذه الطريقة استطعت أن أظفر بشيئين : قليل من المال . واحتقار أبى »

ولما صارا فى الطريق مرة أخرى قال إيفانوف : « أوه ! إنى أشعر إنى الآن أحسن وأسعد ! »

فقال سانين : « وكذلك أنا . وما قولك فى أن نخلع نعالنا ؟ »

فقال إيفانوف : « حسن جداً »

وخلعا نعالهما وجواربهما وسارا حافيين على الرمل البليل الدافىء واستلذا ذلك بعد أن نزعا أحذيتهما الثقيلة . وقال سانين وتنفس تنفساً عميقاً « بديع أليس كذلك ؟ »

وكانت الشمس قد زادت حرارتها وهما ماضيان عن البلدة صوب الأفق الأزرق وكانت الأطيار على أسلاك التلغراف ومر بهما قطار ركاب ، مركباته خضراء وصفراء وزرقاء ووجوه الركاب المتعبين مطلة من نوافذها وفى آخر مركبة منه فتاتان جميلتان جعلتا تتأملان هذين الحافيين وفى عيونهما أمارات الدهشة فضحك منهما سانين وارتجل رقصة عنيفة .

ورأيا على كثب منهما مرجا ترتاح القدم إلى السير على نجائله فقال إيفانوف : « ما أبدع هذا »

فقال صاحبه « إن الحياة اليوم تستحق أن تحيا » فنظر إيفانوف إلى سانين وخطر له أن هذه الكلمات تذكره بسارودين وبالمأساة الأخيرة ولكن خواطر سانين كانت على ما يظهر أشد ما تكون انصرافا عن هذا فعجب إيفانوف إلا أن ذلك لم يسوءه .

واجتازا المرج إلى السكة الكبرى الحاشدة بالفلاحين ومركباتهم وفتياتهم ثم بلغا الأشجار ومن ورائها النهر وإلى ناحية أخرى الدير قائما على تل وفوقه صليب يلتمع كالنجم المتوهج . وكانت على الشاطىء زوارق موشاة فاستأجرا منها واحدة وكان إيفانوف يحسن التجديف فانطلق الزورق

يشق الماء ويفرق تياره وكانت المجاديف ربما لمست أعشاباً أو أغصاناً غائصة إلى قريب من رءوسها فتظل تضطرب وترتعش على سطح الماء بعد كل لمسة . وكان سانين يجدف بحدة حتى صار الماء يرغي ويزبد ويتدفع حول الدفة . وبعد لأى مابلغا مكاناً ظليلا بليلا وكان الماء من الصفاء بحيث يستطيع المرء أن يرى قاعه وما فيه من الحصى والأسماك فقال إيفانوف « هذا مكان يحسن أن ننزل فيه » فدفعا الزورق إلى الشاطىء ووثبا عنه وقال سانين « لن تجد خيراً من هذا المكان ! » وغاص إلى ركبتيه فى الحشائش فقال إيفانوف « كل مكان حسن تحت الشمس » وجاء بالشراب والخبز والخضر ووضع كل ذلك على الحشائش تحت شجرة ثم استلقى وكانا قد نسيا الأكواب فتسلق سانين شجرة وقطع غصناً وقور جزءاً منه اتخذه كأساً فقال إيفانوف وكان يراقب سانين باهتمام « ولنستحم بعد ذلك » فقال سانين « فكرة حسنة » وقذف الكأس فى الهواء والتقطها ثم جلسا ووقعا على الشراب والطعام ولما أصابا كفايتهما قال إيفانوف « لاأستطيع أن أنتظر الآن . وسأذهب إلى الماء لأستحم » وخلع ثيابه ولما كان لايحسن السباحة لقد اختار موضعاً قريب الغور وكان سانين يراقبه ثم نضا عنه ثيابه فى بطء وهدوء واندفع إلى أعمق مكان فى النهر فصاح به إيفانوف « حاذر أن تغرق » فضحك سانين وقال « لا تخف » بعد أن طفا على وجه الماء وكان الجو يتجاوب بأصواتهما الطروبة ثم خرجا من الماء ورقدا على الحشائش وهما عاريان وجعلا يتقلبان فوقها ثم صاح إيفانوف « هورا » وشرع يرقص رقصا عنيفاً خشنا فضحك سانين ووثب إلى قدميه وانطلق يرقص مثله وكان جسماهما يلتمعان فى ضوء الشمس وكل عضلة ظاهرة ثم كف إيفانوف وقال لصاحبه « تعالى وإلاشربت كل مابقى من الفودكا » فلبسا ثيابهما وأتيا على مابقى من الطعام والشراب وتمنى ايفانوف شربة ماء مثلجة . وقال « دعنا نعود » فراحا يعدوان بأسرع مايستطيعان إلى الشاطىء وانحدرا إلى الزورق ودفعاه .

ثم قال سانين وكان راقداً فى قاع الزورق « ألا تحس لسع الشمس ؟ فأجابه إيفانوف « هذا نذير المطر فانهض وجدف بالله » .

فقال سانين « انك قادر على هذا وحدك » فضرب إيفانوف الماء بالمجدافين ضربة أطارت الرشاش إلى سانين فقال « أشكرك » وورا عوضع تكسوه الخضرة فسمعا ضحكاً وأصوات فتيات مرحات فقال إيفانوف « فتيات يستحممن » فاقترح سانين « دعنا نذهب ننظر إليهن .. » فقال إيفانوف « ربما أبصرننا » .

أجاب سانين « كلا لن يستطعن . وفى وسعنا أن ننزل هنا وأن ندخل بين الحشائش » فخجل إيفانوف وقال « دعهن » .

فأجابه « تعال » فقال ! « لست أحب أن ... »

فأجابه « لست تحب ماذا ؟ » .

فقال « انهن فتيات .. صغيرات .. ولا أظن هذا يجمل بنا » أجاب سانين « أنك مجنون . هل تريد أن تقول انك لاتشتهى أن تراهن ؟ » فقال إيفانوف « ربما كنت أشتهى ولكن » .

أجاب سانين « إذن فلنذهب إليهن ودع عنك هذا الحياء الكاذب من ذا الذى لايفعل مانفعل إذا أتيحت له الفرصة ؟ » .

فقال إيفانوف « ولكنك إذا كنت تذهب إلى هذا فلماذا لا تراقبهن علنا ؟ لماذا تختفى ؟ »

أجاب سانين مسروراً « لأن الاختفاء ألذ وأمتع » .

قال « ربما كان كذلك ولكنى أنصح لك ... »

أجاب « احتراما للعفاف على ما أظن ؟ ؟ » قال « نعم » .

أجاب « ولكن العفاف هو عين ماينقصنا » .

فقال إيفانوف « إذا أذنبت عيناك فاقلعها » .

فصاح سانين « أوه ! أرجوك إن تكف عن هذا الكلام الفارغ وأن لا تكون مثل يورى . أن الله لم يعطنا عيوننا لنقلعها » فابتسم

إيفانوف وهز كتفيه وقال سانين وأدار الدفة بحيث يمضى الزورق إلى الشاطىء « اسمع يافتى ! إذا رأيت فتيات يستحممن ولم يحرك منظرهن فى نفسك أية شهوة كنت فى حل من أن تدعى العفاف . ومع أنى آخر من يحاكيك فى ذلك فإن مثل عذائك هذه تفوز عندئذ بإعجابى واحترامى ، فأما وقد فطرنا على هذه الشهوات الطبيعية فإن محاولة خنقها تكون رياء ونفاقاً » .

فقال إيفانوف « إن هذا حسن ولكن إذا لم يكن ثم كابح للرغبات وجماح الشهوات أفضى الأمر إلى الشر » .

فأجابه سانين متهكما « أى شر يا ترى ؟ إن للشهوانية آثاراً سيئة أسلم لك بها ولكن هذا ذنب الشهوانية » .

فقال إيفانوف « ربما كان الأمر كذلك ولكن ... »

فقاطعه سانين قائلا « حسن جداً إذا فهل تأتى معى ؟ »

أجاب « نعم ولكنى ... » قال سانين وهما يتسللان وسط الحشائش والأعشاب « مغفل ! هذا أنت ! اتئد ترفق . لا تحدث هذا الصوت » فقال إيفانوف بحماسة « انظر هنا ! يأمل ! » وكان ظاهراً من الثياب والقبعات المكومة على الحشائش أن السابحات أتين من البلدة وكانت بعضهن تضرب بيدها مرحة فى الماء وكانت قطراته تنزل كالفضة عن أعضائهن اللينة الناعمة . وكانت إحداهن واقفة على الشاطىء طلقة وضاحة والشمس تضاعف جمال جسمها الذى كان يهتز وهى تضحك ! .

فقال سانين وفتنه هذا المنظر « تأمل هذا ! »

ففزع إيفانوف متراجعا وسأله سانين « خطيبك ؟ »

فأجابه « أنها سينا كرساڤينا ! »

فقال سانين : « نعم هى بعينها . ولكنى لم أعرفها . ما أفتن جمالها ! »

فقال إيفانوف « نعم هى كذلك ! »

وعلت الأصوات وكثر الضحك فى هذه اللحظة فعلما أن الفتيات قد سمعتهما وفزعت سينا فألقت بنفسها فى الماء ولم يعد باديها منها سوى

وجهها الوردى وعينيها اللامعتين . وقفز سانين وصاحبه إلى الزورق وقال سانين لها باهاه «ما أحسن أن يكون الإنسان حيا !» ومط جسمه وغنى فتجاوب الفضاء بصوته الرنان الصافى وكانت ضحكات الفتيات لاتزال تسمع فتطلع إيفانوف إلى السماء وقال «ستأخذنا السماء» وأظلمت الأشجار واكفهر الأفق وارتمت الظلال الحالكة على المروج فقال إيفانوف «يجب أن نعجل بالهرب..»

فقال سانين وهو مغتبط «أين ؟ إنه لا مفر لنا الآن !» .

وركدت الريح وزاد السكون والجهامة فقال إيفانوف «سيغمرنا المطر فأعطنى سيجارة أتسلى بها» .

وأشعل عوداً من الكبريت كان ضوءه كابيا فى هذه الظلمة فثارت هبة من الريح مباغتة فأطفأته وسقطت قطرة كبيرة فى الزورق وأخرى على جبين سانين ثم هطل المطر وخشخشت الأشجار وكان للقطر وهو ينهل على النهر صوت الصفير وفتحت ميازيب السماء ولم يعد يسمع إلا صوت تدفق المطر فقال سانين «بديع هذا أليس كذلك ؟» وحرك كتفيه وكان القميص قد لصق بهما فقال إيفانوف «ليس بالسيء جداً» وتجمع فى قاع الزورق .

وما لبث المطر أن انقطع وإن كانت السحب لم تنقشع بل ظلت مكدسة وراء الغابة حيث كانت ترسل سهاما من البرق إلى حين فقال إيفانوف «يجب أن نرجع» فوافق سانين وخرجا بالزورق فى وسط التيار وكانت السحب السوداء الكثيفة معلقة فوقهما والبرق لا يكف عن الإثخان فى كبد السماء . ولم يكن ثم مطر ولكن الإحساس بالرعد كان شديدا فى الجو وجعلت الطيور تختطف فى الجو فوق سطح الماء وهى مبتلة الريش فصاح إيفانوف «هو هو !» .

ثم نزلا وسارا على الرمال وكان الظلام قد اشتد وجعلت السحب تدنو وتسف هيادبها إلى الأرض وهبت الريح فجأة فثارت زوابع من التراب وأوراق الأشجار ثم جلجل الرعد فكأنما انفطر كبد السماء وتعاقب البرق

والرعد فصاح سانين « أو هو ! هو هو » كأنما يريد أن يعلو صوته ضجة الطبيعة ولكنه لم يكن يسمع حتى صوته ..

وبلغا الحقول وكان الظلام قد أسدف والبرق يضيء لهما طريقهما ولم ينقطع الرعد . فصاح سانين « أوه ! ها ! هو ! » .

فسأله إيفانوف « ما هذا ؟ » .

وفي هذه اللحظة أضاء البرق فلمح ايفانوف وجه سانين وكان متوقداً هاشاً ثم أضاء مرة أخرى فإذا سانين مفتوح الذراعين يناجي العاصفة ... !

— ٣٥ —

كانت الشمس مضيئة والجو ساكنا صافيا إلا أن فيه ريح الخريف وكان يوري يتمشى في الحديقة . وهو غارق في خواطره ينظر إلى السماء وإلى الأوراق الخضراء والصفراء وصفحة الماء المصقولة وكأنه يودعها ويريد أن يعلق صورها بذاكرته حتى لايعفى عليها النسيان . وكان يحس شيئا من الكمد كأن كل ساعة تمضي بشيء ثمين لا سبيل إلى استرداده — شبابه الذي لم يغتبط به ومكانه باعتباره رجلا نافعاً عظيماً في العمل الذي وقف عليه كل حماته . ولم يكن يدري كيف الخلل . وكان مقتنعا بأن له قوى كامنة يسعها أن تقلب العالم وعلما واسعا لا يدانيه عقل سواه غير أنه لم يكن يعرف تعليلا لاقتناعه هذا وكان يخجل أن يصارح به حتى أصدق أصفيائه .

وقال وهو يتأمل ظلال الأشجار في الماء « آه ! حسن . لعل ما افعل الآن هو أحكم ما يمكن . والموت يعفي على كل شيء مهما عاش المرء أو حاول أن يعيش . آوه ! هذه ليالينا آتية ! ما أسعدك ياليالينا إناث تعيشين كالطائر من يوم إلى يوم لا تطلبين شيئا ولا ينغص عليك حياتك شيء ! ألا ليتني أستطيع أن أحيا حياتها ... ! » .

على أن هذا لم يكن إلا خاطراً زائلا لأنه لم يكن في الحقيقة يتمنى

أن يعتاض من آلامه الروحية هذا الوجود الضيق الذى يتمثل فى شخصية ليااليا.

ونادته ليا « يورى ! يورى ! » بصوت عال وإن لم يكن بينهما إلا ثلاث خطوات وضحكت بخبث ورمت إليه برسالة وردية اللون فتوقع يورى أمراً وسألها بحدة « ممن ؟ » .

فقالت ليااليا « من سينوتشكا كرسافينة » وهزت له إصبعها .

فصار وجه يورى كالجمرة المتقدة وخيل إليه أن من الحمق إن لم يكن من السخافة المطبقة أن يتلقى رسالة وردية اللون معطرة عن طريق أخته . وكربه ذلك جداً وانطلقت ليااليا وهى سائرة بجانبه تتحدث عن حبه لسينا على عادة الأخوات اللواتى يعنيهن معاشق إخوتهن وجعلت تصف له حبها لسينا ومبلغ سرورها إذا تزوج منها وما كادت تفوه بكلمة الزواج المنحوسة حتى احتقن وجه يورى وطار الشر من عينيه وتمثلت له الصورة المبتذلة المألوفة البيت والزوجة والبنون وكان لا يفزع من شيء فزعه من أن يكون له بنون .

فقال بصوت حاد أذهل أخته : « كفى هراء من فضلك ! »

فأجابته مغضبة : « مالك تكبر الأمر إلى هذا الحد ؟ وماذا يهم إذا كنت عاشقا ؟ إنى لا أفهم لماذا تتظاهر بأنك بطل غريب ؟

وكان فى الجملة الأخيرة أثر من المكايدة النسرية فنفذ السهم إلى القلب وما كادت تفرغ من الكلام حتى انصرفت عنه ودخلت البيت .

فجعل يورى يراقبها والغضب يتطاير من عينيه وهو يفض غلاف الرسالة وكان هذا ما فيها : —

« عزيزى يورى

إذا سمح لك الوقت وآتتك الرغبة فإنى أنتظر أن أراك اليوم فى كنيسة الدير وستكون معى عمتى وستظل فى الكنيسة الوقت كله . وأخشى أن يفضحنى المال ويودى أن أحدثك عن شئون كثيرة . فوافنى هنالك . ولعلى أخطأت فى الكتابة إليك ولكنى على كل حال فى انتظارك » .

فطار فى لحظة واحدة كل ما كان يشغل خراطره ويكظ ذهنه وجعل يتلو الرسالة مرة بعد أخرى فرحا مسرورا فقد كشفت هذه الفتاة الطاهرة الفتانة بجملة واحدة عن سر حبها له فكأنها جاءت إليه بجودها الحب وبذلت له نفسها وأحس أن غايته دنت فأخذته الرعدة لما تصور أنه مالكها وحاول أن يبتسم متهكما ولكن جهده ذهب عبثا فقد شاعت الغبطة فى نفسه حتى أحس أنه كالطائر يستطيع أن يحلق فوق رؤوس الأشجار ويسبح فى الهواء المشمس تحت السماء الزرقاء .

ولما همت الشمس بالمغيب اكترى مركبة إلى الدير وكان دونه النهر فركب زورقا عبر به إلى الشاطىء الآخر ولم يشعر إلا وهو فى عرض النهر إن سعادته منبعثة من تلك الرسالة الوردية فقال يحدث نفسه : « الأمر بسيط ، لقد عاشت عمرها فى دنياها هذه . وإنها لرواية غرامية ريفية . وماذا إذا كانت كذلك ؟ » .

وكان الماء يضرب جانبى الزورق فى رفق وهو يدنو من التل الأخضر وما كاد يصل إليه حتى أنقد الملاح نصف روبل ثم شرع يصعد التل وكانت الشمس قد دلفت إلى مغربها وانبسطت الظلال عند سفح المنحدر وتصاعد الضباب الكثيف فخفيت وراءه ألوان الأشجار وكان فناء الدير ساكنا جليلا والأشجار كأنها تصلى والرهبان يروحون ويغدون كالأشباح والمصابيح تضىء فوق باب الكنيسة ورائحة البخور ساطعة .

وناداه صوت من ورائه « مرحبا بك يا يورى ! » .

فالتفت فإذا شافروف وسانين وايفانوف وبيتر الياتش يجتازون الفناء ويتحدثون بصوت عال والرهبان ينظرون إليهم وجلين — حتى الأشجار عادت وكأنما فقدت شيئا من سكون العبادة . فقال شافروف ودنا منه وكان يجل يورى « لقد حضرنا جميعا » . فقال يورى : « نعم . أراكم » .

فسأله شافروف : « ألا ترافقنا ؟ » ودنا منه .

فأجابه يورى : «كلا ! أشكرك ! إنى مرتبط بموعد» .

فصاح إيفانوف : «أوه ! هذا حسن ! سترافقنا . إنى أعرف ذلك» وأمسك بذراعه . فحاول يورى أن يتخلص وصاح : «كلا ! لعن الله هذا ! لا أستطيع . ربما لحقت بكم فيما بعد» .

ولم ترقه خشونة إيفانوف . فقال هذا «حسن . سننتظرك فلا تنس أن توافينا» .

فافترقوا وعادت السكينة فخيمت على الفناء فخلع يورى قبعته ودخل الكنيسة وبه حياء وزراية ووقعت عينه على سينا على مقربة من أحد العمدان فأسرعت دقات قلبه وما كان أحلاها وأفتنها وأجمل شعرها الأسود المجموع إلى جيدها الأتلع وكأنما شعرت بنظرته فتلفتت حولها والتمعت فى عينيها الغبطة والحياء .

فقال يورى بصوت خفيف «كيف أنت ؟» ولم يدر أيصافحها فى الكنيسة أم يمتنع عن ذلك وتلفت كثيرون من الحضور فقلق يورى بل لقد شعر بخجل ولمحت سينا خجله فابتسمت له ابتسامة الأم وفى عينيها نور الحب ويورى واقف هنالك سعيدا طائعا . ولم ترم إليه سينا بنظرة أخرى بل جعلت ترسم الصليب على صدرها بحماسة وورع ولكن يورى كان على يقين من أنها تفكر فيه فكان يقينه هذا بمثابة عروة سرية وثقت ما بين قلبيهما فاضطربت دماؤه فى عروقه وبدا له كل شيء عجيبا خفى الأمر — قلب الكنيسة والتراتيل والأضواء وزفرات المتعبدين ووقع أقدام الداخلين والخارجين — كل ذلك لاحظه يورى وكان يسمع فى هذا السكون العميق خفقان قلبه وهو واقف لا يتحرك وعيناه قيد سينا وقدها وكأنما كان يجب أن يقول لكل إنسان أنه لا يؤمن بالصلاة ولا التراتيل ولا الأضواء ولكنه مع ذلك لا يقاومها فأفضى به هذا إلى المقارنة بين غبطته الحالية والكآبة فى صبيحة هذا اليوم . .

وسأل نفسه «إذا فالمرء يستطيع أن يكون سعيداً ؟ لا شك أن كل

آرائى الخاصة بالموت وعبث الحياة منطقية ولكن الإنسان يستطيع على رغمها جميعاً أن يسعد ويهنأ . وإذا كنت سعيدا فإن ذلك من فضل هذه الفتاة الجميلة التى لم أرها إلا منذ زمن قريب

ثم خطر له فجأة أنهما ربما كانا قد التقيا وهما طفلان ثم افترقا ولم يكن أحد منهما يحلم بأن سيعشق الآخر ولا بأنها ستبذل له نفسها وهى عارية مشرقة . فاحمر خداه وخاف أن ينظر إليها . وكانت سينا — التى عراها خياله — واقفة أمامه فى قميصها الرمادى وقبعتها المستديرة تدعو الله أن يجعل حبه لها عميقاً كحبها له ويظهر أن حشمتها العذرية وقعت من نفس بورى فقد زايلته خواطره الشهوانية واغرورقت عيناه بالدموع فرفعهما وناجى ربه :

« رب إن كنت موجودا فاجعل هذه العذراء تحبنى واجعل حبى لها عظيما أبدا »

ثم قال لنفسه وقد أخجلته عاطفته « ان هــذا كله كلام فارغ » وهمست فى أذنه سينا أن « تعال » وكان صوتها كأنه الزفرة ومضيا إلى الفناء وخرجا من الباب الصغير المفضى إلى سفح الجبل ولم يكن ثم أحد فكأن السور العالى قد حجبهما عن عالم الرجال وكانت غابة البلوط تحت أرجلهما والنهر هناك يلتمع كأنه مرآة من الفضة فتقدما إلى حافة المنحدر وكلاهما يشعر أن عليه أن يفعل شيئاً ولكن الشجاعة تنقصه . ثم رفعت سينا رأسها فالتقت شفتاها وشفتا بورى فاضطربت واصفرت وهو يحتضنها وأحست لأول مرة أن جسمها الدافىء اللين بين ذراعيه . ودق ناقوس فى هذا السكون فخيل لبورى أنه إيذان بالاحتفال بهذه اللحظة التى وجد فيها كل منهما صاحبه ثم ضحكت سينا وتخلصت منه وقالت « ستعجب عنى من ماذا أصنع ! انتظر هنا فسأعود إليك » ولقد ظل بورى لا يدرى أقالت ذلك بصوت عال تجاوبت بأصدائه الغابة أم سبحت إليه الألفاظ كالهمسة

على أجنحة النسيم فجلس على الحشائش وسوى شعره وسمع سينا تقول :

« إنى آتية يا عمتى ! »

— ٣٦ —

تجهم الأفق ثم خفى النهر وراء الضباب وحملت الريح من المراعى صهيل الخيل هنا وهناك وتوامضت الأضواء الضعيفة . وكان يورى جالساً ينتظر أن تعود سينا فجعل يعد هذه الأضواء :

« واحد . اثنان ثلاثة . آوه . أن هناك رابعاً عند طرف الأفق كأنه النجم الضئيل . والفلاحون جالسون حوله يصنعون طعامهم ويتحدثون . أما النار التى هناك فقرية عالية اللهيب والخيل إلى جانبها تنفخ ولكنها ليست مع هذا البعد إلا شعلة ضئيلة قد تخمد أو تغيب فى أية لحظة »

وصعب عليه أن يفكر فى شيء ما لأن إحساسه بالسعادة والهناء استغرق كل مشاعره وكان ربما تمتم من حين إلى حين تمتمة الفزع « ستعود حالا . »

وهكذا ظل ينتظر على قمة التل ويصغى إلى الخيل وصيحات البط فيما وراء النهر وإلى الف شيء آخر عرضى مما يحمله إليه النسيم عن الغابة . ثم سمع وقع أقدام تسير وراءه وحفيف ثوب تعبث به الريح فعلم وإن كان لم يلتفت أنها هى قد جاءت فارتجف لما تصور ما عسى أن يحدث . ووقفت سينا ساكنة بجانبه وأنفاسها معلقة فأمسك بها يورى وحملها بين ذراعيه وسرته جرأته وانحدر بها إلى سفح التل وكادت قدمه تزل فأسرت إليه « ستقع » واحمر وجهها وهى على هذا مغتبطة . وكان الظلام طاغيا فوضع يورى سينا وجلس إلى جانبها ولما كانت الأرض منحدرة فإنهما كانا كالمستلقيين جنباً إلى جنب فألصق يورى فمه بفمها فى قبلة عن آخر عاطفة وأجنحتها ولم تتأوب أو تتمنع ولكنها كانت تضطرب اضطرابا عنيفا .

ثم تمتمت وهي تلهث وكان صوتها خافتاً كأنه همسة من الغابات : «أتحبني ؟» . فسأل يوري نفسه وهو ملهوف « ماذا أنا صانع » .

فجاء هذا الخاطر كالثلج وحار كل شيء في لحظة وصار كثمار الشتاء تنقصه القوة والحياة وكانت عينا سينا تستجوبانه وتحاولان أن تستشفا من وجهه ما انطوت عليه ضلوعه فلما رأت محياه وتغير سحنته تراجعت عنه وتخلصت من عناقه وصار صدر يوري ميداناً للعواطف المتدافعة . فأحس أن التراجع سخيف وشرع من جديد يلاطفها في فتور وضعف وهي تقاومه بمثل فتوره وبروده وعاد الموقف وليس أسخف منه في نظر يوري فأخلى سبيلها وكانت تلهث كالطريدة .

وساد سكون أليم ثم قال فجأة : « عفوا ... لا بد أني جننت ! » . فأسرعت أنفاسها وخطر له أنه لم يكن ينبغي أن يقول هذا الكلام الذي لابد أن يكون قد آلمها وجرح نفسها فأخذ على غير إرادته يعتذر بما يعلم أنه كاذب مزيف ولم تكن له إلا رغبة واحدة هي أن يعود أدراجه لأن الموقف صار لا يحتمل .

ويظهر أنها حست ذلك فقد قالت : « ينبغي ... أن أذهب » .

فنهضا ولم ينظر أحد منهما إلى صاحبه وحاول يوري للمرة الأخيرة أن يوقظ نائمة إحساساته فعانقها عناقاً فاتراً فتحركت في نفسها عاطفة الأمومة وكأنما أحست أنها أقوى منه فدنت منه ولصقت بصدره ونظرت إلى عينيه وابتسمت ابتسامة رقيقة عذبة وقالت : « عم مساء . تعال إلي غداً » ثم طبعت على فمه قبلة حلوة أذهلت يوري ودار لها رأسه ووقف منها موقف العابد من ربه .

ولما انصرفت عنه ظل برهة طويلة يصغي إلى وقع قدميها ثم التقط قبعته ونفض عنها أوراق الشجر الذاوية قبل أن يضعها على رأسه ومضى إلى الدير من طريق طويل تفادياً من لقاء سينا .

وقال لنفسه : « آه ! ألا بد لي من تدنيس هذه الفتاة الطاهرة النقية ؟

أينتهى الأمر بأن أفعل ما يفعله أى رجل غيرى من الأوساط ؟ بارك الله فيها ! إن هذا يكون خسة ودناءة . ويسرنى أنى لم أهو إلى هذا الحضيض . وما أفظع ذلك ! فى لحظة واحدة.. بدون كلام ... ينقلب الانسان حيوانا ! ».

وهكذا كان يفكر مشمئزا مما كان قبل لحظة مبعث سرور وقوة له . وتنازعه الإحساس بالخجل والسخط — حتى رجلاه كان يجرهما وحتى قبعته كانت على رأسه وكأنها على رأس ممرور أبله .

ثم سأل نفسه يائسا : « وبعد فهل أنا فى الحقيقة كفء للحياة ؟ » .

— ٣٧ —

كان الممر المفضى إلى الدير يفوح برائحة البخور والخبز ولمح يورى راهبا قويا نشيطا وفى يده وعاء فصاح به يورى : « أيها الأب ! » واضطرب لمخاطبته بهذه العبارة وظن الراهب سيحار مثله ويرتبك .

فسأله الراهب بأدب وكانت بينهما سحب من البخور : « ماذا تبغى؟ » . فقال يورى : « أليس هنا طائفة من الزوار آتون من المدينة ؟ » . فأجابه الراهب على الفور كأنما كان يتوقع هذا السؤال : « نعم فى رقم ٧ » .

ففتح يورى البــــاب فألفى غرفة يتلوى فى جوها دخان الطباق ورأى ضوءا قريبا من شرفتيها وسمع أصوات الكؤوس والشاربين وضحكاتهم وكان شافروف يتكلم ويقول : « إن الحياة داء عياء » . فصاح به إيفانوف : « وأنت مغفل لا شفاء لك ! ألا تستطيع أن تكف عن صوغك الأبدى لهذه العبارات السخيفة ؟ » .

ودخل يورى فاستقبلوه بأعظم الترحيب وأصخبه ووثب شافروف إلى قدميه وكاد يجر غطاء المائدة عنها وهو يصافح يورى ويقول له : « ما أعظم سرورى بحضورك ! الحق أن هذا فضل كبير منك ! أشكرك كثيرا » .

فجلس يورى بين سانين وبيتر الليتش وجعل ينظر حوله وكان فى الشرفة مصباحان مضيئان وكأنما وراءهما من الظلمة جدار ولكنه مع ذلك استطاع أن يرى النجوم تومض فى قبة السماء وأن يلمح الجبل عند الأفق ورءوس الأشجار العالية وسطح الماء اللامع وكانت الفراشات تأتى من الغاب وتدور بالمصباح ثم تسقط على المائدة وتموت موتا بطيئا فقال يورى لنفسه وكأنه يرثى لمصرع هذه الفراشات « ونحن أيضا كهذه الفراشات نرتمى على النار ونحوم حول كل فكرة براقة لنقضى نحبنا آخر الأمر ونتوهم أن الفكرة هى مظهر إرادة الحياة على حين ليست إلا النار التى تذيب عقولنا » .

فقال سانين ومد إليه يده بالزجاجة : « والآن فلنشرب » .

فقال يورى : « بكل سرور » وخطر له أن هذا يكاد يكون خير ما يسعه أن يصنع بل هو فى الواقع كل ما بقى عليه أن يفعله .

فشربوا جميعا وكان مذاق الفودكا فى فم يورى بشعاً حاراً مرا كالسم فعالجه بالخضر ولكن هذه أيضا لم تكن أحسن طعما فلم يسغها حلقه . وقال لنفسه : « كلا ! سواء على الموت وسيبريا إنما المهم أن أزايل هذا المكان كله ! ولكن أين أذهب ؟ إن الحياة سواء فى كل مكان ولا مهرب لى من نفسى ومتى شرع المرء يفكر فى الحياة فأخلق بها أن لا تعود أى صورة منها مرضية سواء أعاش فى جحر كهذا أم فى بطرسبرج » .

وقال شافروف : « إنى أرى أن الإنسان لاشىء من حيث هو فرد » .

فنظر يورى إلى وجهه الغبى وعينيه المتعبتين الصغيرتين الباديتين من وراء النظارة وقال لنفسه إن مثل هذا لا شىء فى الحقيقة . ومضى شافروف فقال : « إن الفرد صفر وما يرزق القوة الحقيقية إلا الذين يخرجون من صفوف الجماهير ولا يفقدون الاتصال بها ولا يقاومونها كما يفعل أبطال الطبقات الوسطى » .

فسأله إيفانوف بلهجة المتحفز : « وفى أى شىء تكون قوتهم من فضلك؟ أتظهر قوتهم فى محاربة الحكومة الفعلية ؟ ربما ؟ ! ولكن كيف تساعدهم الجماهير فى جهادهم فى سبيل السعادة الشخصية ؟ » . فقال شافروف : « آه ! هذا أنت ! إنك رجل ضخم من طراز السوبرمان . ولذلك تنشد نوعاً من السعادة يلائمك ولكننا نحن الأوساط نرى أن جهادنا فى سبيل الغير هو السعادة . انتصار الفكرة هو قوام السعادة ! » .

فسأله إيفانوف : « وهب الفكرة كانت خطأ » .

فقال شافروف : « هذا لايهم ! إن الإيمان هو كل شىء » . وهز رأسه معانداً . فقال إيفانوف بازدراء : « باه ! إن كل امرىء يعتقد أن عمله أهم عمل وأن الدنيا لايسعها الاستغناء عنه — حتى حائك ثياب السيدات يظن ذلك ويتوهمه ! وأنت تعلم هذا حق العلم وإن كنت قد نسبته على مايظهر وإذ كنت صديقاً لك فليس يسعنى إلا أن أذكرك ! » .

— فنظر يورى إلى إيفانوف نظرة البغض والمقت وسأله بلهجة الزراية : « وماهو قوام السعادة فى رأيك ؟ » .

فقال إيفانوف : « إن قوامها على التحقيق ليس الزفرات والأنات التى لا آخر لها ولا التساؤل الذى لاينتهى كأن يظل المرء حياته يقول : « لقد عطست الآن . فهل كان هذا صواباً ؟ أليس ذلك خليقاً أن يضر بعضهم ؟ هل أديت واجبى وقت بمهمتى إذ عطست ؟ » . فغاظ يورى أن يلمح أن إيفانوف يظن نفسه أذكى منه وأنه يتضاحك به فأجابه :

« إن هذا ليس برنامجاً » وحمل لهجته ما استطاع من الازدراء .

فقال إيفانوف : « أبك حقاً حاجة إلى برنامج ؟ إنى إذا شئت واستطعت أن أفعل شيئاً فعلته . هذا هو برنامجى » . فقال شافروف بحدة « ما أجمله من برنامج ! » وهز يورى كتفيه ولم يجب .

وظلوا لحظة أخرى يشربون في صمت ثم التفت يورى إلى سانين وشرع يشرح له آراءه في الله تعالى وكان يقصد إلى إسماع إيفانوف مايقول وإن لم ينظر إليه . وكان شافروف يصغى باحترام وحماسة . أما إيفانوف فأولاه ظهره وجعل يقول بعد كل بيان يلقيه يورى : « لقد سمعنا هذا من قبل ! » .

فتدخل سانين في آخر الأمر وقال لإيفانوف :

« أرجوك أن تكف عن هذا ! ألا ترى أن تكريرك عبارتك هذه ممل جداً ؟ إن لكل إنسان الحق في إبداء رأيه والحرية في اعتناقه » :

ثم أشعل سيجارة وخرج إلى الفناء فخفف سكون الليل من حرارة جسمه وكان القمر قد طلع من وراء الغابة وأراق ضوءه السلس اللين على عالم الظلام ثم سمع وقع أقدام عارية على الحشائش ورأى غلاماً يخرج من الظلام فسأله : « ماذا تريد ؟ »

فقال الغلام : « إني أبحث عن المدموازيل كرسافينا المدرسة » .

فسأله سانين : « لماذا؟ » وذكر سانين منظرها وهي عارية على حافة النهر ونور الشمس يغمر جسمها . فقال الغلام : « إن معي رسالة إليها » . فقال سانين : « اها ! لابد أنها هناك عند الجسر لأنها ليست هنا فاذهب إلى هناك » .

فمضى الغلام وغاب في الظلام وتبعه سانين في بطء وهو ينشق النسيم الرقيق الحواشي ويكرع منه كرعاً وسار حتى دنا من المسكن وصار الضوء المرسل من النافذة على وجهه الهادي المفكر فلمح سينا عند النافذة واقفة في ثياب النوم وعلى كتفها المستدير الرقيق نور المصباح وكانت غارقة في خواطرها ويظهر أنها كانت سارة إلا أن فيها ماتستحي منه فقد كانت أجفانها تختلج وعلى شفتيها ابتسامة مرتسمة فرأى فيها سانين ابتسامة العذراء الناضجة المتأهبة لقبلة ساحرة طويلة . فوقف جامداً مكانه وجعل يحدق فيها .

وكانت سينا تفكر فيما مر بها في يومها وفي تجاربها التي سرتها وأثارت على هذا حياءها وخجلها فقالت لنفسها : « يا إلهي ! أو قد هويت إلى هذا

الدرك ؟ » ثم ذكرت للمرة المائة مافازت به من الغبطة وهي بين ذراعي يوري وحسه « واحبيتاه ! » ولحظ سانين اختلاج جفونها مرة أخرى وابتسامتها ولم تشأ أن تفكر فيما تلا ذلك مما دفعت إليه العاطفة الجامحة . ودق الباب فسألت سينا : « من الطارق ؟ » — ورأى سانين جيدها الناصع الرقيق كأوضح مايكون — فقال الغلام : « هذا خطاب إليك » .

ففتحت سينا الباب ودخل الغلام وقدماه تحملان طوائف شتى من الأوحال ونزع قبعته عن رأسه وقال : « قد أرسلتني سيدتي » .

ففضت سينا الرسالة وقرأت : « عزيزتي سينرتشكا ! إذا استطعت فاحضري الليلة فقد جاء المفتش وسيزور مدرستنا غدا صباحاً ولا يحسن أن تكوني غير موجودة » . فسألتها عمتها « ماذا ؟ » فقالت سينا : « قد أرسلت ديبوفا في طلبي لأن المفتش حضر » . وحك الغلام قدميه وقال : « لقد أمرتني أن أرجوك أن تبادري إلى الذهاب » فسألتها عمتها : « أذاهبة أنت ؟ » .

أجابت : « كيف أذهب وحدي في الظلام ؟ » .

فقال الغلام : « إن القمر في كبد السماء والليل منير » .

فقالت سينا مترددة : « لابد لي من الذهاب » .

فقالت عمتها : « نعم نعم . اذهبي لئلا يحدث مالا تحبين ؟ »

فهزت سينا رأسها وقالت : « حسن سأذهب إذاً » .

ولبست ثيابها ووضعت قبعتها على رأسها وودعت عمتها والتفتت إلى الغلام وقالت : « أوعائد معي أنت ؟ » فأطرق الغلام وارتبك وحك قدميه وقال : « لقد حضرت لأبقى مع أمي الليلة وهي تغسل ثياب الرهبان هنا » .

فقالت سينا : : « ولكن كيف أذهب وحدي ؟ » .

فأجابها الغلام : « حسن جداً . فلنذهب معاً » .

وخرجا إلى الظلام فقالت : « ما أبدعه من منظر ! » .

ثم ما عتمت أن ندت عنها صرخة إذ اصطدمت بإنسان فى الظلام .
فقال سانين ضاحكا : « إنه أنا » .

فمدت سينا إليه يدها المرتجفة وقالت على سبيل الاعتذار : « إن الظلام طاغ لا تنفذ فيه العين » . فسألها سانين : « أين تذهبين ؟ » .

أجابت : « إلى المدينة فقد أرسلوا فى طلبى » .

قال : « وحدك ؟ » . أجابت : « كلا ! معى الغلام وهو الليلة فارسى » . فقال الغلام ضاحكا : « فارس ! هاها ! » .

وسألته سينا : « وماذا كنت أنت تصنع هنا ؟ » فقال سانين : « كنا نشرب قليلا » : فسألته سينا . « قلت « كنا » فمن هم ؟ » .

أجاب : « نعم . شافروف ويورى وإيفانوف و . . . » .

فقالت سينا : « أوه ! وهل يورى معك ؟ » واحمر وجهها وسرت فى جسمها لذكر اسمه هزة جعلتها تحس كأنها واقفة على حرف هاوية . فسألها سانين : « لماذا تسألين ؟ » .

فقالت وزاد خجلها « لأنى . . . قا ! . . قابلته . والآن إلى الملتقى ! » . فصافح سانين اليد الممدودة إليه وقال : « إذا شئت فإنى مستعد أن أحملك فى زورق إلى الشاطىء الآخر . لماذا تقطعين كل هذه الدورة على قدميك ؟ » .

فقالت سينا : « كلا ! لاتتعب نفسك من فضلك ! » وقال الغلام : « دعيه بالله يفعل فإن الشاطىء كله أوحال تغوص فيه الرجل إلى الركبة » . فقالت : « حسن إذاً . ولنذهب إلى أمك الآن » .

فسألها الغلام « ألا توافقين أن تجتازى الحقول وحدك ؟ » .

فأجاب سانين : « سأرافقها إلى البلدة » .

فسألته سينا : « ولكن ماذا عسى أن يقول اخوانك ؟ » .

فأجابها : « هذا لايهم ! سيظلون إلى الفجر على كل حال . وحسبى ماعانيته من الملل إلى الآن » .

فقالت : « إن هذه منة أحفظها لك — اذهب ياجريشكا » .

فقال سانين : « امسكي بذراعي وإلا تعثرت » .

فلفت سينا ذراعها بذراعه وخالجها إحساس غريب لما لمست عضلاته الحديدية وهكذا مضيا فى الظلام واخترقا الغابة إلى النهر وكان الليل فى الغابة أسحم طاخيا كأنما لفت كل الأشجار فى ضباب داكن لاتنفذ العين منه . فقالت : « ما أشد الظلام ! » .

فهمس سانين فى أذنها وكان صوته يرجف قليلا : «هذا لايهم ! إنى أحب السرى فى الغابات لأن المرء حينئذ ينضوعنه ثوب الرياء ويعود أجرأ وأمتع » . وكانت سينا تجد صعوبة فى السير وشاع فى جسمها الاضطراب لملامستها فى هذه الظلمة جسم سانين القوى المتين الذى كان يجذبها أبداً واحمر وجهها وعاد كالجمرة المضطرمة وأعداها سانين بحرارة جسمه فصار ضحكها متكلفاً لاينقطع . وكان الظلام أخف عند سفح التل والقمر يريق ضوءه على صفحة الغدير والنسيم البليل يصافح خديها وأخذت الغابة تنأى عنهما وتغيب فى الظلام كأنما أسلمتها إلى النهر .

فقالت : « أين زورقك ؟ » . أجاب . « هذا هو » .

ثم أخذا مقعدهما فيه وإكسبها القمر والتماع الماء وضاءة وروعة ودفع سانين الزورق فانطلق يفرق الماء ويعوم على ضوء القمر مخلفا وراءه خطا طويلا .

فقالت سينا وأحست فجأة قوة لاتغالب : «دعني أجدف فإنى أحب ذلك » . أجاب : « إذاً فاجلسي هنا » ووقف هو فى وسط الزورق . فاحتكت به وهى تنتقل إلى مكانها الجديد ولمست بأطراف أصابعها يده الممدودة إليها لمساعدتها وبدت أمامه فى حسنها الرائع . وهكذا سبحا على متن الغدير . والقمر يرسل أشعته على وجهها الباهت وحاجبيها السوداوين وعينيها البراقتين فخيل لسانين أنهما مقبلان على أرض مسحورة منعزلة عن الناس بعيدة عن منازلهم خارجة عن دائرة القانون والعقل الإنسانى :

وقالت سينا « ما أجمل هذه الليلة ! » .

فقال بصوت خفيض : «نعم أليست كذلك ! » .

فانفجرت ضاحكة وقالت : « لا أدرى كيف هذا ولكنى أحس رغبة شديدة فى أن ألقى بقبعتى فى الماء وارسل شعرى » .

فقال سانين : « إذا فعلى » .

ولكنها قلقت وصمتت . وكرت خواطرها إلى ما مر بها فى يومها من التجاريب وخيل لها أن من المستحيل أن لا يكون سانين عارفا بما جرى فزاد هذا الظن فى حدة سرورها ونازعتها نفسها أن تقول له أنها ليست دائما ساكنة حيية محتشمة وأنها أحيانا تلقى عن وجهها قناع الرياء وتعود شخصاً آخر مختلفا جدا .

وسألته بصوت مضطرب : « هل عرفت يورى منذ زمن طويل؟ » ، أجاب « كلا ! لماذا تسألين ؟ » .

قالت : « مجرد سؤال . ألا تظنه ذكياً ؟ » .

وكانت فى صوتها نبرة حياء صبيانى كأنما كانت تريد أن تنتزع شيئاً ممن هو أسن منها ومن له أن يلاطفها أو يعاقبها .

فابتسم سانين لها وهو يقول : « نعم ! » . وعلمت سينا من صوته أنه يبتسم فزاد حياؤها وقالت : « إنه حقيقة ذكى ... ولكنه شقى على مايظهر ! » . فأجابها سانين : « ربما كان الأمر كما تصفين . فأما شقاؤه فلا شك فيه . وهل أنت آسفة له ؟ » .

فقالت سينا بدلال متكلف : « نعم بلاشك » .

فقال سانين : « هذا طبيعى ولكن للشقاء معنى عندك غير معناه الحقيقى . إنك تظنين أن الرجل الساخط الذى لا ينفك يحلل ويشرح حالته النفسية وأعماله — مثل هذا الرجل تظنينه لاشقياً مسكيناً بل تحسبينه قوة وشخصية نادرة فذة . لأنك تتوهمين أن هذا التحليل المستمر من شأنه أن يخول المرء أن يظن نفسه أرقى من سواه وأحق بالعطف والحب والإجلال » .

فسألته سينا : «حسن ولكن ماذا هو إذا لم يكن كذلك؟» .

ولم تكن قد كلمت سانين طويلا من قبل . وكانت تسمع أنه فذ فريد في بابه فوجدت لذة في ملاقاة مثل هذه الشخصية الجديدة الممتعة وضحك سانين وقال : «مضى زمن كان الإنسان فيه يعيش عيشة الوحش ولا يحمل نفسه تبعة أعماله أو إحساساته ، ثم تلا ذلك عهد الحياة الحسة المدركة فبالغ الإنسان في مقتضحها في تقدير عواطفه وحاجاته ورغباته . وهنا عند هذا الطور – يقف يورى فهو آخر «الموهيكان» – آخر من يمثل عصراً من النشوء الإنسانى مضى وانقضى ولا سبيل إلى عوده . وكأنه قد أشرب خلاصة ذلك العصر فتسممت روحه . فهو لا يحيا حياته في الحقيقة . يسائل نفسه عن كل عمل وكل فكرة «هل أحسنت؟ هل أسأت؟» . وهذا غاية السخف . وهو في السياسة لا يدرى هل يليق بكرامته أن يقف في صف مع الآخرين أم لا يليق وإذا نفض يده من الاشتغال بالسياسة عاد يعجب لنفسه أليس اعتزاله إياها مهانة له وأمثاله كثر ، وإذا كان يورى شاذا فذلك راجع إلى أنه أذكى» .

فقالت سينا بحذر : «لم أفهم مرادك تماما . إنك تتكلم عن يورى كأنه هو الملوم عن كونه كذلك . وإذا كانت الحياة عاجزة عن إرضاء رجل فهذا الرجل لابد أن يكون فوق الحياة» .

فأجابها سانين : «إن الإنسان لا يمكن أن يكون فوق الحياة لأنه ليس إلا جزءاً منها . وقد يسخط ولكن مرجع السخط إلى نفسه . فهو إما لا يستطيع أو لا يجرؤ على أن يأخذ من كنوز الحياة ما يسد حاجته . ومن الناس من يقضون حياتهم في السجون وهناك غيرهم آخرون يخافون أن يفروا منها كالطائر الأسير يفرق من الطيران إذ يطلق له . والجسم والروح معا يكونان كلا متجاوبا لا يزعجه إلى دنو الموت الرهيب ولكننا نحن الذين نقضى على هذا التلاؤم بسوء فكرتنا عن الحياة . فقد زعمنا أن رغباتنا الطبيعية حيوانية وصرنا نحس العار والخجل منها ونخفيها في صور

وضيعة . والضعاف منا لا يفطنون لهذا بل يقطعون حياتهم فى الأغلال المضروبة عليهم . أما الضحايا فأولئك الذين تقعد بهم آراؤهم المقلوبة . ولا شك أن القوى المحبوسة تتطلب منفذا وأن الجسم ينشد السرور واللذة وأنه يتعذب من جراء عجزه وقصوره . فهؤلاء وأمثالهم حياتهم صراع دائم وشك مستمر يتعلقون بكل ما يقدرون أن يعينهم ويفضى بهم إلى نظرية أخلاقية أحدث وأجد ولا يزالون كذلك حتى يعودون وهم يخافون أن يعيشوا وأن يحسوا » . فقالت سينا مبتهجة : « نعم نعم » . وغزت رأسها كتائب من الخواطر الجديدة وتلفتت حولها وعيناها تضىء وتغلغل إلى أعماق نفسها جمال الليل وحسن الغدير الساكن والغابات الحالمة وعاودها الشوق إلى تجربة القوة التى تؤتيها السرور .

ومضى سانين فى كلامه فقال : « إنى أبداً أحلم بعصر ذهبى لا يحول فيه شىء بين الإنسان وسعادته فيباشر كل ما يستطيع من المتع فى جرأة وحرية » . فسألته سينا : « ولكن كيف يصنع ذلك ؟ أبالرجوع إلى الهمجية؟ » . قال : « كلا . إن العصر الذى كان فيه الإنسان وحشا كان عصرا منحوسا . وعصرنا الحاضر الذى يتحكم فيه العقل فى الجسم ويخفيه عصر تنقصه الهمة والرشد . ولكن الإنسان لم يعش عبثا فقد خلقت له حياته حالات جديدة لاتدع مجالا لخشونة الهمجية ولا للرهبانية » .

فسألته : « وماذا عن الحب ؟ الا يفرض علينا قيودا ؟ » .

فقال : « كلا ! إن الحب إذا كان يفرض قيودا مؤلمة فذلك من جراء الغيرة . والغيرة نتيجة العبودية . والرق فى أى صورة ضار وينبغى للناس أن يستمتعوا ما يتيح لهم الحب بلا خوف ولا قيد فإذا فعلوا عاد الحب أمتع وأجمل فى كل صورة وأكثر تأثرا بالمصادفات والفرص » . فقالت لنفسها : « لم يخالجنى أى خوف فى هذه اللحظة » ثم نظرت فجأة إلى سانين نظرة من يراه لأول مرة وكان جالسا أمامها أسود العينين عريض الكتفين يشوق الناظر إليه ويروق فقالت لنفسها « ما أجمله ! » .

ويدا لعينها عالم بأسره من القوى والعواطف فهل تدخله ؟ فابتسمت لهذا الخاطر وهي ترتجف ولا بد أن يكون سانين قد أدرك ما يجول في خاطرها فقد أسرعت أنفاسه وعاد وكأنه يلهث . ومر الزورق بنقطة يضيق فيها مجرى النهر فتاق المجدافان بالأعشاب وأفلتا من كفيها فقالت : « لا أستطيع أن أجدف هنا إن المجرى ضيق » وكان صوتها رقيقا متغيا كخرير الماء . فوقف سانين وسار إليها فسألته وهي فزعة : « ماذا ؟ » . فقال : « لاشيء إني أريد . . . » .

فوقفت مثله وحاولت أن تصل إلى الدفة واضطرب الزورق اضطرابا عنيفا ففقدت توازنها ومالت إلى سانين وأمسكت به ووقعت بين ذراعيه . وفي هذه اللحظة — وبدون أن يجري في خاطرها أن هذا ممكن — أطالت التصاقها به فاندلعت النار في دماء سانين وخرجت من بين شفتيه آهة دهشة وسرور واحتضنها وردها إلى الوراء حتى سقطت قبعتها وزاد اضطراب الزورق فصاحت به : « ماذا تصنع ؟ دعني بالله ! ماذا تصنع ؟ » وكان صوتها ضعيفا خافتا . وحاولت أن تتخلص من ذراعيه الحديديتين ولكن سانين ضم صدرها إليه ضما أزال ما كان بينهما من الحواجز .

ولم يكن حولهما إلا الظلام . وإلا رائحة النهر والأعشاب البليلة . وجو يسخن تارة ويبترد أخرى وسكون عميق ثم فقدت فجأة وهي لاتدري كل إرادة لها أو فسكر فتراخت أعضاؤها وأسلمت نفسها لإرادة غيرها .

— ٣٨ —

أفاقت سينا أخيراً فأبصرت صورة القمر الوضاء مرتسمة على صفحة الماء ووجه سانين مكباً عليها بعينيه اللامعتين وأحست أن ذراعيه حول خاصرتها وأن أحد المجدافين يحك ركبتها .

ثم طفقت تبكي بكاءاً رقيقا ملحاً دون أن تحاول التخلص من عناق سانين وكان بكاؤها على ذلك الذي لايرد ودموعها دموع الخوف والمرثية

لنفسها والحب له . فرفعها سانين ووضعها على ركبته وهي مستسلمة له كالطفل وكانت تسمعه يرفه عنها بلهجة الوامق الشاكر وكأنها تحلم فقالت لنفسها : « سأغرق نفسي » وكأنما كان هذا الخاطر جواباً على سؤال شخص ثالث يقول لها : « ماذا صنعت ؟ وماذا تنوين أن تصنعي الآن ؟ »

ثم سألت سانين بصوت عال : « ماذا أصنع الآن ؟ » فأجابها سانين : « سنرى » فحاولت أن تنهض عن ركبته ولكنه أمسك بها فبقيت في مكانها وهي تعجب كيف لاتشعر له بمقت أو اشمئزاز وحدثت نفسها إن لم يعد يعنيها ما عسى أن يحدث وخالجها شعور خفي بالعجب . لهذا الرجل القوى الأجنبي الحبيب ماذا ينوى أن يصنع بها .

وبعد برهة تناول سانين المجدافين واستلقت هي إلى جانبه وعيناها مغمضتان وجسمها يضطرب كلما لامست يده صدرها وهو يجدف ولما بلغ الزورق الشاطيء فتحت عينيها فأبصرت الحقول والماء والضباب والقمر باهتاً كالشبح يهم بالفرار من الفجر وكان الفجر قد تنفس وهب النسيم بارداً فسألها سانين : « هل أذهب معك ؟ » فقالت : « كلا . إني أفضل أن أمضي وحدي » فحملها سانين وسره أن يحملها فقد كان يحس أنه يحبها وأنه مدين لها بالشكر ووضعها على الشاطيء بعد أن ضمها وقال : « يالك من حسناء ! » فابتسمت ابتسامة الزهو . وتناول سانين يديها وجذبها إليه وقال : « قبليني » فقالت لنفسها وهي تطبع على فمه قبلة حارة طويلة : « لايهم الآن ! إن كل شيء لايهم ! » وهمست في أذنه : « إلى الملتقى » وهي لاتكاد تدري ما تقول فناشدها سانين أن : « لاتغضبي علىّ يا فتاتي ! » وجعل يراقبها وهي تصعد الشاطيء مترنحة متطرحة وهو يرثى لها وأحزنه ما هو مذخور لها من الآلام التي لا ضرورة إليها والتي لاقبل لها باحتمالها وكانت تسير في بطء إلى مطلع الفجر ولم تلبث أن لفها الضباب في شملته البيضاء .

ولما خفيت عن عينه وثب سانين إلى الزورق وجلد المساء مجدافيه

فأرغاه واندفع به الزورق حتى توسط النهر وكان ضباب الفجر قد غشى ما حوله فترك المجدافين ووقف فى وسط الزورق وأطلق صيحة فرح عالية فتجاوبت بصيحته الغابات والضباب كأنما كانت حية مثله .

— ٣٩ —

نامت سينا كأن ضربة أصابتها ولكنها بكرت فى القيام وكانت مهدودة القوى باردة الجسم كالجثة . ولم ينم رأسها لحظة ولم تستطع أن تنسى ماحدث فجعلت وهى حزينة صامتة تفحص ما فى الغرفة كأنما تريد أن ترى هل لحق شيئاً تغيير ولكن كل شيء كان على العهد به وكانت ديبوفا على السرير الثانى مستغرقة فى نومها وليس غير الثوب الملقى على كرسى بدون احتفال يقص علينا قصتها . وزاد وجهها اصفراراً وأحضرت لذهنها كل ما مر بها ثم نهضت ولبست ثيابها وجلست إلى النافذة تنظر إلى الحديقة وكان رأسها يموج بالخواطر المضطربة المبهمة كالدخان إذ تعبث به الريح . ثم استيقظت ديبوفا فجأة وقالت : « ماذا ؟ أوقد قمت ؟ ما أعجب هذا ؟ » .

وكانت لما حضرت سينا صباحا قد سألتها والنوم يغالبها :

« كيف استطعت أن تحضرى فى هذه الليلة ؟ » ثم نامت ولم تنتظر الجواب ولكنها لما تبينت الآن أن فى الأمر شيئاً أسرعت حافية وسألتها « ما الخبر ؟ أمريضة أنت ؟ » فقالت سينا وعلى شفتيها الورديتين ابتسامة : « لا لا ! ولكنى لم أذق النوم ».

وهكذا نطقت بأول اكذوبة أحالت عذريتها الصريحة المزهوة ذكرى وجعلت تنظر إلى ديبوفا وهى تلبس ثيابها فبدت لها تفهة وضاعة ورأت نفسها بغيضة كالأفعى وبلغ من ذلك أن خيل لها أن الجانب الذى كانت ديبوفا واقفة فيه مشمس ضاح على حين بدا لها ركنها مغموراً بالظلام . ولكن ذلك كله كان مكتوماً ولم يكن ظاهرها الظاهر ينم على شيء ثم لبست حلتها وقبعتها

وتناولت مظلتها وذهبت إلى المدرسة جذلة على عادتها وبقيت ثم إلى الظهر ثم عادت وقابلت فى الطريق ليدا فوقفتا تتحدثان عن أمور تافهة كثيرة وكانت ليدا تعتقد سينا لظلها أنها سعيدة حرة فارغة القلب من الهموم على حين كانت سينا تنفس على ليدا حياتها السلسلة الممتعة وكانت كل منهما تعتقد أنها ذاهبة ضحية الظلم وتقول لنفسها: « إنى ولا شك خير منها فلماذا تسعد وأشقى ؟ » .

وتناولت سينا بعد الغداء كتاباً وجلست قرب النافذة تقرأ وكانت ساعة الانفعال قد انقضت فصارت الآن لاتحفل بشيء وجعلت تردد من حين إلى حين : « آه ! لقد قضى الأمر . وخير لى أن أموت » . ورأت سانين قبل أن يراها وكان سائرا صوبها يخترق الحديقة وينحى عنه الأغصان المتهدلة كأنما تريد أن تحييه بلمسها فاضطجعت فى كرسيها وجعلت ترقبه بعينين شاردتين .

وقال ومد إليها يده : « عمى صباحاً » . وقبل أن تستطيع أن تنهض أو تفيق من دهشتها حياها مرة أخرى بصوت رقيق فتمتمت : «عم صباحاً» قال إلى النافذة واتكأ عليها وقال : « تعالى إلى الحديقة برهة نتحدث » . فنهضت تدفعها قوة سلبتها إرادتها وقال سانين : « سأنتظرك هناك » فلم ترد على أن هزت رأسها .

وكانت سينا تشفق من النظر إليه وهو يتراجع إلى الحديقة فظلت بضع ثوان جامدة فى مكانها ويداها متصافقتان ثم خرجت وكان سانين واقفا ينتظرها فى بعض جهات الحديقة فأقلقتها ابتسامته فتناول كفها وجلس على جذع شجرة وجذبها برفق إلى حجره وقال : « لست واثقا من أنه كان يليق بى أن أحضر لأنى أخشى أن تظنى أنى أسأت إليك ولكنى لم أستطع البقاء بعيدا عنك وأريد أن أشرح لك بعض الأمور حتى لاتذهبى إلى مقتى وكرهى . وبعد ... فاذا كنت أستطيع أن أفعل غير مافعلت ؟ كيف كان يسعنى أن أقاوم ؟ لقد مرت بى لحظة شعرت فيها أن كل حاجز بيننا تداعى وأنى إذا أفلتنى هذه اللحظة فلن تعود وأنت رائعة الجمال وضيئة

الشباب . . . » وكانت سينا صامتة وأذنها الرقيقة الشفافة يغطيها شعرها إلا أقلها فاحمرت واختلجت أهداب أجفانها فقال سانين : « إنك شقية الآن . أما البارحة فما كان أحلى كل شيء ! وإنما تنشأ الأحزان لأن الإنسان فرض ثمنا لسعادته ولو أن أسلوب حياتنا كان مختلفا لبقيت ليلتنا هذه فى ذاكرتينا أنفس ماجربناه وأحلى ما استمتعنا به » . فقالت : « نعم لو أن . . . » ثم انتسمت فجأة فأنعشتها ابتسامتها التى لم تكن مقدرة ولكن ذلك لم يطل إلا برهة . ثم تراءت لها حياتها المستقبلة تكتنفها الأحزان والعار فأثارت فى نفسها هذه الصورة الحقد والمقت وقالت بحدة : « اذهب عنى ! دعنى ! » . وصرت أسنانها وتصلب وجهها ونطق بالبغض وهى تنهض .

فرق لها قلب سانين ونازعته نفسه هنيهة أن يعرض عليها اسمه وحمايته ولكن شيئا صده وصرفه وأحس أن مثل هذا الإصلاح لما أفسد أحط وأسفل من أن يعالج . ثم قال : « إنى أعلم أنك تحبين يورى فلعل هذا مايكربك ؟ » . فتمتمت سينا وشدت كفا على كف : « لست بعاشقة أحد » . فقال سانين مستعطفا : « لاتحملى لى ضغنا . إنك كما كنت جمالا وحسنا وقدرة على إيتاء يورى ما أوليتنى إياه من السعادة وإنى لأتمنى لك من أعماق قلبى كل غبطة ميسورة ونعمة ممكنة وسأتمثلك دائما كما رأيتك البارحة . فالوداع وابعثى فى طلبى إذا احتجت إلى . واعلمى أن حياتى مبذولة لك إذا أردت » . فنظرت إليه سينا وهى صامتة وأحست عطفا عجيبا وقالت لنفسها : « من يدرى ؟ ربما استقامت الأمور » . وتجرد المستقبل من البشاعة فى نظرها ووقف الاثنان وجها لوجه وهما يعلمان أن فى صدريهما سرا لاسبيل لأحد إليه وأن ذكرته ستبقى على الأيام سارة . وقالت سينا : « إلى الملتقى » بصوت رقيق عذب فأضاء السرور وجه سانين ومدت إليه كفها فقبلها وقبلته قبلة الأخوين ورافقته إلى بوابة الحديقة ثم وقفت وجعلت تراقبه أسفة وهو يمضى عنها ثم كرت راجعة إلى الحديقة واستلقت على النجائل

وأغمضت عينها وفكرت فيما وقع وتساءلت أينبغى لها أن تطلع يورى عليه أم تكتمه . وقالت : «كلا ! لن أفكر فى هذا مرة أخرى ويحسن أن تنسى بعض الأمور » .

— ٤٠ —

استيقظ يورى صباح اليوم التالى متوعكا مصدع الرأس مر الفم . ولم يذكر فى أول الأمر إلا صيحات وأصوات كؤوس وضوء مصابيح ضبابية قرب الفجر ثم ذكر كيف أن شافروف وبيتر اليتش مضيا وأنه بقى مع إيفانوف وكان هذا قد اصفر من كثرة الشراب ولكنه ظل متماسكا وأنهما وقفا يتحدثان فوق الشرفة .

ولم تدع لهما الخمر عينا تفطن إلى جمال الفجر والمروج والنهر وظلا يتناقشان وأنبت إيفانوف ليورى أن أمثاله لا قيمة لهم إذ كانوا يخافون أن يقطفوا ثمار الحياة وأن خيرا لهم أن يموتوا وذكر قول بيتر الليتش : «إنى على التحقيق لا أدعو هؤلاء الأشخاص رجالا » وضحك وتوهم أنه هدم يورى وقضى عليه ولكن يورى لم يسوءه ذلك ولم يعبأ من كلامه إلا بقوله إن حياته شقية وذهب يعلل ذلك بأن أمثاله أدق حسا وألطف شعورا ووافق على أن خيرا لهم أن يخرجوا من الدنيا ثم طغى حزنه حتى كاد يبكى وهم بأن يخبر إيفانوف بحبه لسينا وما وقع له معها وأن يلقى بشرفها تحت قدمى هذا الوحش .

وذكر أيضا أن إيفانوف عاد بعد برهة ومعه سانين وأن سانين كان منشرح الصدر كثير الكلام وأنه كان ينظر إلى يورى نظرة ود مشوبة بالزراية ثم انتقلت خواطره إلى سينا فقال لنفسه . «لقد كان من الحسنة أن أنتهز فرصة ضعفها . ولكن ماذا أصنع الآن؟ أأملها ثم أرمى بها . كلا ! هذا لاسبيل إليـــه فإنى أرق قلبا من ذلك إذا ماذا أفعل ؟ أأتزوج منها ؟ » .

. الزواج ! إن هذا مبتذل إلى حد شنيع . وكيف يستطيع من كان مثله معقد المزاج أن يحتمل فكرة المعيشة الزوجية العامية، إن هذا مستحيل : « على أنى أحبها . فهل أنبذها وأمضى ؟ ولماذا أقضى على سعادتى ؟ إن هذا فظيع ومضحك ! » .

ثم وصل إلى البيت وحاول أن يصرف خواطره عن هذا الموضوع فجلس إلى المكتب وشرع يقرأ بعض عبارات فخمة كان قد كتبها أخيراً . « ليس فى هذه الدنيا خير ولا شر . ويقول البعض إن الطبيعى خير وإن الإنسان حقيق أن يرضى شهواته ، لأنها طبيعية ولكن هذا خطأ لأن كل شىء طبيعى . وما من شىء يولد فى الظلام أو الفراغ . وأصل كل شىء واحد » .

« ويقول آخرون كل شىء يخرج من يد الله حسن . ولكن هذا أيضا خطأ لأن الله إذا كان موجودا مصدر كل شىء حتى الكفر . وهناك آخرون يقولون : إن الخير هو فعل الخير والإحسان إلى الناس . وكيف يكون ذلك ؟ إن ما ينفع واحدا يضر غيره ، يطلب الرقيق حريته . ويستبقيه سيده عبدا رقيقا والغنى يبغى بقاء ثروته ، والفقير ينشدها ، وينشد المظلوم الإنصاف والحرية، والظافر أن لا يهزم ، والمشنوء أن يحب ، والحى أن لا يموت ، والإنسان أن يقضى على الوحوش ، والوحوش أن تفترس الإنسان — هكذا كانت الحالة فى البداية وهكذا ستظل إلى آخر الدهر ، وليس من حق إنسان كائنا ما كان أن يستأثر بما هو خير له وحده » .

« ويقول الناس إن الحب خير من البغض ، وهذا أيضا خطأ لأنه إذا كان ثم جزاء فخير على التحقيق للمرء أن لا يذهب إلى الأثرة والأنانية ، ولكن إذا لم يكن ثم جزاء فخير له أن يفوز بنصيبه من السعادة تحت الشمس » .

ومضى يورى فى تلاوة هذا الذى كان كتبه وهو يظن أن خواطره

هذه مدهشة العمق وقال لنفسه . « إن هذا صحيح » واستشعر الزهو . ثم مضى إلى النافذة وأطل على الحديقة حيث كانت الأرض مغطاة بالأوراق الصفراء فأحس أن لون الموت يطالعه من كل ناحية وصار حيثما أدار بصره يرى أوراقا ذابلة وحشرات ارتهنت حياتها بالحرارة والدفء ولم يستطع يورى أن يفهم هذا السكون وملأ الصيف المنصرم قلبه بالسخط فقال : « لقد زحف الخريف وسيتلوه الشتاء والجليد ثم الربيع فالصيف فالخريف كرة أخرى وتدور الأعوام دورتها الأبدية المملة . وماذا أصنع طول هذا الزمن ؟ ما أنا صانعه الآن ؟ كلا فسأكون أبدا حسا وأكل ذهنا ثم يوافيني الهرم وفى عقبه الموت » .

وغزت ذهنه الخواطر التي كانت تربكه أبدا فراح يتوهم أن الحياة قد مرت به وأنه ليس فى الدنيا وجود خاص — حتى حياة الأبطال تكون مفعمة بدواعي الملل والشجن فى مفتتحها وخالية من بواعث السرور فى ختامها . ثم صاح : «عمل ! نصر من أى نوع ! انتدثم اخمد بلا خوف ولا ألم ! هذه هى الحياة الحقيقية الوحيدة» . وخطر لذهنه ألف عمل كل منها أفحل من الآخر فأغمض عينيه فتمثل لخياله منظر الصباح فى بطرسبرج وبدت أسوار مرتفعة بينها مشنقة. وتصور فوهة مسدس ملتصقة بجبينه وخيل له أنه يسمع صوت انطلاقه على وجهه فقال: « هذا هو الذى يدخره القدرلى ! هذا مصيرى ! ». فخفيت أعمال البطولة وحل محلها إحساسه بالعجز وخيل له أن ما يحلم به من الأعمال المجيدة ليس إلا أوهاما صبيانية . فقال: « لماذا أضحى بنفسى أو أحتمل الإهانة والموت لتنقى طبقات العمال فى القرن الثانى والثلاثين آلام الجوع والفقر الجنسى ؟ إلى الشيطان بكل من فى الدنيا من العمال وغير العمال! بودى لو ضربنى بعضهم برصاصة ! نعم أود أن يقتلنى بعضهم بضربة من خلف حتى لا أحس شيئا . ما هذا الكلام الفارغ ؟ ولماذا أطلب أن يفعل غيرى هذا ؟ ألا يمكن أن أفعل أنا ذلك ؟ هل بلغ من جبنى أن لا أستطيع

أن أختصر هذه الحياة التى أعلم أنها حياة شقاء محض ؟ إن المرء يموت لامحالة فخير ... » ودنا من المكتب الذى فيه مسدسه وأخرجه منه وقال : «لنفرض أنى جربت ! لا لأقتل نفسى فعلا بل على سبيل التلهى والمزاح ...» ووضع المسدس فى جيبه وخرج إلى الشرفة المؤدية إلى الحديقة وكانت الأوراق الصفراء منتشرة على الدرج فرفسها برجله وأطارها فى كل ناحية وصفر لحنا شجيا حزينا . فسألته ليالبا : «ما هذا اللحن ؟ أهو رثاء لشبابك الراحل؟» وذهبت إليه فقال : « لا تهتمى » وأحس منذ هذه اللحظة أن شيئا يدنو منه وأن لا طاقة له على دفعه فراح يتنقل فى أرجاء الحديقة وهو مضطرب ومضى إلى النهر حيث كانت الأوراق الذاوية عائمة على صفحته . وظل برهة يرقب الدوائر تتتابع على سطح الماء والأوراق ترقص ثم كر إلى البيت ووقف فى طريقه يتأمل أحواض الزهر وكانت فيها بقية منه ثم انقلب إلى الحديقة وكانت فيها شجيرة بلوط خضراء الأوراق وعلى مقعد فى ظلها قعد فرمقه يورى [illegible] عيناه وجعل يكرر : « أن هذا هو المنتهى » وكانت هذه الألفاظ تقع من نفسه موقع السهم فعاد يقول : « كلا ! ماهذا الهراء ؟ إن حياتى كلها لا تزال أمامى وإنى مازلت فى الرابعة والعشرين من عمرى [illegible] هذا بالذى يقضى ، وما هو ؟ » وذكر سينا فجأة وخطر له أنه من المستحيل عليه أن يقابلها بعد ذلك المنظر الفاضح فى الغابة والخبر إلى أن [illegible] اللحظة ظهرها وماءت فراقبها يورى باهتمام ثم جعل يمشى [illegible] إن حياتى مملة جافة .. ولا أدرى . . . كلا ! إن [illegible] !

[illegible] وانبسط أمامه المستقبل باردا فارغا موحشا فقال [illegible] . وفى هذه اللحظة مر السائق وفى يده دلو ماء [illegible] الذاوية الصفراء وبدت الخادمة فى حرم الباب ونادت يورى [illegible] برهة لا يفهم ما تقول ثم قال لما أدرك أنها تدعوه إلى الطعام

«نعم نعم .» وحدث نفسه : الطعام ؟ أتناول طعاما ! ما أقطع هذا ! كل شيء سيكون على العهد به : أعيش وأقطع قلبي بالتساؤل عما ينبغي لى أن أصنعه لسينا ولغيابى وأعمالى ؟ إذا فلا بد من التعجيل وإلا لم تبق فى الوقت فسحة إذا ذهبت إلى الطعام » . وغلبته الرغبة فى الإسراع فراح كل عضو من أعضائه يرعد وأحس أنه لن يحدث شيء ولكنه كان على هذا يشعر أن الموت يرنق فوقه وكانت الخادمة لا تزال واقفة فى الشرفة ويداها تحت منشفتها تنشق نسيم الخريف الرقيق فتسلل يورى كاللص وراء شجرة البلوط حتى لا يراه أحد من الشرفة وأطلق مسدسه بسرعة مدهشة على صدره وخيل له أن النار أخطأته ففرح وعاوده الشوق إلى الحياة والفزع من الموت فصرخت الخادمة وارتدت إلى البيت وما هى إلا برهة ثم رأى يورى حوله جمهورا من الناس وصب أحدهم ماء باردا على رأسه ولصقت ورقة ذاوية بجبينه وضايقته وسمع أصواتا عالية من حوله وبكاء ونداء : « يورى ! يورى ! لماذا ؟ لماذا ؟ فعرف أنها أخته ليالبا وفتح عينيه وأخذ يغالب الموت بعنف وصاح : « إلى بطبيب عجلوا » ولكنه أحس مع هذا أن الأمر قد قضى وأنه لا سبيل إلى نجاته وثقلت الورقة الصفراء على جبينه وضغطت على ذهنه فمط عنقه مستوضحا ولكن الأوراق ظلت تكبر فى رأى عينه حتى دون النظر ولم يدر يورى ماذا حدث بعد ذلك .

— ٤١ —

أسف كل امرىء على يورى سواء فى ذلك من أحبوه ومن ابغضوه ومن احتقروه ومن لم يفكروا فيه . ولم يفهم أحد منهم باعثه على الانتحار وإن كانو يظنون أنهم يعلمون وأن فى أعماق نفوسهم بعض ما خامر نفسه . ولم يشيعه من أهله أحد لأن أباه كان قد أصيب بالفالج

ولم يسمح أخته لياليسا أن تتركه فناب ريازانتزيف عن الأسرة وتولى الإشراف على الجنازة والدفن وكان هذا وقع حزن فى نفوس المشيعين وغمر النعش بورود الخريف الجميلة ووسد يورى بين بيضائها وحمرائها هادئا ساكنا ليس على وجهه أقل أثر للعراك أو الألم .

ولما مرت الجنازة ببيت سينا لحقت بها هى وديبوفا وكانت سينا مكسورة القلب مضطربة كأنما يسوقها سائق إلى إعلان فضيحتها وكانت على يقين من أن يورى لم يسمع بما أصاب عفافها ولكنها على هذا رأت علاقة بين هذا وموته وكانت قد قضت الليل فى البكاء وفى تقبيل وجه حبيبها المرتسم فى خيالها وطلع الصبح فاكتظ قلبها بحبه ومقت سانين واستفظعت كل ما قاله لها سانين وكانت قد آمنت به فلما دنا منها وهى سائرة فى الجنازة نظرت إليه نظرة فزع واشمئزاز وانصرفت عنه وأدرك سانين لما سلم عليها ما تحسه وتفكر فيه وعلم أنهما بعد اليوم غريبان فعض شفته وانضم إلى إيفانوف وقال له : « اسمع ! إن بيتر الليتش سيموت ثملا ! » . فقال إيفانوف « ما أغرب هذا الضعف ! يقتل نفسه فى لحظة ! » . فأجابه سانين : « إن اعتقادى أنه قبل أن يطلق مسدسه بثلاث دقائق لم يكن يدرى أينتحر أم يحيا . لقد مات كما عاش » . فقال إيفانوف : « إنه على كل حال قد وجد لنفسه مكانا » . وتلقت الأرض يورى . وفى هذه اللحظة . حين كاد النعش يخفى عن النظر وتفصل الأرض إلى الأبد بين من عليها ومن تحتها صرخت سينا فتجاوبت المقبرة بصرختها وعويلها ولم يعد يمكنها أن تكتم سرها فمضوا بها عن القبر وهيل التراب وسوى ورفعت عليه بعض الصور .. وقلق شافروف وقال : « أليس من يرثيه ؟ أيها السادة إن هذا لا يليق ! لا بد من تأبينه » .

فقال إيفانوف مقترحا بخبث « اطلب من سانين ذلك » .

فقال شافروف : « ساتين ؟ وأين هو ؟ آه فلاديمير ساتين هل تتفضل بإلقاء كلمتين ؟ إننا لانستطيع أن نمضى دون أن نرثيه » .

فقال ساتين بجفوة : « إذا فارثه أنت » وكان يصغى إلى سينا وهى تبكى بعيداً عنهم فقال شافروف : «لو استطعت لفعلت إنه كان حقيقة . . رجلا نادراً . . أليس كذلك ؟ قل من فضلك كلمة ! » . فنظر ساتين اليه شزراً وقال بلهجة المغضب .

« ماذا عسى أن أقول ؟ لقد نقصت الدنيا مجنونا . هذا كل مافى الأمر». فوقعت هذه الكلمات أوضح ماتكون على مسامع الحاضرين وبلغ من ذهولهم أن لم يجدوا جوابا ولكن ديبوفا صاحت بصوت عال : « يا للفضيحة ! » فسألها ساتين وهز كتفيه : « لماذا ؟ » فهمت ديبوفا بأن تصيح فى وجهه وأن تهدد بقبضة يدها ولكن رفيقاتها منعنها وتفرق الجمع بغير نظام وكانت عبارات الاحتجاج تخرج من كل فم وتشتت المشيعون كالأوراق الذاوية عصفت بها الريح وجرى شافروف ثم ارتد ووقف ريازانتزيف مع بعضهم يومىء إيماءات عنيفة . وكان ساتين غارقا فى خواطره يحدق فى وجه رجل على عينيه نظارة ثم التفت إلى إيفانوف وكان مرتبكا ولم يكن يقدر حين أحال شافروف عليه أن يكون هذا رده فأسف وكان إلى جانبه شاب يتكلم بحرارة فسمره إيفانوف بنظرة وقال له : «يظهر أنك تظن أنك حلية وزينة» فخجل الشاب وقال : « ليس فى هذا مايضحك» . فصاح به إيفانوف : «لعنك الله اذهب عنى ! » وكانت نظرته من العنف بحيث لم يسع الشاب إلا المضى . وكان ساتين يراقب ذلك فابتسم وقال : « ما أحمقهم جميعا ! » .

فقال ايفانوف « هيا بنا ! إلى الشيطان بهم »

ومرا فى طريقهما بريازانتزيف ورأى ساتين زمرة من الشبان لايعرفهم واقفين ورأس كل منهم إلى رأس صاحبه وفى وسطهم شافروف يتكلم ويومىء فلما دنا منهم ساتين سكت والتفتوا جميعاً لينظروا إلى ساتين وفى

وجوههم امارات السخط والغضب والاستغراب فقال إيفانوف « إنهم يأتمرون بك » واستغرب نظرة سانين الحزينة وتقدم شافروف ودنا من سانين فالتفت هذا إليه بحدة كأنما يتهيأ لأن ينقض به الأرض . ويظهر أن شافروف أدرك ذلك فقد أصفار ووقف على بعد وحف به الطلبة والفتيات كالأغنام وسأله سانين : « ماذا تريد غير ذلك ؟ » . فقال شافروف وهو مرتباك : « إننا لانريد شيئاً ولكن كل زملائي يريدون أن أعرب عن سخطهم . . . » فقال سانين وأسنانه مطبقة : « ما أعظم اهتمامي بسخطكم ! لقد سألتني أن أقول كلمة عن الميت فلما صارحتكم برأيي جئت تعرب لي عن سخطك . وهذا حسن منك . ولولا أنكم زمرة من الصبيان الحمقى المغرورين لأثبت لكم أني مصيب وأن حياة يوري كانت حياة سخيفة لأنه قضاها في التسازل عن كل مالا يجدى ثم مات ميتة الحمقى — ألا أنكم جميعاً لأكثف ذهناً وأضيق عقلا من أن تستحقوا الكلام . فإلى الشيطان بكم جميعاً . أذهبوا عني ! » . ولم يقلها حتى انطلق يشق لنفسه طريقا بينهم فقال شافروف : « لاتدفعني من فضلك » وصاح بعضهم « لم أر أوقح ... » ولم يتم عبارته . وسأله إيفانوف : « ما الذي يخيف الناس منك ! إنك تفزعهم أشد الفزع ! »

فقال سانين : « لو ضايقك هؤلاء الشبان بأرائهم الخرقاء في الحرية لعاملتهم بأحسن من معاملتي لهم فليذهبوا جميعاً إلى الجحيم » .

فقال إيفانوف « دعنا من هذا ياصديقي . هل تدرى ماذا يجب أن نصنع ؟ نشتري شيئا من الجعة ونشربها على ذكرى يوري » .

فقال سانين بدون اكتراث « إذا شئت »

ومضى إيفانوف في تفصيل اقتراحه فقال : « لن يكون هناك أحد حين نعود . فلنشرب الجعة بجانب القبر وللفقيد احتراماً ولأنفسنا المتعة » . فقال : « حسن جدا » . ولم يكن على القبر أحد حين عاد فجلسا وماكادا

يفعلان حتى خرج من التراب ثعبان أسود فظيع فصاح إيفانوف وهو يرعش « ثعبان » . ثم شربا وألقيا بالزجاجات الفارغة على الحشائش المغروسة على القبر الجديد .

(٤٢)

قال سانين لإيفانوف وهما يجتازان الشارع في المساء : «اسمع» ! قال : « ماذا » ؛ قال : « تعال معي إلى المحطة فإني مزمع رحيلا» فوقف إيفانوف وسأله عن السبب فقال سانين : «لأني مللت هذا المكان» فقال إيفانوف « أترى أخافك شيء ؟ » أجابه : « أخافني أني راحل لأني أريد ذلك » قال : « نعم . ولكن ما السبب ؟ » .

أجاب : « يا صديقي لا تسأل هذه الأسئلة السخيفة . إني راحل وكفى وما دام المرء لم يستبطن الناس فقد يبقى له أمل فيهم . ولكن تأمل بعض من نعايشهم هنا : خذ مثلا سينا أو سميتوف أو ليدا نفسها التي كان يمكنها أن لا تكون عامية النفس أوه ! إنهم يضجرونني الآن وقد مللتهم وأضنتني معاشرتهم وطال صبري عليهم واحتمالي لهم ولم تعد لي طاقة على ذلك » .

فحدق إيفانوف في وجهه قليلا وقال : « تعال ! إنك لا شك ستودع أهلك ؟ » . فقال سانين « كلا ! لست من يفعل ذلك فإنهم هم الذين أملوني » . أجاب : « ولكن أين أمتعتك؟ » .

قال : « ليس عندي شيء كثير . وإذا انتظرتني في الحديقة ذهبت إلى غرفتي وألقيت إليك بالحقيبة من النافذة حتى لا يكثروا من السؤال عن الأسباب والدواعي وعلى أي سبب هناك ما أقوله لهم ؟ » .

فقال إيفانوف « حسن . وإني لآسف جدا لسفرك يا صديقي ولكن... ماذا أستطيع أن أصنع لك ؟ » أجاب : «تعال معي» .

فقال «أين ؟» . أجاب : « إن المكان لا يهم . وفى وسعنا أن نفكر فى هذا فيما بعد فقال : « ليس معى مال». فضحك سانين وقال : « ولا أنا» . أجاب : «كلا ! إذاً فأذهب وحدك . وستبدأ المدرسة بعد أسبوعين فأعود إلى المجرى القديم» . . ونظر كل منهما إلى صاحبه ثم صرف إيفانوف وجهه وهو مرتبك كأنما كان رأى صورة مشوهة لوجهه فى مرآة . واجتاز فناء البيت ودخل سانين من الباب وانتظر صاحبه فى الحديقة المظلمة تحت نافذة سانين .

أما سانين فإنه لما مر بغرفة الاستقبال سمع أصواتا آتية من الشرفة فأصغى فإذا ليدا تقول : « ولكن ماذا تريد منى ؟ » .

فقال نوفيكوف : « لا أريد شيئاً . ولكن يخيل لى أنه من الغريب أن تظنى أنك ضحيت بنفسك ياليدا من أجلى على حين أنى أنا . . . » فقالت ليدا بصوت متهدج : « نعم نعم . أعلم ذلك وأعلم أنك أنت الذى يضحى بنفسه لا أنا . فماذا تريد أكثر من ذلك ؟ » .

فتضايق نوفيكوف وقال : «ما أقل فهمك لما أعنى ! إنى أحبك فليس فى الأمر تضحية . ولكن إذا كنت تظنين أن فى زواجنا تضحية بك أو بى فكيف نستطيع أن نتعايش ؟ أرجوك أن تفهمى . إننا لانستطيع الحياة معاً إلا على شرط واحد هو أن لايجرى فى وهم أحد منا أن فى الأمر تضحية ما . وأما أن نكون متحابين وحينئذ يكون زواجنا معقولا وطبيعيا، وإما أن لا نكون متحابين وحينئذ . . .» فشرعت ليدا تبكى فجأة، فصاح نوفيكوف : « ماذا دهاك ؟ إنى لا أفهمك . لم أقل شيئاً يسيئك لا تبكى . الحق أن المرء لا يستطيع أن ينطق كلمة واحدة» .

فقالت ليدا وهى تبكى : « لا أدرى . . » ولكن . . » .

فقطب سانين أسرته ودخل غرفته وقال لنفسه : « وهذا كل ما وصلا إليه ؟ لعله كان خيرا أن تغرق نفسها ! » .

وكان إيفانوف منتظراً تحت النافذة يسمع حركة سانين وهو يجمع أمتعته فقال : « أسرع » . فقال سانين ودلى إليه الحقيبة «خذه» . ولما تناولها وثب سانين وراءها وقال « هيا بنا » .

وأسرعا فاجتازا الحديقة وكانت الشمس قد انحدرت ولما بلغا محطة السكة الحديدية ألفيا المصابيح مضاءة ووجدا قاطرة تنفخ والناس يعدون ذات اليمين وذات الشمال وبصرا بزمرة من الفلاحين يشغلون جانباً من الإفريز بأشخاصهم وحزمهم الكبيرة

وشرب سانين وإيفانوف كأسي وداع وقال إيفانوف: «رحلة سعيدة إن شاء الله». فابتسم سانين وقال: «إن كل رحلاتي سواء لست أنتظر من الحياة شيئاً أو أسألها شيئاً. أما من حيث الحظ والسعادة فلن يبقى من ذلك كثير حتى شارفتنا النهاية — الهرم والموت: يكاد يكون هذان كل ما ذخر لنا». ثم خرجا إلى الإفريز وانتحيا منه ناحية خالية ساكنة وقال إيفانوف «الوداع مع السلامة!». أجاب: «الوداع!» وتلاثما وهما لا يدريان الدافع لهما. وصفرت القاطرة وبدأت تتحرك فقال إيفانوف: «ياصديقي لقد أصبحت كلفاً بك. وإنك للرجل الوحيد الذي صادفته في حياتي». فقال سانين وهو يبتسم: «وأنت الرجل الوحيد الذي اهتم بي» ووثب إلى إحدى المركبات وهي مارة به وصاح: «هكذا أرحل. فالوداع» وأسرعت المركبات أمام إيفانوف كأنما قررت أن ترحل مثل سانين وبدا من آخرها الضوء الأحمر في ظلام الليل ولما نأى خيل لرائيه أنه جامد في مكانه. وظل إيفانوف يرقبه برهة وبنفسه حسرة ثم كر إلى الشوارع المضاءة وقال لنفسه: «أأغرق همي؟» ثم دخل حانة ودخلت معه صورة حياته الشوهاء المملة وكالشبح.

— ٤٣ —

كانت المصابيح فاترة الضوء في جو القطار الخانق وجلس سانين بجانب ثلاثة من الفلاحين وكانوا يتحدثون ساعة دخل عليهم وأحدهم يقول: «إن الأحوال سيئة». فقال ثانيهم وكان جار سانين: «لا يمكن أن تكون أسوأ. إنهم لا يفكرون إلا في أنفسهم أما نحن فلا يكترثون لنا أو يعبأون بنا. قل ما بدا لك متى وصل الأمر إلى الدفاع عن النفس فالساعة للأقوى».

فسألهم سانين: «إذاً فما فائدة هذه الضجة؟» وكان قد حذر موضوع الكلام. فالتفت إليه أكبرهم سناً ولوح بيده وقال: «ماذا نصنع غير ذلك؟».

فنهض سانين وغير مكانه وكان خبيراً بهؤلاء الفلاحين الذين يعيشون كالدواب ولا يستطيعون أن يدفعوا الظلم أو يقضوا على الظالم ويعلقون آمالهم بمعجزة يموت في انتظارها الملايين منهم .

وكان الليل قد بسط رواقه ونام كل إمرىء ما عدا تاجراً قبالة سانين كان معه امرأة صغيرة لم تقل شيئاً ولكن عينها كانت فزعة وكان الرجل ينظر إليها شزرا ويقول أيتها البقرة ! سأريك ! » .

ونام سانين فترة من الليل حتى أيقظته صرخة من المرأة فنحي زوجها يده عنها ولكن سانين أدرك أنه كان يضربها فصاح به : « يالك من وحش ! ! »

فتراجع الرجل وهو فزع وخرج سانين إلى مؤخرة القطار ورأى في طريقه إليها كثيرين من الفلاحين رءوس بعضهم على أجسام البعض وكان الفجر قد أوشك أن يطلع فوقف سانين ينشق نسيم الصباح العليل وقال : «ما أحقر الإنسان » . ونازعته نفسه أن يعتزل الناس ولو برهة قصيرة وأن يترك القطار وجوه الملوث ودخانه وضجته . ولج به الشوق إلى الخلاص من كل ذلك .

وكان الأفق في الشرق قد احمر وغابت ظلال الليل في زرقة الأفق . فلم يضيع سانين الوقت في التفكير بل ترك حقيبته ووثب من القطار إلى الأرض .

ومر به القطار بمثل صوت مرعد وهو ملقى على الرمال البليلة اللينة فلما نهض كان المصباح الأحمر قد بعد عنه فأخرج سانين صيحة فرح وقال: « هذا حسن » .

وكان كل ماحوله طليقاً شاسعاً والحقول والمزارع منبسطة على الجانبين إلى الأفق فتنفس سانين نفساً عميقاً ورمى هذا المنظر بعينين وضاءتين ثم سار ووجهه إلى الفجر اللامع وخيل لسانين وهو يرى السهول تستيقظ وتكتسي حلتها البيضاء تحت قبة السماء وأشعة الشمس تنطلق كالسهام النارية التي يطلقونها في ليالي الأفراح

— خيل إليه إنه سائر إلى لقاء سعيد في جنة فيحاء

تمت بحمد الله